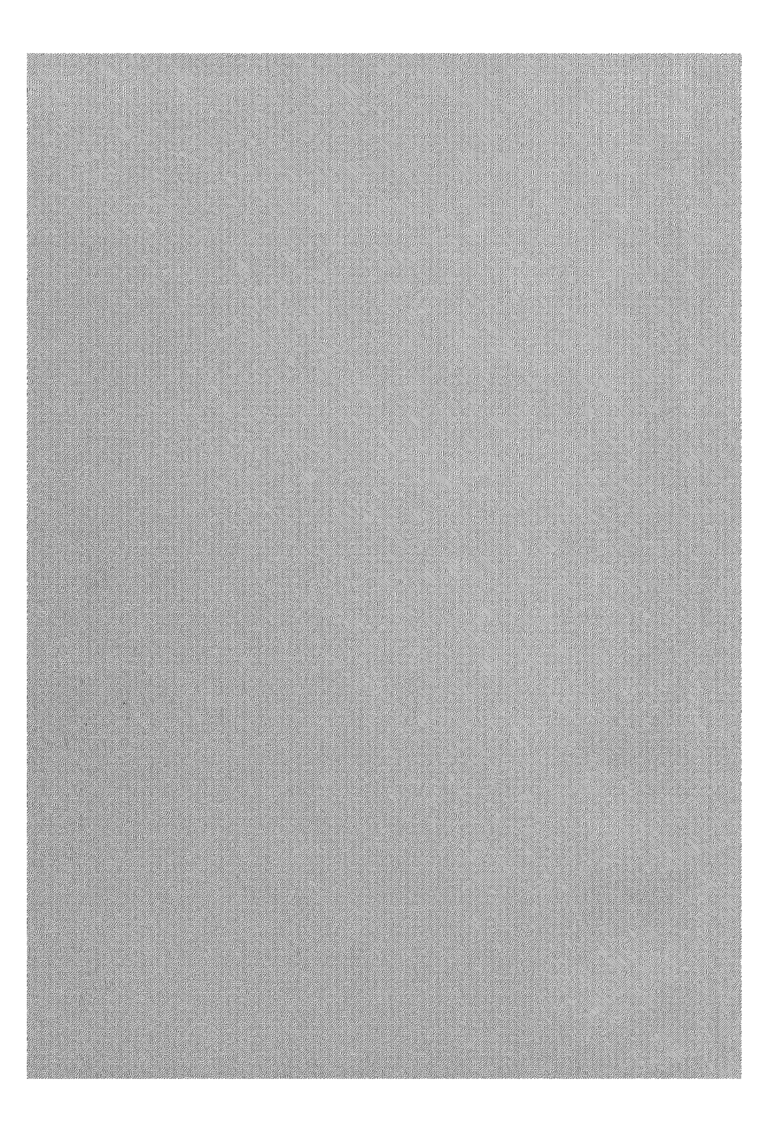
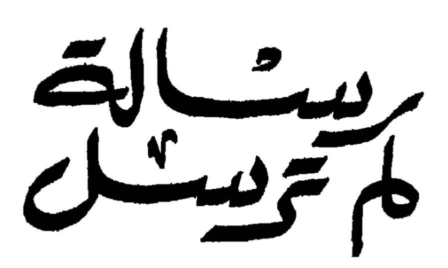
رسالة لم ترسل

قصص سوفيتية معاصرة

يضم هذا الكتاب خيرة نتاج كتاب القصة السوفييتيين المعاصرين البارزين . وقد ولج مؤلفو المجموعة ميدان الادب السوفييتي في سنين مختلفة ، ولديهم تجارب حياتية مختلفة ، وهم يمثلون مختلف الاتجاهات الاسلوبية في القصة الفنية السوفييتية . فعلى صفحات هذا الكتاب يلتقي اقدم وجوه القصة السوفييتية القصير العاطفية قسطنطين باؤستوفسكي والصحافي الشاب فاليري اوسيبوف . والى جانب القصاصين السوفييتيين الشهيرين سيرغي انطونوف ويوري ناغيبين ، اللذين ترجم نتاجهما مراراً الى الكثير من لغات شعوب العالم ، يدخل المجموعة الكاتب الشاب الموهوب يوري كازاكوف ، وهو ما يزال قليل الشهرة لدى القارئ الاجنبي ، ممثلاً بواحدة من احسن قصصه واكثرها شاعرية ، وكذلك القصاص البحري السوفييتي





قصص سوفييتية معاصرة



دار التقدم . موسكو

ترجمة وصفي البني

НЕОТПРАВЛЕННОЕ ПИСЬМО
Современные советские рассказы

На арабском языке

فاليري اوسيبوف



فاليـري اوسيبوف ـ مولـود سنة ١٩٣٠ ـ صحافي مـن حيث دراسته ، دخل ميدان الادب منذ وقت غير بعيد ، واشتهر بكونه مؤلفاً لجملة من القصص والسيناريوات . وقصته الوثائقية «رسالة لم ترسل» ، التي حظيت بتقدير القراء ، هي واحدة من بواكير نتاج الاديب الشاب . وعلى هذه القصة يرتكز سيناريو فيلم «رسالة لم ترسل» الذي يتمتع بشهرة كبيرة لدى النظارة السوفييتيين .

رسالة لم ترسل

اتفق لي ان قمت بزيارة لياقوتيـا ، في خريف ١٩٥٦ ، بصفتـي مراسلاً لجريـدة «كومسومولسكايا برافدا» . وقد سمعت هناك كثيراً من الحكايات المثيرة للاهتمام عن بطولة الجيولوجيين السوفييتيين الشبان والمكتشفين

الاوائل لمكامن الماس . وكانت احدى الحكايات اساساً لهذه القصة .

المؤلف

كنا ننتظر الطائرة في قرية صغيرة من قرى التايغــا ، ضائعة وسط غابات ياقوتيا التي لا مجال لاجتيازها . ودخل انتظارنا اسبوعه الثاني . كنا سبعة : ثلاثة جيولوجيين ، وثلاثة جيوفيزيائيين ، وصحافي .

كنــا ، في كل صبــاح ، وقبل ان تشرق الشمس ، نجتاز النهير الى لسان كبير من الارض الحصوية ، يستخدم مطارا ، فنروح نتطلع الى الافق بحنين ، ونحن جالســون على زوارق مقلوبة .

ومع حلول العتمة نعود نحو معبر النهير ، مجرجرين جزماتنا على الحصى باكتئاب .

واذ يستقر بنا المقام تأهبا للنوم ، نروح لنتجاذب الاحاديث الطويلة عن موسكو ، وعن الاصدقاء والاقرباء ، وعن الفتيات الصواحب والزوجات ، وبموجز القول ، عن كل ما لم يكن

له وجود هنا ، في التايغا النائية وراء الدائرة القطبية ، عما كنا في شوق اليه ، وما كنا نتوق بصبر فارغ للقائه .

وفي امسية من تلك الامسيات ، فيما كنا مستلقين على اكياس النوم المتسخة ، نرشف شايا جد ثقيل من علب كونسروة عتيقة ، شرعنا فجأة نتحدث عن التضحية بالنفس . لم اعد اذكر من اين كان منطلق هذا الحديث . بدأ احدهم على نحو غير ملحوظ ، فأيده آخر ، وما هي الا دقيقة حتى كان الحديث قد استولى علينا جميعاً ، باستثناء رب البيت وواحد مرافقينا ، وهو جيولوجي عبوس عركته الايام وعركها ، وجهه وجه شيخ من ابناء التايغا ، مخطط بالتجاعيد الحادة .

وفي الحال اختلفت الآراء . فكان ثمة من يقولون ان المرء لا يمكن ان يضحي بنفسه الا حين يرى امامه بجلاء هدفا يهب حياته في سبيله . وآخرون يؤكدون ان التضحية بالنفس انما هي نتيجة لهزة انفعالية ، ذهول عن الذات ، وان المرء لا يضحي بنفسه بحساب ، انما

يضحي بها فقط في اندفاع حماسي ، كما يقال .
وكان جيوفيزيائي اشعث الشعر شديد السمرة ، وهو شاب في الخامسة والعشرين من عمره تقريبا ، يبدي الكثير من الحماسة لوجهة النظر الثانية .

كان الجيولوجي العبوس (وكنيته تاريانوف) لا يعير النقاش الدائر فيما بيننا ، اول الامر ، حتى الأذن الصاغية . اما حين قفز الجيوفيزيائي الاشعث ، فيما بعد ، الى وسط الغرفة «في حومة الجدل» ، وراح يصرخ بشيء ما وهو يلوح بيديه ، فقد قعد تاريانوف على فراشه ، ورفع يده ، مثلما يفعل التلميذ في الدرس ، وقال بصوت هادئ :

– دقيقة ...

فالتفت اليه الجميع باهتمام .

– لن ادخل في جدل مع احد منكم . انما اريد فقط ان اروي لكم حكاية لها ، على ما اعتقد ، بعض الصلة بموضوع حديثكم اليوم .

وتناول تاريانوف جرابه العتيق البالي ، فاخرج منه دفتراً جد مدعوك .

— منذ عامين ، في موسم الامطار الخريفية الشديدة ، ضاعت في التايغا فصيلة من البحاثة الجيولوجيين ، وانقطعت اخبارها . وقد جرى البحث عنهم وقتا طويلاً جدا ، ولكن لم يتم الاهتداء اليهم . وفي الربيع ، حين ذاب الثلج ، عثر رعاة ايل ايفنكيون ، مصادفة ، على آخر مكان توقفت فيه هذه الفصيلة . وعلى بعد عشر خطوات من هذا الموقف كان ينطرح رجل . وقد كان هذا رئيس الفصيلة ، الجيولوجي كوستيا سابينين .

ووجد الايفنكيون على صدر سابينين حزمة وضعت فيها خريطة المكمن المكتشف من قبله ، وربطة اوراق مكتوبة ، هي رسالة من سابينين الى زوجته .

وقد بعثت الرسالة الى موسكو ، اما الخريطة فقد عهد بالتحقق منها الى جيولوجيين اكدوا وجود الماس في صخور الكمبرليت التي اكتشفتها فصيلة سابينين . وقد نسخ احدهم الرسالة على الآلة الكاتبة ، قبل ارسالها . وتنقلت هذه الرسالة طويلاً بين فرق الاستكشاف في ياقوتيا .

وكان الجيولوجيون يتلون بعض الاقسام منها تلاوتهم لصلاة من الصلوات . ثم وقعت الرسالة في يدي .

ظل كوستيا بضعة شهور يكتب الرسالة لزوجته . فكانت رسالة لا انقطاع لها ، ولا نهاية ، رسالة لم تنته ولم ترسل . وهذا ما جاء فيهـا :

«... لا يزال الوقت عندك مساء ، اما عندنا فقد حل الصباح ، وانت ما تزالين تصغين الى الموسيقى الخفيفة من الراديو ، اما عندنا فقد انطلق صياح الديكة ، ونحن نستيقظ في وقت جد مبكـر لكي نتمكن من الوصول الى المطار قبل اقلاع الطائرة . وحين تستلقين في السرير للنوم وتأخذين في الاغفاء ، نكون نحن قد حلقنا في الجو . ولسوف ترين في منامك احلاماً جميلة ، اما نحن فسوف ننظر ، ونحن ملتصقون بعضنـا ببعض ، مـن خلال نوافذ صغيرة مدورة ، الى الغيوم المتناثرة المندفعة تحت جناحي طائرتنا كاسراب رمادية من الطير لا صوت لها . وفي غرفتك الدافئة المريحة تشتعل

النواسة بضوئها الوردي اللطيف ، اما من خلال زجاج حجيرة طائرتنا فقد باتت مرئية اولى اشعة الشفق القطبي القرمزية ...

فيرا ، يا عزيزتي ! كم نحن بعيدان الآن احدنا عن الآخر ! انا اعرف انك في قلق عليّ ، وعلى الحياة الجوّالة غير المطمئنة التي احياها . فنحن قليلاً ما يجتمع شملنا ، فانت تتذكرينني اكثر ما تتذكرين على سلّم عربة القطار او في باب الطائرة ، دائم الترحال والطيران عنك .

كم اود ان اقوم بجميلٍ ما لك ، لا سيما الآن وانت نائمة في موسكو البعيدة ، وانا طائر مع جيولوجيين صموتين الى الشمال . بودي لو ترين في منامك النهار المشمس المشرق في احدى مدن الجنوب البهيجة المرحة . كان ذلك لخمس سنوات خلت . في ذلك اليوم قررنا ان نظل معاً الى الابد .

ولقد قلت لك اذ ذاك اني اود ان اقوم في حياتي بعمل ما جد كبير ، جد مفيد وضروري لوطني . وقد اجبت انت بان الفراق طول الحياة سيكون رفيق حبنا . وتذكرين اننا بقينا ، اثر

هذه الكلمات ، صامتين وقتاً طويلاً . فلقد كنا نعرف ان ما قلت هو الحقيقة ، ولكن حبنا كان اقوى من هذه الحقيقة .

نادراً ما نلتقي معاً يا عزيزتي فيرا . وكلما حل بنـــا الفراق نرفع كأسينـــا لنشرب نخب سنوات الترحال ودقائق التلاقي . فنحن نعلم ان هذه الدقائق تساوي حياة طويلة نكون فيها متلازمين .

حين تستيقظين ، نكون نحن قد هبطنا على كثيب رملي اصفر في نهر مصطخب من انهار التايغا . ولسوف يكون المكان الذي نهبط فيه غير بعيد عن الدائرة القطبية الشمالية . وحين ستغادرين فراشك وتغسلين وجهك وتتمشطين ، نكون نحن ، بعد توديعنا الطائرة المقلعة الى الجنوب ، قد مضينا في الطريق ابعد الى الشمال . ولسوف تقرع مطارقنا الجيولوجية على مخارج الصخـــور الموغلـــة في القـــدم ، وسنتشبث بالجموديـــات الازلية بالمعاول والمجـــارف ، وسننام في الامسيات وسط المستنقعات والبقع

المغمورة بالماء تحت النجوم القطبية الباردة ونفكر بمن ينتظروننـــا في الدنيـــا المعمورة .

بعد أيام كثيرة سنبارح التايغا من جديد وقد طالت لحانا ، واتسخنا ، وادركنا التعب والكلال . وستكون بانتظارنـــا طائرة . ولسوف نعود منتصرين ، واني بهذا لموقن . وحين سنحلق في الجو من جديد ساتطلع من النافذة وتنصرف افكاري اليك .

ولكن هذا مـــا يـــزال بعيداً ، جد بعيد . والآن .. الآن اغمضي عينيك وانتظري . وكوني مؤمنة بنصرنا .

فيرا ، مرحبا ! لا تغضبي علي ، فالرسالة التي كتبتها في الطائرة لم ابعثها مع الطيارين . ذلك ان هبوطنا الى الارض لم يكن موفقاً : فالمياه الناشئة من ذوبان الجليد لم تكن قد انحسرت بعد ، وكان مهبطنا الرملي نصف مغمور بالماء . وقد انزلقت الطائرة الى النهر حتى لقد كاد ان يبلغ الماء جناحيها . فقفزنا الى النهر مباشرة ، ونقلنا الحمولات الى الشط ، والماء يغمرنا الى

اواسطنـــا . وفي هذه الحـــال من الاضطراب والاختباط نسيت تسليم الرسالة للطيارين . وقد بقيت معي ، وها انا احملها معي في التايغا منذ اكثر من شهر ، وفي اعتقادي انها قد وصلت اليك وانك قد قرأتها .

مرحبـــا ، فيرا ! القينـــا عصا الترحال من جديد ، وصل الليل من جديد واوقدت النار ، وفي نفسي رغبـــة تنازعني للتحدث اليك مـــن جديد . لعلي ساحمل اليك هذه الرسالة بنفسي في الشتاء ، فلن تصل اليك قبل هذا . وحين اعود لن احكي لك شيئاً . ادخل البيت في صمت ، فاضع الحقيبـــة على الارض ، واسلمك هـــذه الرسالة . فتنصرفين انت الى قراءتها ، اما انا فاجلس مقابلك ، اتطلع اليك ، اتأمل وجهك ، انظر الى شعرك ، امتع طرفي بالنظر الى يديك . وتقرئين الرسالة فتدركين كل شيء ، فلا نعود نلجأ الى الذكريات ولا الى الحديث عني . انما سنتحدث عنك انت فقط ، عن حياتك ، عن شؤونك ، عن نجاحاتك .

لهذا اكتب اليك الآن عن كل شيء : عن

عملنا ، عن الكرائه التي تصيبنا وخيبات الامل التي تنزل بنا ، وعن افراحنا الصغيرة . اننا نبحث عن عرق صخور الكمبرليت الحاوي على الماس . وليس من حقنا ان لا نكتشفه : فقد انفق على الاعمال التحضيرية الكثير جداً من الوقت ومن القوى والاموال .

المطلوب منا شيء واحد فقط ، هو العثور على العِرْق ، وأخذ عينات منه ، ووضع مخططه على الخارطة . وعلى اثرنا سيأتي البناؤون ، فيقيمون على العرق منجماً وبلدة صغيرة . وعلى هذا فليس يمكن ان تعود الى قاعدة البعثة المركزية في هذا الخريف دون ان تكون معنا خارطة العرق . ونحن نعلم ان قد ذهبت للبحث عنه جنوباً عدة فصائل اخرى من المستكشفين . وهذا ما يعطينا القوى ، فطبيعي ان تكون لدى المرء الرغبة في ان يكون الاول .

نسيت كلياً ان اتحدث اليك عن اعضاء فصيلتنا . نحن اربعة : سيرغي ، مدير تموينا ، وطباخنا ، وعاملنا ، ومدير شؤوننا المعاشية ، وبالاختصار ، نحن نسميه «قسم التنظيم» . انه

اكبرنا سناً ، واكثرنا خبرة . ومدة خدمته وراء الدائرة القطبية تزيد بعامين عن مدتي ، ولست ادعوه باسمه الصغير الا لأني رئيس الفصيلة . والعضوان الآخران في فصيلتنا ، غيرمان وتانيا ، مـا يزالان شابين ، غلامين . انهمـا شابان نسبيـاً بالطبع . فقد مضى عامان على تخرج غيرمان من المدرسة الثانوية المهنية ، اما تانيا فهي مع الجيولوجيين أعضاء بعثتنا ، «تتصيد» في غابات التايغـا الشمالية صخور الكمبرليت العسيرة المنال في الموسم الثالث بعد التخرج من المعهد . ولكن هذه مدة تدريب تافهة بالنسبة للتايغـا القطبية . وان سيرغي ليهتم بهمـا ، ويرشدهما ، ويعلمهما كيف ينبغي العيش في التايغا ...

صباح اليوم بدأنا العمل في جدول اعلق عليه آمالاً كبارا . ومـا هذا قط بجدول بل نهر حقيقي ، عرضه حوالى سبعة امتـار وعمقه ثلاثة . ونأخذ عينات .

اليـوم علّم سيرغي غيرمـان اشعـال نار المخيّم : ذلك ان غيرمان هو المناوب . وقـد

عمد ، طبعـاً ، الى اشعال نـار ضخمة غير منسقة . فما اطاق سيرغي اصطبارا ، فقال له بغضب :

– ستحرق التايغا ، يا مغفل !

فالزعج غيرمان ، ونزع نظارتيه ، وظل يمسحهما وقتا طويلاً ، الا انه لم يفه بكلمة . ان غيرمان هذا طيب النفس اجمالاً . تقـول تانيا انه اشبه بالدكتور ايبوليت * ، وهي تظل طول الوقت تدعوه بهذا الاسم (اعتقد ان غيرمان ينطوي على شيء من الحب لتانيا ، وهي تلاحظ هذا ، فتمازحه بعض المزاح) .

... الجدول يمضي بنا صعداً الى الشمال . والتايغا تتحول شيئاً فشيئاً الى توندرا تتخللها الغابات . ففي بعض الاماكن نسير في سهول خالية من الاشجار تماماً ، مكسوة بعشب يابس مبعثر هنـا وهنـاك وبقع من الطحلب حمراء قاتمة ، بلون الصدأ .

ما نزال نتقدم بمحاذاة الضفتين : انا على

* شخصية من حكاية للاطفال . (المعرب) .

واحدة ، وتانيا مع غيرمان على الاخرى . اما سيرغي فيشد زوارقنا المطاطية ، وقد ربطها بعضها ببعض ، ماضيا بها الى مكان التوقف المعين على الخارطة ، وبانتظارنا ينصب الخيام ، ويطبخ طعام الغداء وعلى العموم «يدير الشؤون المنزلية» .

يا للفرحة ، يا فيرا ! وجد سيرغي امس شظية من صخر الكمبرليت . بلى ، بلى ، كمبرليت حقيقي ! فاقمنا على كلتا الضفتين بضعة مسابر ، ونحن الآن ننقر الارض ، بحماسة شديدة ، بالفؤوس والمجارف . فليس ثمة وقت ابداً للكتابة . وما ننام غير ثلاث الى اربع ساعات . . .

لم اكتب لك منذ عدة ايام . اني لفي تعب شديد . لقد حفرنا قرابة عشرين مسبراً ، فما ظهر للكمبرليت اثر في اي مكان . انها لخيبة امل رهيبة . تانيا تبكي ، وعينا غيرمان ايضاً مبتلتان . سيرغي وحده يطلق الشتائم الغاضبة ويواصل مصارعة الجموديات الازلية . ويكاد لا يعرف طعماً للنوم .

اشتد البرد بصورة ملحوظة ، وهذا طبيعي اذ ان شهر ايلول قد حلّ . ولكننا نحن لا ننتبه لهذا . ان غيرمـــان وسيرغي يشتغلان وليس عليهما غير القمصان الداخلية . الارض الجليدية عسيرة الحفر ، فنضطر لاشعال النيران في المسابر . وتنبجس المياه ، فتعرقل عملنا . ويحدث احيانا ان نظل واقفين عدة ساعات غائصين حتى الركب في الوحل السائل الجليدي . ونخرج من المسابر مبللين ، سوداً ، متصببين عرقاً ، مشعثي الشعر ، وقد طالت لحانا ، وبكلمة نخرج وكأننا شياطين المستنقعـــات تمامـــاً . وتانيـــا تشتغل مثل الجميـــع . يا للمسكينة ، كم تتكلف ، من جهود ضخمة لكي تبقي نفسها نظيفة نسبياً .

يا لصخور الكمبرليت اللعينة ! انها ما تزال غائبة عن الوجود .

النصر ! امس بدأت مع تانيا حفر مسبر في مكان جديد ، فاذا بنا على الفور نجد التراب السماوي اللون ! ما كدنا نبلغ في الحفر عمقاً

يزيد قليلاً عن المتر حتى استخرجنا قطعة من طين رمادي مائل الى الزرقة ، وبعد ذلك قطعة اخرى ، فاخرى ! وفي عمق مترين اصبح الطين صلداً وتحول الى مـــا يشبه الصخـــر . واخذ سيرغي وغيرمان يحفران بالقرب منا ، وكانا من شدة الحماسة والاندفاع بحيث سبقانا بعد ساعتين . لديهما ايضاً يخرج تراب ازرق . وفي قلب احدى قطع الصخر وجد غيرمـــان ماسة صغيرة متبلورة غير جذابة المظهر ، ثم وجدت ثانيا ماستين متبلورتين .

اننا في مرح وحبور ! حتى سيرغي سمح بالابتســـام . وبمناسبة النصر اقيمت مادبة ، فطبخنا دفعة واحدة جميع ما لدينـــا من الخشاف ، واما سيرغي فقد دبر صنع سلَطة فاخرة من معلبات السمك والخضار . ووزع على كل فرد نصف قدح من السبيرتو ، من المؤونة غير المسموح بمساسها ، فشربنا نخب العرق العتيد ، ومنجم الماس العتيد في المكان الذي لا تقوم فيه الآن غير خيامنا الصغيرة المتجعدة من المطر .

وقد سكر غيرمان على الفور فراح يتكلم باسلوب احتفــالي فصيح . واعلن لنا ، وهو واقف قرب نار المخيم ، انه منذ الآن يعتبر ان العمر الذي عاشه لم يذهب سدى ، اذ هو قد اسهم بقسطه في انجاز اكتشاف نافع لوطنه وللانسانية .

فضحكت تانيا عليه ، اما سيرغي فقد قطب حاجبيه وتناول فاساً ومضى يكمل المسابر . بلى ، ومع ذلك فان غيرمان وتانيا ما يزالان غلامين . فليس يبلغ مجموع عمريهما الخمسين . وانهما لغلامان كبيران ، راشدان ، باسلان .

وهكذا تم العثور على العرق ! قبل ثلاثة ايام كنا نحفر في طرفه ، واليوم اتممنا رسم مخططه كله على الخارطة .

فيرا ! لقد وجدت ما كنت ابحث عنه . وليست القضية هنا قضية كمبرليت وحسب . فانا ، كما تعرفين ، لم اسلك في حياتي دروباً مفروشة بالورود . وقد كنت اقول دائماً ان الحيــاة الحقيقية هي النضــال ، هي التغلب

والاقتحام ، هي نشوة النصر الحلوة بعد امتحان للقوى عسير شديد !

في التايغا الياقوتية النائية وجدت سعادتي . وانها لسعادة تعبق برائحة دخان مواقد النار في هذه الغابات ، تلوح وجهها رياح تهب من بلدان مجهولة ، وتحيط بها رومانتيكية بلدان جبلية قديمة ، تعيش في اطلالها اسرار جيولوجية مكنونة . ان سعادتي غير ملائمة للجميع ، فهي عسيرة مضنية ، تهد الكتف هدّا . ولكني ، كما تعرفين ، لم اتعوّد على السير على الدروب اليسيرة .

وسعادتي ايضا هي انت ، فعلى قبس منك اقطع البحار والجبال ، واجتاز الغابات والانهار . واني لمستعد ، في سبيل دقيقة اقضيها معك ، لعبور هذا كله سنوات وشهورا ...

حبيبتي فيرا ! كل ما كنا نبحث عنه ، وجدناه ، وكل ما كنا نعتزمه ، قد تحقق . علينا الآن ان نعود . الحالة النفسية لدى

الجميع ممتازة . غيرمـــان ، على الخصوص ، منشرح الصدر ومسرور . هو وتانيـــا يظلان وقتا طويلاً يتهامسان حول امر ما . وسيرغي ، على عهده دائمـــاً ، عابس الوجه . ومـــا من شيء ، على مـــا يبدو ، يمكن ان يخرجه عن رصانته واتزانه .

العودة ، العودة ، العودة ! عمـــا قريب سيتحقق كل ما حلمنا به في الشتاء الماضي . سآخذ اجازة ونسافر الى الجنوب ، ولن نقوم باي عمل اللهـــم الا السباحة في البحر والتنزه في المماشي المحببة اليك بين اشجار السرو ...

... نهارك سعيد ، يا فيرا ! حدثت فترة انقطاع كبيرة في رسالتي . وانا لم اكتب اليك بسبب وقوع مصـــاب جسيم لا يعوض عنه . حقـــاً ان ليس بين الفرح والترح غير خطوة .

رسمنا الخارطة مخططـــاً مفصلاً لمكمن الماس ، وملأنـــا عدة اكيـــاس بحجـــارة الكمبرليت ، وشرعنا نسير عائدين مع مجرى

الجدول . واقمنا المخيم الاخير على بعد كيلومتر ونصف من مصب الجدول في النهر .

لم يكن ثمة ما يثير المخاوف ، فنصبنا الخيام ، وسحبنا الزوارق الى الشط ، وتعشينا ، واستلقينا للنوم . كان الطقس في ذلك المساء عادياً : النهر ينفث ضباباً ، وثمة صقيع خفيف ، كما هي الحال كل يوم . وقد كنا في تعب شديد ، فما اخرجنا من الزوارق صناديق المعلبات والاكياس المحتوية على قطع الصخور لنفسها في الخيام ، بل ابقيناها ، كالمعتاد ، تحت غطاء من المشمع .

لم يسمع احد منا ان امطار الخريف العاصفة اخذت تنهمر حوالى الساعة الثانية عشرة .

كان سيرغي اول من استيقظ . وكانت الساعة السادسة صباحاً . وسمع ضجة فحسبها هبة ريح ، وهم بان يغفي من جديد ، الا ان فكرة خطرت اذ ذاك له : المطر ! فايقظنا جميعاً . ما كان يمكن للمرء ان يبرز انفه من الخيمة . لبثنا جالسين ، متقوقعين من البرد ،

ونحن نتطلع الى جدار المطر المتماسك ، الهاطل امامنـــا . ليس في وسعك ان تتصوري ذلك مجرد تصور ! كان يخيل للمرء ان جميـــع ما في المحيط المتجمد من جليد وثلوج قد تحول الى غيوم تندلق مطراً على رؤوسنا .
وفجأة صاح سيرغي :
— الزوارق !
وتطلعنا الى الشط ، فاذا هو خلاء . وحيث كانت زوارقنـــا مربوطة كان الجدول يضطرب ويبقبق ، وقد فـــاض على الضفتين . ما كان اذ ذاك جدولاً ، بل نهرا هدارا من انهـــر الجبال . وعلى متنه كانت الاشجار التي حطمها الاعصار تنجرف بقوة وعنف .
واندفعنا نركض بمحـــاذاة مجرى الجـــدول ملقين بانفسنا تحت المطر المنهمر ، من غير ان نقرر ذلك فيما بيننا ، والنعاس ما يزال متشبثاً باجفاننا ، وليس علينا غير ملابسنـــا الداخلية . كان ذلك عذابـــا رهيبـــاً . فالوحل الجليدي يصيب الارجـــل بالتشنـــج . امرتُ

ثانيا بالرجوع ، ولكنها ظلت تركض مع الجميع .

وعند مصب الجدول في النهر كانت قد تكومت سدادة من الاشياء المحمولة على متنه . وفي كل دقيقة كان الجدول يحمل جذوعاً اثر جذوع تتصادم بعضها ببعض ، اذ لا تجد لها منفذا . وصاح سيرغي وهو يمسك بساعدي :

— انظر ، الزورق !

كان ثمة شيء ما يتلامح بلون اصفر داخل السدادة . انها واحدة من «مطاطاتنا» المنفوخة ، انها علب الكونسروة ، وحجارة الكمبرليت ، انها منجاتنا ووسيلة خلاصنا . ولكن كيف السبيل اليها ؟

وبغتة وثب سيرغي على السدادة وتقدم نحو الزورق وهو يتأرجح على الجذوع المحطمة . واذ ذاك حدث ما لا يعوّض . وكأنما كانت الجذوع تنتظر من يدفعها ، فما احتملت ثقل الجسم البشري ، والزاحت . فاذا بالسدادة كلها تنجرف بفعل المياه المتحررة ، وتندفع

بصخب وزئير الى مجرى النهر العريض . وكان آخر ما رأينا يد سيرغي وهي تحاول التشبث باحد الجذوع . ولكـن ذلك المكان انقضـت عليه من فوق عدة جذوع ضخمة ...

الآن ، بعد مرور عدة ايـام ، استطيـع الكتابة عن هذا ، متذكراً التفاصيـل . امـا وقتذاك فقد ألجمنـا الهلع . انطلقت تانيـا تصيح صياحاً رهيباً ، وشهق غيرمان ، وتمزق شيء في داخلي . ترك مصرع سيرغـي اثـراً ساحقاً في نفوسنا ، وزلزلنا زلزالاً . فلبثنـا واقفين تحت وابل المطر ، مصعوقين ، محطمين ، مسحوقين ، وما علينا غير ملابسنا الداخلية .

ثم انكفأنا نجرجر اقدامنا ، غير منتبهين للوحل ، ولا للبرد . وكان المـاء قد غمـر خيامنا فباتت على وشك الانجراف . وبجهد ومشقة جررنا الى مكان جاف اكياس النوم ، والملابس ، وبندقيتين ، وخراطيـش مبللـة ، وبضعة علب كونسروة شاءت المصادفات ان لا تكون في الزورق (لحسن الحظ ، تكاسـل احدنـا عشية ذلك اليوم ، فمـا اخذهـا الى

الزورق) . لقد كان في وسعنا ، طبعاً ، انقاذ اشياء اخرى ، كالفـأس ، مثلاً ، وهـي الآن ضرورية للغاية ، ولكن مصرع سيرغي الفاجع قد افقدنا جميعاً صوابنا .

وما ادركنا كل خطورة وضعنـا الا بعد مضي ساعتين ، حين اخذنا نتمالك انفسنـا بعض الشيء . لقد بقينـا ثلاثة في التايغـا الياقوتية النائية . ومـا كان ثمة فأس ، ولا خارطة ، ولا بوصلة : فقد جرف المـاء كل شيء .

ظل المطر يهطل . وقد خف قليلاً ، الا ان سيول الماء بقيت ، على عهدهـا ، تتدفق من السماء الى الارض . وانتظرنا يوما بكامله ، ولكن المطـر المدرار لم يتوقـف . واذ ذاك قررنا الرحيل .

ومنذ اولى الخطوات ادركنا اننا لن نتمكن من بلوغ المكان الذي سنلتقي فيه بالطائرة . فقد كان النهر فائضاً على ضفتيه مسافة تقرب من عشرين كيلومترا . وكان من غير المعقول ان نركب متن الطوفـان : ففي بعض الاماكن

كان الماء يندفع بسرعة كبيرة ، مكوناً دوارات وسدادات ، وفي بعض الاماكن كان يقف جامداً بلا حراك ، كأنه في خليج . وعدا ذلك ، فما كان لدينا ما نصنع به ولا ما نصنع منه طوفا من الاطواف . وكانت جميع الاشجار مغمورة بالماء .

وكذلك كان الذهاب الى اللسان الارضي مشياً على الاقدام خيالاً غير ممكن التحقيق . فقد كان لا بد من التنحي جانبا ، طول الوقت ، تجنبا للطوفان . وبذلك يطول الطريق ويتضاعف عدة مرات .

واخيراً قطعنا بمشقة اغصانا سميكة مبتلة ، وقصصنا احدى الخيام ، وضفرنا ما يشبه قعر سلة عتيقة ، وعمنا على سطح الماء ونحن ندفع انفسنا بالعصي عن ارض النهر اللزجة . وكان ذلك عذاباً لا انقطاع له . حين سأحمل اليك هذه الرسالة وتروحين تقرئينها ، لن تستطيعي ان تتصوري مجرد تصور واحداً من الف مما كنا نعاني من العذاب .

في اليوم الاول ، «جدّفنا» نحو المجرى

الاساسي للنهر . وبتنا ليلتنا على الماء . وفي اليوم التالي جرفنا مسيل الماء . كان علينا طول الوقت ان نتحاشى الاصطدام بالاخشاب الكبيرة ، العائمة في النهر . فقد كان يمكن ان تقلب عوامتنا المهلهلة بلمحة عين . كنا اول الامر نود تدعيم «دارعتنا» بهذه الجذوع ، ولكن هذا كان غير مستطاع بسبب السدادات . فقد باتت تواجهنا كل كيلومترين او ثلاثة . وكنا نتسلق عليها ، ناقلين العوامة من تحتها . فكان من غير المعقول ، طبعاً ، اتخاذ هذا المسلك بعوامة ثقيلة .

واقبلت الليلة الثانية . ما كان المطر يتوقف دقيقة عن التهاطل . وكانت ثيابنا تتمزق علينا . وكان مما يجافي الصواب مصارعة السدادات في الظلام الحالك ، وتحت المطر المنهمر . كان هذا يعني الاقدام على الهلاك المحتوم . فاخذنا نجهد بعناد وضراوة للانسحاب من المجرى الرئيسي الى ناحية الفيضان . وهنا انقض علينا جذع هائل ذو عقد . فتناثرت عوامتنا الهزيلة شظايا .

لست اذكر كيف بلغنا الشط الرملي . تصوري ، يا فيرا ، انا كنا واقفين حتى خصورنا في ماء جليدي (فنحن في اواسط ايلول) والليل الحالك مطبق علينا ، وما كنا نعرف على الاطلاق ايان نسير . كنا نرتجف كأننا مصابون بالبرداء . عذاب لم يسبق لي قط ان عانيته في حياتي . ولزام عليّ ان انوّه بان غيرمان وتانيا كانا يسلكان مسلك الابطال . فما تشكى واحد منهما ولا مرة . مرة واحدة فقط صرخت تانيا ، وكانت قد اصيبت بتشنج عضلي جد شديد .

ثم سرنا مهتدين بضجة النهر : اذ كنا نجهد للتقدم طول الوقت بحيث تكون الضجة من ورائنا . وقد ظللنا طول الليل نتجرجر والماء يغمرنا الى الركب ، واحيانا حتى الخصور . وكانت التشنجات العضلية تمعن في تعذيب الجميع عذاباً لا يطاق . وقبيل الصباح وصلنا ، اخيرا ، الى مستنقع نصف سائل . وكان ذلك حظاً سعيداً ! فترامينا منبطحين على الطحلب الرطب ، وظللنا مستلقين هكذا

قرابة عشرين دقيقـــة . وبعــد ذلك نهضــت
تاليا وغيرمان . ومضينا قدماً نبحث عن مكان
«جاف» . وانا اضع كلمة «جاف» بين اهلـّة
لأنه كان يبدو من المحال كل المحـــال العثور
على ما هو جــاف في دائرة من حولنـــا نصف
قطرها بضع مئات من الكيلومترات .

ولكن الاقدار رحمتنا مع ذلك . فقد شعرنا
اننا نسير صعداً ، ومعنى هذا بدء خط انقسام
المياه . ومشينـــا مسافـــة قصيرة فاذا نحن
نواجه منخفضاً من الارض تنطرح على احــد
منحدراته بضعة اشجـــار ، مؤلفة سقيفـــة
طبيعية . وكان في ذلك خلاصنا .

كنا جميعا في نعاس شديد ، ومـــا كنـــا
نحس لا بايدينا ولا بارجلنا ، بل بالوجع
المتواصل . العظام في الم من الرطوبة ؛ ونحن
ما نزال نرتجف ونرتعد . وفي الانفس لهفة الى
الاستلقاء ، والاغفاء ، وعدم الاكتراث لشيء .
ولكن هذا من شأنـــه ان يؤدي الى التهلكة .
فأصدرت امري الى الشاب والفتاة بان يوقدا
نارا .

وبشق النفس اشتعلت النار (كم كان ينقصنا سيرغي وبراعته في عالم التايغا) . فاخذنا نجفف اشياءنا . وقد ظهرت بين المواد الغذائية علبتان من السبيرتو . فانقذنا هذا من التهاب الرئة الحتمي . خلعنا ملابسنا ، ونشرناها حول النار ، وراح كل منا اذ ذاك يفرك جسم الآخر بالسبيرتو المحلول . لم تشأ تانيا اول الامر ان تخلع ملابسها ، فاقتضى الامر نزع الاسمال عنها بما يقرب ان يكون قهراً . ارغمت غيرمان على ان يدير ظهره ، اما انا فبما لي من حق القائد ، رحت افرك جسمها من اخمص قدميها حتى قمة رأسها . وبعد ذلك لففتها بقماش الخيمة واجلستها قرب النار . ولأذكر بالمناسبة ان الخيمة كانت قد بقيت الشيء الجاف الوحيد من بين امتعتنا ، اذ كان غيرمان (يا له من شهم !) قد ظل طول الليل ، وقت كنا نخوض في مياه الفيضان ، يحمل الجراب المشمع على ساعديه المرفوعتين .

ثم شرب كل منا قدحاً من السبيرتو

(مخافة ان يمرض مع ذلك احـد الشابين)
واخذنا نجفف الخراطيش . كل ما معنا تسع
عشرة خرطوشة ، وسبع عشرة علبة كونسروة ،
وبندقية واحدة (اما الثانية فقد قررنا طرحها)
وثلاثة اكياس منامة ، وخيمة واحدة . طيب ،
ليس الامر سيئاً الى هذا الحد (صحيح اني
لم يمر عليّ ما هو اسوأ من هذا) .

اكتب اليك بهذا الاسهاب عن كل شيء
توخياً للتسلي باية صورة ولطرد الافكار السود
التي تتوارد على الخاطر . فنحن لم نقرر بعد
كيف سنتوصل الى الطائرة : سيراً على الاقدام
ام على متن الماء من جديد (اعتقد ان احداً
لن يوافق على الامر الثاني) . وقد بات الشتاء
على الابواب ، وما هو بشتاء بسيط عادي ،
بل شتاء ياقوتي ! والخراطيش التسع عشرة
وعلب الكونسروة الخمس عشرة ليست بالدرع
الحسن الواقي من هذه العجوز الشرسة التي
لا تعرف الرحمة .

جاء غيرمان ، وكان يقوم بجولة استطلاعية .
المطر لم يتوقف بعـد ، الا انه خـف كثيراً .

يقول غيرمان اننا قد ساقتنا اقدامنا الى احدى الهضاب الممتدة صفاً متماسكاً على الضفة اليسرى من النهر . وغير ممكن ، طبعاً ، الوصول من هنا الى مكان الالتقاء بالطائرة . فان جميع الوهاد والوديان بين الهضاب ملأى بالماء . وعدا هذا فليس في وسعنا الاهتداء الى ذلك المكان بدون خارطة : فقد تغيرت التضاريس بفعل هذا الفيضان اللعين . وبات كل شيء مغموراً ومخفياً تحت الماء . فما العمل ؟

وكان قرارنا : الصباح اوفر حكمة من المساء . واستلقينا للنوم . غداً نبحث كل شيء ، ونقرر ما ينبغي عمله بعد . فلتصبحي على خير ، يا عزيزتي فيرا ! حين سنقرأ رسالتي معاً ، سأتذكر هذا المساء على كل حال . فلن يكون في الوسع عدم تذكره .

اكتب في وقفة للاستراحة . اننا نسير عبر التايغا . امس صباحاً ، بعد ان قدرنا جميع النواحي الايجابية والسلبية تقديراً واقعياً ، قررنا انه ليس ثمة اية امكانية لبلوغ مكان

ملاقاة الطائرة ، ومن السخف انتظار الطائرة على بعد مئتي كيلومتر من اللسان الارضي . وقد صرف النظر عن النهر كلياً كوسيلة للانتقال : اولاً ، لأن من المحال ركوب متنه ، وثانياً لأنه يدور في التايغا دورة بعيدة المدى ، تبلغ مسافتها بضع مئات الكيلومترات ، بحيث قد يفاجئنا الصقيع وسط التايغا النائية . اكيد ، انهم سيبحثون عنا . وسيرسلون طائرات لاقتفاء اثرنا . ولكننا قد نغيب عن انظار الطيارين .

الخلاصة ، قررنا محاولة الخروج من التايغا بانفسنا ، ما دامت لدينا علب كونسروة ، وخراطيش ، وقوى . فالقعود والانتظار اسوأ شيء . وفي مثل الحال التي نحن فيها ، لا شيء خير من الاعتماد على النفس فقط . قد نكون نحن مخطئين ، ولكن لم يعد في وسعنا البقاء في دنيا المجهول .

خطتنا بسيطة : السير طول الوقت جنوباً الى ان نبلغ مأوى بشرياً . اعتقد اننا سنتمكن من بلوغ ذلك قبل اوان البرد الشديد .

رفيقاي الشابان يبديان البسالة مع ان غيرمان ، على ما اعتقد ، لا تنخفض حرارته بعد التخويض في الماء البارد في ذلك الليل . وتانيا في رهق شديد من كل ما جرى ، الا انها لا تبدي ذلك ، بل تصمد صموداً حسناً ، وتضحك ، وتمزح .

والآن ، الى وقفة الاستراحة المقبلة ! بعد الآن سأكتب اقل ، فالورق يوشك ان ينفد .

يبدو ان هذه الامكنة التي نحن فيها لم تطأها قط قدم انسان . فنحن نسير في ارض التايغا العذراء . كل يوم يزداد البرد شدة ، ولكن الثلج لم يسقط بعد ولا مرة . ستراتنا من المشمعة لا تدفئنا ، والغذاء زهيد ، ونحن نحس الجوع طول الوقت .

حصتنا نحن الثلاثة نصف علبة كونسروة في اليوم ، وما لا حد له من الماء المغلي . وعدا ذلك نجمع بعض الثمار البرية ، ولكنها غير

لذيذة الطعم اطلاقاً ، بينما يتطلب جمعها غير قليل من الجهد .

اننا ننام كثيراً ، ونتحادث قليلاً . ولداي مكتئبان بعض الشيء . ينبغي ادخال المرح بوسيلة ما على نفسيهما . الى اللقاء ، يا عزيزتي فيرا ! اتمنى لك احلاماً سعيدة ...

قرأت اليوم ما كتبت بالامس ، فعذبني ضميري . فان امورنا تجري باحسن حال . اصطدت اليوم بطة صغيرة كسيرة الجناح في بحيرة لقيناها في طريقنا . ظاهر ان اصحابها في السرب قد تركوها هنا ، واما هم فتابعوا طيرانهم الى الجنوب . وقد اكلنا البطة بكاملها ، وسمحنا لانفسنا بمثل هذه البحبوحة . وصاد غيرمان سمكتين صغيرتين ، واكلناهما ايضاً . وفي الحال تجددت القوى لبضعة ايام .

يبدو ان لا مفر لنا من قبضة الشتاء : ففي الصباح يخشخش تحت الاقدام جليد رقيق . وفي الليل قد يبلغ البرد ١٠ ــ ١٢ درجة تحت الصفر . اني في قلق شديد على غيرمان . فالحرارة

لديه شديدة . ما من وسيلة لدينـا لقياس الحرارة ، الا ان الفتى ، على ما يبدو ، يقاسي الآلام . وتانيا تحيطه بعنايتها .

كل ما تبقى من علب الكونسروة احدى عشرة علبة . امس ، حقاً ، اصطدت رونجـا بطلقتين : وهو طائر من طيوز التايغا ، مزيج من العصفور والغراب . وقد اكلناه عن آخره ، لم نبق منه ولم نذر . سحقنا عظامه واكلناها هي ايضاً .

وقعت اليوم مصيبة جديدة : كنـا نهبط هضبة على منحدر صخري طويل ، فوقع غيرمان فاصيب بانخلاع في رجله . وما استطاع النهوض فوراً وقد سرنا به ، انا وتانيا ، على المنحدر ، مسندين اياه من الجانبين .

توقفنا اليوم للمبيت في وقت مبكر : فقد تورمت رجل غيرمان . وقبيل النوم عملت له كمادة ساخنة . اليوم اصطدت من جديد طائر رونجا ، ولكني خسرت عليه ثلاث خرطوشات كاملات . اما علب الكونسروة (وقد بقي منها ثلاث للواحد) لا نمسها الآن ، فهي «مؤونتنا

التي لا تمس» . ايه ، الا لو القى واحداً من الأيل ! كانما هذه التايغا قد اقفرت ...

قطعنا عصا لغيرمان . وهو يعرج عرجاً شديداً ، الا انه لا يتخلف . تنظر اليه تانيا ، وتمسح دموعها خفية . يا لها من فتاة ممتازة ! ..

بلغ اليوم من شدة ارتجاف غيرمان واصطكاك اسنانه ان لم نستطع النوم . وقد زحفت تانيا خارجة من كيس منامتها ، ودخلت كيس غيرمان فدفأته . فهدأ واغفى . وكنت في خوف من ان تصاب تانيا بالعدوى فتمرض هي ايضاً ، ولكن كل شيء مر بالسلامة .

... غيرمان يمشي بمشقة كبرى . والورم يزداد في رجله . وقد اخذت على عاتقي كل حمل غيرمان . واليوم من جديد توقفنا للاستراحة في منتصف النهار : غيرمان يرتجف ارتجافاً شديداً . سمحت له بفتح علبة كونسروة من مؤونتنا التي لا تمس ، فرفض .

اصطدت رونجـا من جديد . بقيت سبـع خرطوشات . حين جلسنا مســاء قرب النـار كانت تتطاير اولى «الذبابات» البيض انه الثلج يهطل . ترقرقت الدموع في عيني ثانيا . ولأمر ما طلب مني غيرمان خارطة العِرْق . فاعطيته اياها ، فظل يتأملها طويلا وقد بسطهـا على ركبتيه الراجفتين ، ثم تنهد واعادها .

اننا الآن جالسون قرب النار والحزن مخيم علينا . في الصدر ما يشده ويثقله ، فما انا بقادر على ان افعل ما قد يدخل العزاء والسلوى على نفسي الشاب والفتاة .

منذ الصباح وغيرمان عاجز عن السير اطلاقا ، حتى بالاعتماد على العصــا . انخمشت رجله في المكان المتورم ، وبدأ التقيح . ظللنا واقفين مكاننا حتى الظهيرة : كنت اعمل عكازا لغيرمان . الثلج يهطل من جديد . في البداية مشى غيرمان بالعكاز مشية اسرع ، الا انه اخذ فيمـا بعد يتخلف . كان يترنح بشدة ، وقد وقع عدة مرات . فتوقفنا للاستراحة من جديد قبل المهلة

المعينة . جررت غيرمان الى الخيمة على ساعدي .
كان فاقد الوعي . وبدأ يهذي . تانيا تبكي اما
النهر فما يزال ضائعا عنا ...

اعتقد اننا لن نستطيع غدا متابعة سيرنا .
اقترح هذا المخطط . تأخذ تانيا على عاتقها
الحمل كله ، وهو قرابة اربعين كيلوغراما ،
واعمل انا زحافة صغيرة امدد عليها غيرمان
واجره : فهو خفيف ، لا يتجاوز خمسة وسبعين
كيلوغراما . وتوافق تانيا ، اما غيرمان (وكنا
قد سقيناه ماء مغليا فخفت آلامه) فتصطك
اسنانه ، ولا يجيب بشيء .

انا وتانيا نعتزم الآن الذهاب الى الغابة لصنع
الزحافة الصغيرة . يطلب غيرمان مني صفحة من
الورق . لست ادري ما حاجته اليها ...

عزيزتي فيرا ! ما حدث ليلة امس لا يمكن
ان يوصف . هذا امر فوق طاقتي . حتى انا ،
وقد مر علي الكثير في حياتي ، حتى انا لم استطع
ان اتمالك عن البكاء ، فاجهشت به .

لقد ذهب غيرمان ليلا . عدنا من التايغا مصطحبين معنا الزحافة الصغيرة ، وكان التعب قد استولى علينا ، فاستلقينا للنوم . كان الثلج قد بدأ يهطل قطعا كبيرة . وكان غيرمان مستلقيا في الكيس بيننا ، ولكننا حين استيقظنا صباحا لم نجد له اثرا . وعلى جدار الخيمة كانت معلقة ورقة مكتوب عليها :

«قسطنطين بتروفيتش ! علي ان اسلك مسلك الرجال . والامر هنا امر حساب بسيط : ان يموت واحد خير من ان يموت ثلاثة . حصتي من الكونسروة موجودة في الكيس ، فلا تنسها . انا ذاهب . فلا تبحثا عني ، ولا تبددا القوى سدى . الثلج سيغطي كل شيء . غيرمان .

صح . عليكما ، حتما ، ان تصلا الى مقر البعثة ، فانهم هناك بانتظار الخارطة . احط ثانيا برعايتك» .

ايه غيرمان ، ايها الرجل القوي الممتاز ! كيف استطعت التصرف مع نفسك بمثل هذه القسوة ؟ فقد كان بوسعنا حتما ان نجرك الى

المكان . كان يمكن ان نطرح الخيمة ، واكياس المنامة ...

ظللنا نبحث عن غيرمان حتى المساء ، ولكن الثلج كان قد ظل يهطل طول الليل وقبيل الصباح هبت عاصفة ثلجية خفيفة ، فما بقيت له اية آثار . وعبثا كانت جميع التحريات . وفي الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي ، نزعنا الخيمة ومضينا نتابع مسيرنا .

تانيا لا تلتفت لشيء . تسير صامتة ، خافضة ابصارها . طبيعي ان ذهاب غيرمان قد ترك انطباعا جد ثقيل في نفسها . فيا لها من مسيرة فاجعة مشؤومة !

انسانان فقدا حياتهما . انه لثمن باهظ دفع لاكتشاف العرق !..

مشينا في اليوم قرابة خمسة عشر كيلومترا . ادركت اليوم ، لامر ما ، ان اغلى شيء الآن ليس حياتنا ، بل قطعة الورق ، خارطة العرق . ففي سبيلها مات سيرغي وغيرمان . وليس يحق لنا الآن ان نشفق على نفسينا ، ولزام حتما ايصال الخارطة ...

يبدو ان تانيا تفكر بهذا هي ايضاً . اكلنا على العشاء نصف علبة لحم محفوظ : فنحن بحاجة للقوى لكي نسير غدا ما لا يقل عن عشرين كيلومترا . ولا بد من الاستعجال . فالبرد الشديد مقبل .

... سرنا في اليوم اثنتين وثلاثين الفاً وخمسمئة خطوة . وقد تعبنا تعباً شديداً . ومن جديد ، اكلنا نصف علبة . هممت باصطياد طائر ، فاخطأته . لم يعد في وسعي ان اكتب . والنهر ما يزال غائباً عن الوجود .

... ستة وثلاثون الف خطوة . بدأنا المسير عند منبلج الصباح ، وتوقفنا للاستراحة وقد حل الليل . النهر غير موجود . اخشي ان نكون قد تهنا : فقد انعطفنا الى اليمين انعطافاً جد حاد . المهم ان لا نكون ندور في حلقة .

... تراخت قوانا ، فقد سرنا بوتيرة عالية جداً . اليوم اغمي على تانيا ، بعد سبعة آلاف خطوة ، وسقطت . لقد نحل جسمها الى درجة رهيبة ، واستنزفت قواها كليا .يومين ظلت تانيا الانيسة اللطيفة تجر نفسها خلفي ،

اما اليوم فظاهر ان قواها قد تلاشت . بيد انها ما قالت لي كلمة ، ولا التمست مرة واحدة الابطاء في المسير .

امسكتها بساعديّ وحملتها . ما كان ثمة مكان ملائم للتوقف من اجل الاستراحة ، فاحتجت للمسير بضعة كيلومترات . ان تانيا لجد خفيفة : فخلال هذه المسيرة الرهيبة يبست المسكينة يبساً تاماً .

سقيتها ماء مغلياً قرب النار ، واطعمتها ومددتها للنوم . وانا الآن ، يا فيرا ، جالس اكتب اليك . يبدو ان الشتاء قد ادركنا . ظللنا وقتا طويلاً نهرب منه ، الا انه كان يلاحقنا متشبثا بنا . كان يزحف جنوبا من سواحل المحيط المتجمد ، وقد راح اليوم ينفخ في ظهورنا ببرده الحقيقي . زمهرير رهيب يقرص الانف والاذنين . والاقدام تتجمد في الاحذية المطاطية .

تبددت السحب اليوم ، للمرة الاولى ، وانفتحت فوقنا سماء زرقاء فسيحة . بلى ، لقد حل الشتاء . فمثل هذه السماء الزرقاء لا

تكون في ياقوتيا الا وقت يكون الصقيع الشديد على الابواب ...

انا وتانيا ننام في كيس واحد (الثاني طرحناه يوم امس) وترجوني تانيا ان احدثها عنك ، يا فيرا ، عن شعرك كيف هو ، وعن عينيك ، وقوامك ، وملابسك كيف هـي ، وهل انت طيبة . واحدثها عنك فتلتمس المزيد فالمزيد ، وتبكي . والحديث بيننا ، لست ادري لماذا ، يدور همساً ...

... هدأت العاصفة الثلجية عند الظهيرة . فتابعنا طريقنا . ويبدو ان تانيا تشعر بمزيد من النشاط . قطعنا قرابة خمسة كيلومترات . فنصبنا الخيمة من جديد : وكان اعصار ثلجي مرة اخرى . واشعل ناراً صغيرة داخل الخيمة مباشرة . ايدينا وارجلنا متجلدة . ونستلقي مجدداً في كيس المنامة ، ومن جديد تلتمس مني تانيا ان احدثهـا عنك ، وان احكي لهـا كيف التقينا للمرة الاولى ، ومن كان الاول في المكاشفة ...

ثم تذكرت فجأة : ترى اما اضعت الخارطة ؟ واريتها الخارطة فاطمأن بالها .

بقيت في حوزتي خرطوشتان . مددت تانيا ، وسامضي الى التايغـــا . فلعلي ساوفق والقـــى ايلاً ...

... فيرا ، فيرا ! اي عام رهيب هذا ! كم من موتى ، كم من انفس بشرية ممتازة فقدت في هذين الشهرين الاخيرين فقط !

لست استطيع الكتابة !

امس قضيت وقتا طويلاً في التايغا . جذبني طائر رونجا قرابة كيلومترين ، وهبت العاصفة الثلجية من جديد ، ثم ضللت الطريق قليلاً ، بالاختصار تهت ما لا يقل عن ثلاث ساعات . وحين عدت الى الخيمة لم اجد تانيا . تركت لي هذه الرسالة :

«عزيزي قسطنطين بتروفيتش ! اني ذاهبة الى غيرمان . هكذا ينبغي ، فلا تكن قاسيـــا في الحكم عليّ . اني اكتب بكامل وعيي . لن يتاح لنا ، ونحن اثنان ، ان نجد سبيل الخلاص .

انما سنهلك معاً . ولكنهم في مقر البعثة ينتظرون
خارطة العرق . فينبغي ان ينجو احد منا . وانت
الذي يجب ان تنجو . فانت الاقوى . لقد رأيت
اي عبء كنا على كاهلك انا وغيرمان . فلو اننا
لم نكن موجودين لكنت قد بلغت منذ وقت بعيد
القاعدة المركزيــة . كنت تضحي بنفسك من
اجلنا ، وقد آن لنا الآن ان نضحي بنفسينا .
ان غيرمان قد سبقني الى فهم هذا ، اما انا فقد
تأخرت عنه والاصح اني كنت ادرك هذا منذ
وقت بعيد ، ولكني كنت اخشى الانصراف لأني
رعديدة . اما الآن فقد عزمت . انتظرت هبوب
العاصفة الثلجية ، واني لذاهبة . سامضي الى
غيرمان بسرعة شديدة . فلا تبحث عني : فالآثار
ستنطمس على كل حال . وفرت علبة كونسروة
تحسباً للطوارئ . وهي موجودة في الكيس .
انها تعبير ضعيف عن امتناني لكل ما فعلته من
اجلي . ينبغي ان توصل الخارطة حتما . وداعاً .
تانيا .

صح . قسطنطين بتروفيتش ! وينبغي حتما
ان تصل اليها . فكم انت شديد الحب لها . كنا

انا وغيرمان ايضاً متحابين (مضت على تعارفنا عدة سنوات) . كنا لا نكشف عن هذا لكيلا نعيق العمل . نحن لم نوفق للحياة والسعادة . فلتوفق انت . صل اليها حتماً . ثمة رجاء آخر ، يا قسطنطين بتروفيتش : ابعث برسالة الى امي . عنوانهـا موجود في مقر البعثـة . انتهيـت . تانيا» .

... ظللت ابحث عنها يوماً كاملاً ، ولكن هذا العمل ، بعد العاصفة الثلجية في التايغا ، امر عقيم كل العقم . ان غيرمان قد اعطاها الامثولة على الوقت الذي تكون فيه مبارحـة الحيـاة افضل شيء .

حياتي الآن ، يا فيرا ، ليست لي . والاصح قول العكس : عليّ ان اقاوم الموت واوصل الخارطة مهما كلفني الامر .

مزقت الخيمة واتخذت لنفسي منها عدة ازواج من الجرابات . فالاقدام الآن هي الامر الاساسي . في حوزتي اربع علب كونسروة ، وكيس منامة ، وخرطوشة واحدة ، و ١٢ عود ثقاب . اعتقد اني سابلغ الهدف !

مشيت اليوم خمسين الف خطوة . انها قرابة عشرين كيلومترا . انا الآن جالس تحت اغصان شجرة شربين ضخمة ، اغلي الشاي . واني لاكتب اليك في الوقت المتبقي لغليـان الماء ، وانه لانسب وقت عندي للكتابة . وفيه بالضبط ، اكتب اليك على الدوام .

تنتصب حولي عمالقـة بيض ، فقد هطل الثلج كثيراً ، والصقيع الآن غير شديد . ومع ذلك فيا لها من طبيعة جبارة !..

قطعت اليوم ثلاثة وخمسين الف خطوة . تعرفين اننا قد ضللنا السبيل فعلاً . واضح اننا كنـا نسير بموازاة النهـر ، ولذلك لم نستطع بلوغه قط .

والآن اشعر ، للمرة الاولى ، ان قد بدأ الانحدار . ومعنى ذلك اني ، اخيرا ، قد انتقلت الى الجانب الآخر من خط توزع المياه . ولا بد الآن ان ابلغ المكان المنشود . انه واجبي ، والواجب ينبغي اداؤه مثلما ادى غيرمان وتانيا واجبهما . ان الحياة في مهنتنا ، ولعل ذلك لا يتوفر في اية مهنة اخرى ، شديدة الالتحام مع

الواجب . وغالبا جداً ما يتطلب الواجب الحياة ثمناً لادائه ...

منذ وقت بعيد اضعت حساب الايام ، ولكن يخيل اليّ ان قد حل تشرين الثاني . شعرت بهذا صبحة اليوم . كانت درجة الصقيع ، في الارجح ، قرابة الثلاثين تحت الصفر . وهذا الوضع المزعج يقلل من وتيرة سيري ، فعليّ ان اقعد قرب النار وقتاً اطول . وكذلك بات النوم غير ملائم : ينبغي فرش كثير جداً من الاغصان . ولكسر الاغصان لم تعد تتوفر القوى . الانفاس تنحبس ...

مر يومان لم اكتب فيهما شيئاً . الصقيع رهيب . يبدو ان وجهي قد تجمد . افقت امس ، ليلاً ، والعرق البارد يتصبب مني . رأيت في منامي اني قد اضعت خارطة العرق . مددت يدي بحركة محمومة الى تحت القميص ، فاذا الخارطة في مكانها .

لأمرٍ ما تألمت كثيراً على غيرمان وتاليا . كانا متحابين ، ولكني ما كنت الاحظ شيئاً . الا كم كان حبهما عنيفاً وكم كان عفيفاً ، ما داما

كانا يخشيان ابداءه للآخرين مخافة ان يعيق العمل ! وكم كانا يعلقان من اهمية على العمل ، على الواجب الذي ادياه حتى النهاية ...

ولكنهما كانا في ريعان الشباب . ولو اني كنت مكانهما لما استطعت ان اكون على هذه الدرجة من ضبط النفس ...

ها انا قد وصلت اخيراً ، الى النهر . انه ميت . كتل الجليد متكدسة بعضها فوق بعض . والريح تهب عاصفة خفيفة . اما ترى كان من الافضل ان نبقى حيث كنا وننتظر ؟ اغلب الظن انهم كانوا يبحثون عنا وقتاً طويلاً . وما كان يمكن ان لا يبحثوا عنا . فالانسان لا يهمل عندنا في التايغا . اننا نحن انفسنا المسؤولون عن كل ما حدث .

... يبدو ان قد انتهى كل شيء : فقد تجمدت رجلي اليمنى . وما بقي غير ثلاثة من اعواد الثقاب . مهمتي الآن ان اوصل الخارطة الى اقرب ما يمكن من الناس .

ليس من ذنب على احد في ان خارطة عرق

الكيمبرليت الذي اكتشفناه قد تتلف معي . انها المصادفات الفاجعة . ولكن ليس هذا هو الامر الرئيسي . في هذه المسيرة توصلت ، فيما عدا العرق ، الى اكتشاف آخر عظيم الاهمية بالنسبة لي ... فقد ادركت اني كنت فيما مضى اعيش عيشة غير صحيحة . كنت احسب ان الحب الحقيقي هو الحب الذي يمكن الانصراف عنه والعودة اليه .

كنت احسب العلاقة القائمة بيننا علاقة مثالية بين رجل وامرأة . الا اني الآن ، لامر ما ، احسد غيرمان وتانيا . كانا معا يتقاسمان الحزن والمسرة . كانا معا يسلكان درب الحياة ، وكان حبهما من العظمة بحيث ما كان يحتاج الى ظاهرات خارجية . كانا معاً حتى النهاية ، وما كان الحب يعيقهما عن اداء واجبهما .

والامر لدي على خلاف ذلك . فقد كنت اكتب اليك كل يوم ، وكنت اسعى للتحدث عنك للجميع ، وقد ملأت بك كل شيء من حولي . ولكن هذا لم يكن سعادة ، بل تهويناً على النفس .

كثيراً ما دعوتك ، يا فيرا ، الى هنا ، الى الشمال . كان بودي لو يقصر اليك الدرب . ولكنك لم تجيئي ، بل بقيت في موسكو . شد ما يؤلمني الآن التفكير في هذا . يؤلمني ويثقل على نفسي . ان هذه الافكار تزيل من كياني آخر ما تبقى لديّ من القوى .

فيرا ، ايتها الحبيبة ! اني في حاجة اليك هنا ، بالقرب مني ، لا في مكان آخر ، اني في حاجة اليك واقعاً لا خيالاً . بودي ان تكون التي اهوى الى جانبي قرب موقد النار ، ان يكون في وسعي تسليمها خارطة الثروة الارضية المكتشفة فاموت في طمأنينة ، عارفا ان حبيبتي ستنقل الخارطة الى الناس .

ولكن لا ، ليس لديّ من اسلمه الخارطة . اني – ولا ادري لماذا – اتذكر غيرمان من جديد . اني احسده .

يبدو اني افقد وعيي ... كلا ، لقد عاد ، وانا اكتب من جديد . ما عدت استطيع فعل شيء غير الكتابة . اجل ، اني احسد غيرمان . اني معجب به وبتانيا . كانا باسلين في المفاداة

بحياتهما الفتية في سبيل قضيتنا المشتركة . اما يعبر هذا عن قوتهما المعنوية ، وسعة آفاقهما النفسية ، وعمق حبهما !

كلا ، لم يحن الوقت بعد للقعود في اكتئاب . انما ينبغي المسير ، والتجرجر ، والزحف ، والتشبث ، والتدحرج .

ربما كانت هذه اخر كلماتي ...

كلا ، ليست الاخيرة . ما ازال حياً . فما العمل بالخارطة ؟ ذلك انهم في مقر البعثة بانتظارها . فلمن اسلمها ، لمن ؟..

يا للانسان ما اشد قابليته للحياة ! اني ازحف ، وانهض على ركبتيّ ، وأقع فاعود ازحف من جديد . لعلي سابلغ الهدف زحفا . تسحب يدي القلم بعسر شديد . وانا اكتب لأن هذا بات عادة مألوفة . أخط سطرين كيفما اتفق ، ثم اتابع الزحف . الفت هذه الكتابة اكثر من إلفتي الطعام . فاذا اقلعت عن الكتابة فانما اكون ،

في الارجح ، قــد بت في عجـــز نهائي عن النهوض ...

صنعت ما يشبه كوخــا صغيراً . وفي هذا الكوخ ، اسهــل للنــاس ان يلاحظوني ويجدوا الخارطة ...

سمعت اصوات بشر ، وعواء كلاب . وزحفت من الكوخ ، فاذا لا شيء ، انما خيل لي . ومن جديد استلقي في الكوخ . الصقيع بات اقل . النار التي اوقدتهــا امس بعود الثقاب الاخير تنطفئ . ايه ، فيرا ، كم كنت في حاجة اليك هنا ، كم كنت في حاجة الى الحب العضد ، لا الى الحب الدمية ! واضح ان الاقدار لم تشأ ...

تحققت للمرة الاخيرة من وجود الخارطة . كل شيء على ما يرام . انها في مكانها .

فيرا ، خذي عنوان ام تاليا ... من مقر البعثة ... اكتبي لها ... وعن غيرمان ايضاً ...

... المسؤوليــة عليّ وحــدي في هلاك الفصيلة ...

وقلب تاريانوف الصفحـــة الاخيرة ووضع الدفتر جانباً . كان النهار قد اشرق وراء النافذة منذ وقت بعيد ، وما شعرنا بانقضاء الليل .

وسأل الجيوفيزيائي الاشعث :

– وهل سمع حقاً عواء كلاب واصوات بشر؟

– حقاً – اجاب تاريانوف – فقد عثروا على قسطنطين في الربيع ، وما كان يبعد غير عشرين كيلومترا عن مخيم ايفنكيين . فكان يمكن للريح ان توصل اليه هذه الاصوات . والراجح ان هذا لم يكن مرة واحدة . فقد عثروا على قسطنطين لا في الكوخ نفسه . بل كان قد زحف منه وتحرك باتجاه المخيم . الا انه زحف مسافة قصيرة ، عشر او خمس عشرة خطوة ، ثم تجمد . وفي ذلك الصيف ، الذي تم فيه العثور على قسطنطين ، لم يلتق الايفنكيون بأيٍّ من الجيولوجيين . فقد رحلوا الى التايغا وما كان في وسعهم ، طبعاً ، ان يروا الزوارق وقد ظلت طول الصيف تجري في النهز قرب مكان المخيم القديم . كان الرجال يبحثون عبثاً عن الفصيلة الضائعة . وما كان في وسع الايفنكيين ان يعرفوا ان الطائـــرات

الدائرة منذ شهور فوق الارجاء المحيطة من التايغا انما تبحث بالضبط عن ذلك الرجل الابيض اللحية الاشيب الشعر الذي وجدوه هم ذات مرة في الربيع غير بعيد عن خيامهم . وفي الصيف التالي فقط استطاع الايفنكيون تسليم جميع الاوراق الى البعثة عن طريق احد الاشخاص . وهكذا فان العرق الذي اكتشفته فصيلة سابينين وراء الدائرة القطبية ، قد ظل مجهولاً عامين . وحين وصل اليه الجيولوجيون من جديد للتحقق من خارطة قسطنطين ، كانت قد اكتشفت في ياقوتيا عدة عشرات من عروق الكمبرليت . وقد كانت الفصائل الاخرى من البحاثين اسعد حظاً .

واعاد تاريانوف الدفتر الى جرابه ، وقال :

— وفيما بعد ، وجدوا حول العرق الذي اكتشفته فصيلة سابينين بضعة مكامن اخرى . والآن يجري هناك بناء صناعي كبير ...

وبغتة هدر فوق سطح البيت صوت محركات ، ومرق ظل اسود جسيم من امام النافذة . انها طائرة تمضي الى المهبط ، عائدة

الى اركوتسك من منطقة الماس وراء الدائرة القطبية . وقد كنا نعلم ان الطيارين ينقلون الى هناك قطعا مركبة فولاذية لكومبينة الماس الجاري بناؤها ، ويعودون من هناك دائماً بطائرات فارغة ، ولذلك يسعدهم كثيراً ان ينقلوا الركاب .

فاخذنا نستعد للذهاب الى المطار .

سيرغي انطونوف



سيرغي انطونوف - مولـود سنة ١٩١٥ ، قصاص سوفييتي مشهور ، وهو من حيث دراسته مهندس-بنّـــاء . صدرت مجموعـــة انطونوف القصصيـــة الاولى عام ١٩٤٧ . وظهر على الشاشة كثير من مؤلفات الكاتب . وقصة «الوظيفة الاولى» هي في عداد احسن قصص سيرغي انطونوف .

الوظيفة الاولى

تخرجت نينا كرافتسوفا من المعهد ، وعينت بعد ذلك فوراً في ورشة لبناء دار عالية . كانت تعيش مع والديها في مسكن قائم في احد ازقة موسكو الهادئة ، ذات البلاط الحجري . ومع ان نينا قد احتفلت بعيد ميلادها الثالث والعشرين بعد بضعة ايام من دفاعها عن اطروحتها لنيل

الدبلوم ، فان كثيرين كانوا يحسبون حتى بعد ذلك لدى اول تعارف لهم معها ، انها ما تزال طالبة في السنة الاولى او الثانيـــة في المعهد ، ولا يعطونها من العمر اكثر من عشرين عاما . يصعب على المرء ان يقول ما كان مبعث ذلك . قد يكون مبعثه عدم تخليها كلياً عما الفت من سلوك في المدرسة الثانوية الى حد انها كانت تسمي الطلاب ذوي الشوارب «اولادنا» ، وقد يكون مبعثه ان الناس انما كانت توقعهم في الخطأ عيناها الواسعتان المتباعدتان المطمئنتان ، وانفها الدقيق المنفرج وعليه آثار باقية من نمش الطفولة . وما كان غير العارفين بنينا معرفة حسنة يلاحظون بدهشة كيف تم بسرعة نضج عقلها وفطنتها وحذقها العملي .

قالوا لنينـــا في الدائرة عن الدار العالية : «البناء بدأ منذ وقت قريب ، وهو غير مكتمل بعد مـــن ناحيـــة وجـــود شغيلـــة الهندسة والتكنيكيين . ونحن نعلق آمالنا على مساعدتك ، ايتها المهندسة كرافتسوفا» . وقد لمست في الكلمات الاخيرة نبرة معروفة لديهـــا تنم عن

سخرية شخص كبير في السن يتحدث مع فتاة صغيرة . ولكن نينا لم تنزعج هذه المرة .

وفيما هي عائدة من الدائرة الى البيـــت ، كانت تقول في نفسها : «لا بأس ، سأبدأ العمل واذ ذاك سيكون حديثهـــم معي على غير هذا النحو . رئيس ورشة البنـــاء ينتظـــر قدومي بعد شهر . وسوف يرتاح لرفضي العطلة التي تحق لي كطالبة للمرة الاخيرة» .

وفي صباح اليوم التالي لبست فستاناً حريرياً فاتح اللون ، وصندلاً صيفياً ، وحملت حقيبتها اليدوية البيضـــاء ، وللمرة الاولى في حياتهـــا استأجرت سيارة تاكسي ، وذهبت الى ورشة البناء . وكانت حقيبتها اليدوية البيضاء تحتوي على وثائقها : بطاقة العضوية في الكومسومول ، ملفوفة بورق شفاف ، وبطاقة الهوية ، وقد عتقت كلمة «تلميذة» المسجلة عليها ، وشهادة المهندسة الجديدة ، وقد بلغ رقمها مئـــات الالوف ، ويحمل علامة «مع الامتياز» .

كان هيكل الدار العالية الفولاذي ، الشبيه بمنضدة هائلة ، مرئياً من بعيد ، الا ان الدرب

اليه طال عبر مختلف الشوارع ، تارة يقترب منه ، وتارة يخيل للمرء انه مبتعد عنـــه .
وسألها السائق :
– اتشتغلين هناك ؟
– نعم ، – اجابت نينـــا بعد قليـــل مـــن التفكير .
– كم سيكون عدد طوابق البناية ؟
هذا ما لم تكن نينا تعرفه بعد فقالت بغير اكتراث :
– ستة وعشرون طابقاً .
الا انها اضافت وقد خطر لها ان السائق ربما يكون قد طرح عليها هذا السؤال للتحقق منها :
– بدون حساب البرج .
ووصلا اخيرا ، واتجهت نينا الى البوابة . كانت تدخل الى ورشة البناء كميونات ثقيلة ، وتمشي فيها نسوة لابسات سراويل مشمعة . وعند البوابة اوقفها شيخ يرتدي سترة قصيرة ، فادى التحية وتمتم يقول بلهجة المذنب ان دخول الغرباء ممنوع . فاوضحت له نينـــا ،

وهي ممتعضة بعض الشيء ، انها ليست غريبة ، وارته الشهادة . فقال لها الشيخ وهو يتنهد :

ـ هذه الوثيقة لا مفعول لها عندنا . فاذهبي الى غرفة المراقبة واحصلي على بطاقة مرور .

فقالت نينا لنفسها وقد ازدادت امتعاضا : «الجميع يدخلون بدون بطاقات مرور ، اما انا فلا بد لي من بطاقة» . ثم قالت للشيخ بصرامة غير بارعة :

ـ اريد مقابلة رئيس الورشة .

ـ لا فرق ، يا آنسة . لا بد من بطاقة مرور ، سواء امن اجل مقابلة الرئيس ، ام لأي مكان آخر . ـ قال الشيخ بلهجة كئيبة .

ـ تلفني للرقم ٣٧ .

وبعد نصف ساعة اعطوها بطاقة وردية اللون ، فدخلت ساحة ورشة البناء وقد تعكر مزاجها كلياً .

كان هيكل البناية المعدني يشمخ عالياً في السماء . وهو مؤلف من عوارض فولاذية

افقية واعمدة شاقولية . ومن هنا ، من تحت ، لم يعد قط شبيهاً بالمنضدة . فقد كانت كتلته الرشيقة المهيبة ، التي يخيل للناظر اليها انها مرسومة رسماً في الهواء ، تنطلق متصاعدة الى العلاء ، في قلب السماء الزرقاء . وثمة سحب سابحة في السماء تحسب العين معها ان الهيكل الضخم يتهاوى شيئاً فشيئاً . والى مختلف الاتجاهات كانت تمضي ناقلات ، هادرة بصناديقها الفولاذية ، حاملة الرمل ، والخرسانة ، والاوعية ، وشاحنات محملة بالبلاطات المكونة من الحديد والخرسانة ، وانابيب الحديد الصب . وطقطق مكبر الصوت فوق رأس نينا ، فنطق صوت نسائي ، اوكرايني اللهجة : «يا رئيس القطاع الثالث ، قدم في الحال طلباً للنقل . اكرر ، يا ايفان بافلوفيتش ، ان كبير المهندسين يطالب بطلب للنقل . اكرر ، يا ايفان بافلوفيتش ، اعمل معروفاً ...» — ولكن ما كرره مكبر الصوت ايضاً لم يعد مسموعا : ففي مكان ما في الاعالي الشاهقة اخذ احدهم يقرع على العمود بمطرقة

كبيرة قرعاً شديداً ، وراح الهيكل يهدر كالقيثارة . وكان كثير من الناس يقومون باعمال ما ، والى مكان ما ينصرف على عجل فتى يحمل علماً احمر صغيراً للاشارة ، يتبعه عامل كهرباء في يده مصباح كهربائي صغير للفحص في ماسورته ، كأنما هو منزوع مع الاسلاك . وبالقرب من السياج ، كانت تقف فتاة في اذنيها قرطان من نحاس ، تسمر على لوحة لافتة كتب عليها : «يا عامل التركيب تحقق من مكان الشغل» ، ولم تكن ثمة فاصلة بعد كلمة «عامل التركيب» . واشفقت نينا في نفسها على الفتاة لكونها تقوم بهذا العمل التافه في مثل هذه الورشة الهامة ، ومضت الى المكتب .

لم يكن الرئيس في مكانه . وبشيء من اللامبالاة ، اشارت سكرتيرة شابة على نينا بان تذهب الى قسم الملاكات ، الباب الثالث الى اليسار ، وتملأ هناك الاستمارة اللازمة . وكذلك استقبل رئيس قسم الملاكات نينا بدون كثير من الدهشة . فقد تناول من خزانة

حديدية اوراق الاستمارة الشخصية ، ونبّه الى عدم جواز الشطب والمحو وكتابة «كلا» ، وطلب ان تجيء غداً بصور فوتوغرافية .
وقالت لينا بينها وبين نفسها محاولة التهدئة من خواطرها : «ما من شيء خاص ، ففي كل يوم يأتي اناس الى هنا . فلماذا ، فعلاً ، ينبغي ان يكون الموقف مني شاذاً عن المألوف ؟» ثم جلست في غرفة الاستقبال بانتظار الرئيس ، الى ان اشارت عليها السكرتيرة بالذهاب الى كبير المهندسين رومان غافريلوفيتش . فسألت نينا وهي تشد على شفتيها :

– لعلك تنبئين عني ؟

– وما الداعي للاعلان عنك ؟ اذهبي بدون اعلان .

كان مكتب كبير المهندسين فقيرا في اثاثه كغرفة الاستقبال . فعلى طاولة الكتابة الفارغة تماماً آجرة ، آجرة عادية وردية اللون ، من آجر البناء ، ذات ثقوب . ووراء الطاولة رجل طويل القامة نحيل ، ذو ساعدين رفيعين

لوحتهما الشمس ، يتكلم بالهاتف . شعره الاسود موخوط بالشيب . وقالت نينا في نفسها اذ رأت على الطاولة مقابض للورق ، مربوطة بسلسلة : «انه عصبي المزاج» . وكان كبير المهندسين يقول لأحدهم بصوت اجش ، وهو ينظر الى نينا بانتباه :

— وعليك الآن ان تجد التصميم ك ــ ر ٢٧٢ . عجّل . هل وجدته ؟ تطلع ، هناك الى اليسار ، قرب فتحة النافذة ، تجد رقمي ١٢ــ٤٠ . ايوه ، اضف ارتفاع العماد ، يكون الحاصل ارتفاع صقالاتك . كلا ، اقل من ذلك ارتفاعاً ، لا يجوز . وحتى بعشرة سنتمترات ، لا يجوز . ــ وقطب كبير المهندسين حاجبيه الكثيفين ، واستقرت نظرته على حقيبة اليد البيضاء ، فنقمت نينا على نفسها لكونها قد جلبتها معها . ــ وكيف لا يوجد شيء لدعم الصقالات ؟ ينبغي ان تفكر بنفسك ، يا عزيزي ! عليك ان تجد التصميم ك ــ ر ٢٢١ ... ايوه ، ايوه ، اخرج الدعامات ... وضع مساند صغيرة ...

واعــاد كبير المهندسين سماعــة الهاتف الى مستقرها ، وسأل بدهشة :

ــ انت قادمة اليّ ؟

ــ نعم ... ــ وكان بود نينــا ان تدعــوه بكنيته ، الا انها نسيت الكنية . ــ انا مرسلة اليكم للعمل .

وفتح شهادة الدبلوم وانهمك في النظر الى علامات الدروس ثم قال :

ــ شهادة دبلوم بدون عيب . آمل بانها ستظل كذلك .

ــ آمل ، ــ اجابت نينا برزانة .

ــ ليس الامــر على هــذه الدرجــة من البساطة . ــ والقى كبير المهندسين نظــرات خاطفة على اوراقهــا ، وكرر قولــه : ــ ليس الامر على هذه الدرجة من البساطة ، يــا نينــا فاسيليفنا ! ان لدى المتعلمين الشبــان اليوم كثيراً من المطامح المشروعة . في وظيفة ما شيء لا يروق لهم ، وفي اخرى شيء آخر . وطبيعي ان مثل هذا الشــاب يأخذ بالفرار من عمل الى آخر ، وفي كل مكان يعرض شهادة دبلوم

مع الامتيـــاز ... ايوه ، ويحدث ان تتسخ الشهادات ... ان تتلوث ...

وكانت نينا قد شرعت تقول :

– اعتقد ان ...

فقاطعهـــا كبير المهنـــدسين بغير كلفـــة ، وسألها :

– اين قمت بالتدرب قبل الدبلوم ؟

وادركت نينا من لهجته انها قد اصبحت مرؤوسة ، واما هو فقد اصبح الرئيس واجابته قائلة :

– في مدينة ياروسلافل . كان عليّ ان اجمع المواد لكتابة الدراسة للدبلوم ، ولذلك التمست عدم تعييني في وظيفة ذات مسؤولية . وقد اوكلوا اليّ عملاً لا صلة مباشرة له بالبناء ... بل ان من المخجل ذكره ...

– وبماذا كلفوك ؟

– بتكنيك السلامة .

ورن جرس الهاتف . فقال كبير المهندسين : «اتصل بي فيما بعد . انا مشغول» . وعلق السماعة ، وقال ملاحظاً :

– هذا جد مناسب .

فسألت نينا غير فاهمة :

– ما هو المناسب ؟

– اننا عادةً نعين لوظيفة مهندس في تكنيك السلامة اناساً ذوي خبرة . شاب شعورهم ، وصلعت رؤوسهم ولكن مهندسنا مرض منذ ايام ، وليس لدينا من مخرج ، فان علينا ان نوكل اليك القيام بهذا العمل .

– تعليق لوحات باغلاط نحوية ؟

– وهذا ، بوجه خاص . ولكن بدون اغلاط . وبوجه العموم ، ان الاغلاط في مثل هذه الوظيفة لا تغتفر .

فقالت نينا في نفسها : «اذا انا لم ارفض هذا العمل الآن رفضاً قاطعاً ، فلسوف يكون اصعب فاصعب مع مرور الزمن شق الطريق الى العمل المعماري الحقيقي» . وشدت بيديها على حقيبتها وتمتمت قائلة وقد خرجت عن اللهجة الرسمية :

– اوي ، لا ، بالله عليك !.. لا اريد القيام بهذا العمل .

ـ ولماذا ؟ ـ سأل كبير المهندسين ، وهو يكاد يقطب حاجبيه كليا ، وراح يقلب سلسلة المقابض باصابع طويلة رقيقة .

ـ ايوه ، احكم بنفسك ، يا رومان غافريلوفيتش ، على ماهية هذا العمل !

ـ ولقد تذكرت نينا هذه الكنية الا انها لم تلاحظ ذلك من جراء انفعالها . ـ لقد علموني البناء ، وانا اريد ان ابني . اما في مثل هذا العمل فليس غير افساد العلاقات مع الناس . كلا ، كلا ، لا اريد !..

ـ ايوه ، وها هو ذا المطمح رقم واحد .

ـ قال كبير المهندسين هذا وابتسم متعبا .

ـ في هذه الحال اعرض عليك حلاً وسطا : ما دام عجوزنا في المستشفى ، فستشتغلين مكانه . وخلال هذا الوقت تأملي واختاري عملاً حسب ذوقك ، واني لأعد بان آخذ ميولك بعين الاعتبار . وبالمناسبة ، اننا لا نعرف هذه الميول بعد . وانت الآن بالنسبة لي شيء مجهول . على ان هذا بالنسبة لك انت ايضاً .

– الن ننسى وعدك ؟

– لسنا معك في روضة اطفــال ، يا نينا فاسيليفنا .

وخرجا الى الساحة . وصعدت نينـــا خلف كبير المهندسين ، جاهدة ان لا تغرز في يدها شوكة من درابزين السلم ، فوصلت الى قاعة ضخمة تكاد تكون غير مسقوفة . كانت ثمة اعمدة مزدوجة ، مكسوة بصدأ حديث العهد ، متشامخة نحو السماء . والى جميع الجهـــات كانت تمتد اسلاك معزولة بالقطران المطاط وهنا وهناك اكوام من الرمل الرطب . كمـــا كان ثمة صندوق عالٍ ، مغطى بكرتون ، عليه كثير من عبارات التنبيه والتحذير : «القسم العلوي» ، «لا يقلب» ، «كن على حـــذر» . وفي الزاويـــة ، كان يبـــدو محرس صغير من القشور الخشبية مسمر على عجل . وقد رسمت على بوابته جمجمة وكتبـــت عبـــارة : «خطر الموت ! توتر عال» . واقبل على كبير المهندسين رجل على رأسه قبعة ، مزاحـــة الى قذالـــه ، فسأل وهو ينظر بدهشة الى نينا :

– كيف الحال ، يا رومان غافريلوفيتش ، مع ماكنة خلط الخرسانة ؟

فقال كبير المهندسين :

– خذوا عربة مقطورة واسحبوها الى هنا .

وتوقفت نينا قرب صندوق صغير من الحديد مركب على دواليب ، وراحت تتطلع الى فوق ، الى العلاء الشاهق ، حيث كان يهتز ويحوّم ببطء عمود معلق بحبل الرافعة الفولاذي وفجأة تقضقض الصندوق وترنح ، كأنه محموم . فارتجفت نينا وابتعدت عنه . فقال لها كبير المهندسين مبتسماً :

– لا تخافي ، انه محوّل للحام الكهربائي . حين يلحم اللحّام ينفتح المحول ، هذا كل شيء .

– لست اخاف قط ، – قالت نينا مخاتلة ، – انما ابتعدت عنه فقط ، هذا كل ما في الامر ...

– هذه قاعة للحفلات ، – اردف كبير المهندسين مشيرا بحركة واسعة من يده الى اكوام الرمل والاعمدة الصدئة . – هناك ستكون

الاوركسترا ومن هناك ستحمل قناني الشمبانيا المبردة وغيرها من الاشيـــاء الشهية المذاق . هذا مركز عملنا ، القطاع الثالث ...

وسمعت نينا صفيراً هادئاً ، وضرب شيء ما بشدة على سطح الصندوق . فسألت بدهشة :

— ما هذا ؟

فقال كبير المهندسين :

— هذا نتيجة عدم وجود مهندس في تكنيك السلامة . هاك انظري ، ثمة لحّام يشتغل على الطابق الســادس عشر ؟ ايوه ، لقد اشعــل القطب ، وقذف بطرفه الى تحت .

— ولكن هذا قـــد يؤدي الى مقتــل انسان !..

— ربما ... سيكون علينا ان نوقف الحوار بعض الوقت ، يا نينا فاسيليفنـــا . مثل هذه الحوادث ينبغي ان نضع لها حداً في الحال .

— انت ذاهب الى اللحّام ؟

— كلا ، بل الى رئيس القطاع .

— اما انا فذاهبة الآن الى اللحّام . حسن ؟

وبحثت نينا عن السلم ، وصعدت مسرعة

الى فوق . كانت الدرجات ، وهي مصنوعة من شباك معدنية سميكة ، ترن تحت قدميهـا ، وكان السلم يبدو شفافـاً ، وكان يرى جيداً كل من يمشي تحت . وتنبهت نينـا قائلـة لنفسها : «اغلب الظن اني قد تجاوزت الطابق السادس عشر» ، ثم توقفت تسترجع انفاسها . واقبلت عليها الفتاة ذات القرطين النحاسيين ، مدندنة . فسألتها نينا :

– اي طابق هذا ؟

– التاسع . وانت اي طابق تريدين ؟

– السـادس عشر . اهنـاك يشتغـل اللحـّامون ؟

– في الســادس عشر لا يشتغـل غير ارسنتييف .

ودوى مكبر الصوت يقول من مكان ما في العلاء : «يا رئيس القطـاع الثالـث . كبير المهندسين ينتظرك في مكتبك . اكرر . يا ايفان بافلوفيتش ، اذهب الى غرفتك فوراً ، كبير المهندسين يطلبك ...» .

ومضت نينا تعد الطوابق في صعودها حتى

بلغت الطابق السادس عشر فتوقفت في ساحة ضيقة .

على بعد عضادتين منهـا كان يجلس على عارضة خشبية معلقة شاب يرتدي صدريـة وسروالاً من المشمع السميـك . ومن تحتـه تطير العصافير بين الاعمدة . وجهـه مغطـى بالترس ذي النافذة الصغيرة كانه مقنع . انه منحن باهتمام على العقدة «يربط» الزوايـا الافقية باللحام الكهربائـي . وكان جليـاً ان الشاب ، وقد ربط جسمه بحزام التركيـب العريض وتشبث بحلقة العمود ، يشعر بنفسه وهو في هذا الارتفاع كأنما هو في بيته : فقد كانت قبعته معلقة على مسمار في عمود ، والحقيبة المحتوية على الاقطـاب الكهربائيـة معلقة على مسمار آخر .

والقت نينا التحية على الشاب ، فرفع الترس عن وجهـه ، فابصرت عينيـه الرماديتين الموصوصتين ، وشفتيـه الرقيقتين المشدودتين بعناد ، ومنخريه المتحركين ، وشعره الاشعث . ونظر الشاب الى نينا نظرة ساخرة ، واجاب :

ـ يعطيك العافية . هل انت قادمة الينا بجولة ؟
ـ كلا ، لست في جولة . ما اسمك ؟
ـ بتروف .
ـ وبماذا تتكنى ؟
ـ بيوتر بتروفيتش . مولود في عام ٢٨ ، ما حوكمت ..

فقالت نينا محاولة تقطيب حاجبيها على طريقة كبير المهندسين :

ـ اذا كنت ستواصل العمل على هذا النحو ، يا رفيق ارسنتييف ، فمن الممكن ان تحاكم . وستغدو سيرة حياتك غير بطولية الى هذا الحد .

ـ وانت من تكونين ؟ ـ سألها ارسنتييف مندهشاً ووضع حاملة القطب الكهربائي على العارضة الخشبية .

ـ خذ هذه ... ـ قالت نينا متضايقة اذ لم تكن تدري اسم الاداة ... ـ خذ هذا المقبض . اذا هو وقع على رأس احدهم ، فعلى من ستكون المسؤولية ؟

فقال لها ارسنتييف وقد ازداد دهشة :
ـ ولكن من تكونين انت ؟
ـ ليس المهم من اكون . انا مهندسة في تكنيك السلامة .
ـ آ ـ آ ـ آ !.. اذن انت ستكونين المسؤولة ـ قال اللحّام في هدوء . ـ يجب تعليق الشبكة .
ـ ايوه ، طبعا ، ولماذا سأكون انا المسؤولة ؟! اولاً ، هذا اول يوم اشتغل فيه . ـ هكذا كانت نينا قد شرعت تقول ، الا انها انتبهت الى ان كلامها يجري بلهجة الاعتذار ، فختمت قولها بحدة : ـ اما ثانياً فانك انت ستكون المسؤول عن قذفك بطرف القطب الى تحت .
ـ لا يمكن !
ـ لقد مر طرف القطب على بعد نصف متر من رأس كبير المهندسين .
فقال ارسنتييف من جديد :
ـ لا يمكن ! اني اضع جميع اطراف الاقطاب في الحقيبة .

ــ اذن انت تعتقد انه قد هبط من السماء ؟

ــ على الارجح . اطراف الاقطاب جميعا عندي في الحقيبة . هيا عدّيها ، اذا كنت لا تصدقين .

فقالت نينا في نفسها مقدّرة ، وقد امتقع وجهها من الغضب : «يظن اني لن اتجرأ قط على السير فوق هذه العارضة . ايوه ، لا بأس ! » . ومضت تمشي على العارضة الضيقة .

ما كان من شأن نينا ، في غير هذا الظرف ، ان تسير ولو خطوتين على العارضة التي كانت تطير العصافير من تحتها ، ولكنها كانت مندفعة عنيفة المزاج ، وقد اخرجها عن طورها نهائياً الموقف الساخر الذي اتخذه اللحّام من حادث جدي خطير . واجتازت العضادة الاولى ، ومرقت بسرعة من حول العمود ، ومضت على العضادة الثانية ، وما تنبهت الا حين ابصرت في مكان بعيد جداً ، من تحت ، كأنما عبر منظار مقلوب ، سيارة صغيرة محملة بالآجر الصغير ، والشيخ القصير يسلم على احدهم . فاصاب

رأسها الدوار في الحال ، فامسكت العمود بيديها الاثنتين . وكانت اول فكرة خطرت لها : «لن استطيع العودة . لن استطيع حتى تفرش هنا الارض» . فقال لها اللحّام منبهاً :

— لا تستندي على العمود ، فانك ستتسخين .

وسمعت نينا صوتها وهي تقول له :

— لا تشغل بالك .

وصممت على اعتياد الارتفاع ، وارغمت نفسها على النظر الى بعيد . فرأت كثرة من الاسطحة ، حمراً وسودا وخضراً وفضية ، والوفا من المداخن المبيضة بالكلس ، والخضرة اليانعة بين البيوت ، وافنية مكنسة تكنيساً نظيفاً ، والقبة الفضية لدار عرض حركة الكواكب . ومن الجسر كان ينطلق شارع عريض متلوٍّ مخطط بخطوط بيض ، وقد عرفت نينا هذا الشارع الذي كانت تسير فيه كل يوم لشراء الخبز . وفي الشارع كانت تتحرك عربات الترولي ذات الاسطحة الصفراء ، وقافلة طويلة من الشاحنات تجري الى خارج المدينة . ومن خلف المنعطف كانت تزحف عربات الترام ، وقد بدت من ذلك

6—1487

المكان سوداء ، وتجتاز الشارع متباطئة ؛ وفي نقاط تقاطع الشوارع ، كانت سيارات « بوبيدا » تحتشد جماعات جماعــات . ورأت نينا على الجسر العربة المقطورة ، الراجح انها تلك العربة نفسهــا التي ذهبت لجلب خلاطة الخرسانة ، وغير بعيـــد عن الجسر ابصرت سطـــح محطــة السكة الحديدية الزجاجي اللامع لمعانا يبهر الابصار . وبعيداً عن المحطة ، خلـــف البيوت والمصانع ، كان يرى مبنى الجامعة الابيض ، كانما هو مرسوم على طرف السماء . ماكان النظر الى بعيد رهيباً ، بل طريفاً . ولكن ما ان رأت نينا البوابة والمدخل والشيخ حتى الم الدوار برأسها واستولت عليها رهبة الارتفاع فاغمضت عينيها .

وفي هذه الاثناء رفع ارسنتييف الحقيبة عن المسمار وتناول بضعة اقطاب كهربائية وقال :

ـ هاك انظري ، ايتها الرفيقة المهندسة . كنت قد اخذت من المستودع خمساً وعشرين قطعة ، وفي وسعك التحقق من وصل الاستلام . وقد بقي منها سليماً مقدار . . . هاك انظري كم هو . . . ـ واخذ يعدّ ، واما نينـــا فقد كانت

تفكر قائلة في نفسها ، وعيناها مغمضتان : «كيف السبيل لي مع ذلك لبلوغ السلم ؟»

واستطرد ارسنتييف قائلاً :

ـ هاك انظري تسع عشرة قطعة ، واما اطراف الاقطاب فهي خمسة . انظري : واحد ، اثنــان ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة . وواحد في الحاملة . الحساب مضبوط .

ـ ومن اين وقع طرف القطب ؟ ـ سألت نينــا .

ـ لا ادري . ربما اوقعها ميتيا ، ـ قال ارسنتييف هذا واخذ يتطلع الى فوق .

كان ثمة شــاب جالســاً في الطابق الاعلى التالي ، على رأسه قبعة طرفها الامامي الى الخلف ، وكان هو ايضاً يلحم عقدة . فناداه ارسنتييف :

ـ ميتيا !

فرفع الشاب ترس اللحام عن وجهه ونظر الى تحت . فابصرت نينا وجهه العريض الطيب ذا الانــف المفلطـــح والعينين المتباعدتين ، المتورمتين بعض الشيء ، كما هي الحال لدى جميع اللحّامين بالكهرباء . وسأل الشاب :

ـ ماذا تريد ؟

ـ هل انت الذي يلقي اطراف الاقطاب على الرئيس ؟

ـ وماذا ؟

فقال ارسنتييف غامزاً بطرف عينه صوب نينـــا :

ـ ها قد جاؤوا من النيابة العامة . هاك ، انتظر ، انهـــا الآن ستذهب الى تحت وتبلغ المراجع ذات العلاقة ، فيقطعون من عمرك حوالى عشر سنوات . واذ ذاك ستكون منتبها دقيقاً في عملك ...

فقال ميتيا وقد ادرك ان صديقه يمازحه :

ـ اعتذر ، طبعاً . يحدث ان يسهو الانسان اثناء العمل . في السنة الماضية كان يشتغل لدينا ، في ذلك البيت بالذات ، العم ايفيم ، عامل التركيب في البنايات العالية . كان يقول : «عندما اشتغل في الاماكن العالية يسقط مني كل شيء ، كانمـــا يسقط من شجرة هرمة متفسخة» . وصدق ان شئت ، والا فلا تصدق : قبعته مربوطة بخيط ، وقلم الرصاص مربوط ،

ومحرمته التي يمخط بهـا مربوطة ، وعلبة الكبريت وعلبة الدخان مربوطتان .كله كشجرة رأس السنة وقد علقت عليها اللعب . وها انتم تحملون عليّ قائلين ان طرف قطب قد وقع . ولكن الانسان في الاماكن العالية ، اذا اردتم ان تعلموا ، انما يصاب بانصراف الانتباه . فهو لاينتبه الا الى العمل ، والى نفسه . واذا كان ينتبه لكل صغيرة ، فقد يهوي الى تحت . ولكى لا يسقط شيء ، لا بد من اقامة شباك للوقاية . وهذا ما ينبغي ان تفكر به الرئاسة .

وسأل ارسنتييف نينا :

— انت الآن ذاهبة الى تحت ؟

— لا اعرف بعد ...

— حين تكونين في القطاع الثالث ، تكلمي بشأن الشباك .

— طيب .

— او قولي لكبير المهندسين مباشرة .

— طيب ، يا بيوتر بتروفيتش .

— اسمى اندريه . كنت امزح ... وانت باي اسم ادعوك ، اذا اقتضى الامر ؟

- نينا فاسيليفنا .

- سيكون في علمنا . كنت اظن انك قادمة الينا في جولة للتفرج . ولكني حين جئت الى هنا ادركت على الفور ان الامر ليس كذلك . فنادر من يمشي على رصيفنـــا هذا ... فلا تنسي ، والحالة هذه ، الشباك الواقية ...- قال لها مذكراً مرة ثانية ، وبحركة خفيفة من رأسه انزل الترس على وجهه وانصرف الى عمله .

وقالت نينا في نفسها : «ماذا ينبغي علي الآن ان اعمل ؟ ينبغي ان تذهبي ، ايتهـــا المهندسة كرافتسوفا ، سواء اكنت تستطيعين ام لا ... اغلب الظن انهم لم يتمكنوا بعد من التوقيع على الامر القاضي بتعييني» . ونظرت الى تحت ، وفي نفسهـــا حسد شديد للنـــاس الماشين على الارض ، وجمعت كل قوى ارادتها فحاولت الانفصال عن العمود . ولكن رأسها اصيب على الفور بالدوار ، وشعرت بخدر في قدميها ، فادركت انها لن تستطيع السير خطوة .

ومن حولها كان العمل آخذا مجراه العادي المطمئن : في مكان سحيق من تحتهـــا تطلق

السيارات ابواقها ، والقضبان المعدنية تهدر ، والمطارق الهوائية تقرع كالطبول ، وعلى بعد قرابة عشرة امتار من نينا ، كانت فتاة زرقاء العينين تحرك المفاتيح في غرفة الرافعة الزجاجية ، وعلى الاعمدة يترامى ظل السهم الجسيم ، كانه ظل طائرة .

— الا تزالين هنا ؟ — سأل ارسنتييف وقد رفع الترس عن وجهه .

فصاح ميتيا من فوق وانطلق يضحك :

— انها ، اذا شئت ان تعلم ، خائفة . اعتذر ، طبعاً ...

— وليس في هذا ما يدعو الى الضحك ، — قالت نينا يائسة .

— انا نفسي اعلم ان ليس في هذا ما يضحك . فالامر هنا يحتاج الى شيء واحد : احسبي انك على الارض ، واذذاك يكون كل شيء على ما يرام . ان احد الاميركيين قد وضع عارضة بين ناطحتي سحاب ، وقال انه سيمر عليها وعيناه معصوبتان . وقد قال : « لست ارى فرقاً . فاذا كانت عيناي معصوبتين فسواء عليّ

اين تكون العارضة ، اهي موضوعة على الارض ام معلقة على ارتفاع مئتي متر » . وقد عصبوا عينيه ، وسار . وقد هوى من هناك ، طبعاً . . .

– وهل اعربت عن رايك ؟– سأل ارسنتييف مغضباً .

– وماذا ؟

ونظر ارسنتييف الى نينا في ذهول ، وفكر قليلاً ثم قال :

– هل تنوين ان تبقي واقفة هكذا وقتا طويلاً ؟

– لا ادري .

– هي ذي مسألة جديدة . هل ترى نوصلك على ايدينا الى السلم ؟

– كلا ، كلا . لا لـزوم لذلك ! .. دبّر مخرجاً ، من فضلك .

– استطيع ان احملك ، ولكن المسألة خطيرة . فليس في وسعي تحمل مثل هذه المسؤولية . ثم اردف مخاطبا ميتيا :– انك لا تفعل غير سرد الحكايات السخيفة ، فتخيف الناس . الافضل ان تشير بشيء ما .

وظلا وقتا طويلاً ينظران احدهما الى الآخر .
فقالت نينا وهي تحاول اغماض اجفانها المرتعشة :

– اني موشكة على السقوط ، يا شباب .

واخيراً تمتم ميتيا قائلاً :

– لو ان الارضية كانت مفروشة لكانت قد مرت .

– هل اعربت عن رأيك ؟ – قاطعه ارسنتييف من جديد ، ولكنه انتعش فجأة ، وهب واقفا ، ونادى الفتاة الزرقاء العينين ، الجالسة في غرفة الرافعة : – يا ماروسيا ! اطلبي من عامل الاشارة ان يبعث اليّ ببلاطتين من ذوات الرقم خمسة ! ساوضح الامر لمدير العمل عند نزولي .

ورأت نينا الفتاة وقد اشارت برأسها موافقة ، وتكلمت بالهاتف ، وحركت مفاتيح الرافعة ، فحلق في السماء السهم الهائل ، وما هي الا لحظات حتى اخذت البلاطة الخرسانية المسلحة تتمايل فوق رأس ارسنتييف . فراح هذا يصيح وقد رفع يده :

ـ اعلى ، اعلى ايضاً .

وهبطت البلاطة بأناة على العوارض ، وفجأة احست نينا بنفسها على ارض خرسانية عريضة طبعت عليها الى الابد آثار قدم كبيرة . وما هي الا خمس دقائق تقريباً حتى كانت البلاطة قد استقرت على العضادة الثانية ايضا ، فهبطت نينا راكضة الى تحت على السلم الشفاف محاولة عدم النظر الى ارسنتييف .

كانت تقول في نفسها : «سأتكلم الآن حتماً مع كبير المهندسين مرة اخرى ، وسارفض هذا العمل ، قبل فوات الاوان» .

ولكن النــاس تحت ، على الارض الصلبــة المأمونة ، كانــوا منصرفين الى اعمالهم ، فلم ينتبه اليها احد ، واما الممر البارد الجو بعض الشيء ، فكان قد علق فيه امر ينص على ان المهندسة كرافتسوفا ، نينا فاسيليفنا ، تعتبر قائمة بوظيفة مهندس في تكنيك السلامة مع مهلة شهر اختبارية .

*

انفقت نينا كل اليوم التالي تقريباً في الاطلاع على المشروع التنظيمـــي للاعمـــال وسجل التوضيحات الطويل والعشرات من التصميمات الضخمة التي كان يسيراً نشرها وعسيراً ترتيبها . وقد قطع كبير المهندسين مقابلته للزائرين ، ومضى يحدثهـــا طويلاً عن خطـــر الفجوات المفتوحة والصقالات المتأرجحة وادوات العمل غير السليمة ؛ وقد بدا لنينا اول الامر ان ثمة شيئاً من المبالغة في الاهمية المعطاة لعملها . ولكن حين شد كبير المهندسين على يدها ، في نهاية الحديث ، وقال لها : «آمل بان لا تقع على كاهلك مسؤولية عن اية اصابة» ، ادركت انها مسؤولة عن السهر على حياة المئات من الاشخاص ، بل لقد خافت حين ادركت هذا .

ولقد تلقت من الادارة بعد يومين دفترا رسمياً للملاحظات وقلم رصاص وبدأت جولتها الاولى على القطاعات .

وفي الطابق الثاني من قسم البناية ذاته ، حيث ستجري الحفلات ، رأت صقالات منصوبة على عجل . ولما كان ارسنتييف منهمكـــاً الى

جانبها بالعمل في الاسلاك ، فان الصقالات مقامة من اجل اللحامين بالكهرباء . وكانت نينا منذ عهد تدربها قد تعرفت جيداً الى بناء الصقالات والمساند الخشبية ، فلاحظت الخلل الآن على الفور . وكان يقف الى جانب الصقالات رئيس القطاع الثالث ايفان بافلوفيتش والنجار وقد دق لتوه المسمار الاخير في تلك المنشأة الخشبية غير الثابتة . فسألت في نفسها : هل يجب الدنو منهما ام لا ؟» مخافة ان لا يتمالك ارسنتييف الساخر من ان يلمّح الى الحادث الذي جرى اول امس في الطابق السادس عشر . «على كل حال سيحدث لي ان التقي به ان لم يكن اليوم فغدا . فينبغي الدنو منهما» ،– هكذا قررت ، ثم توقفت وسألت ايفان بافلوفيتش بلهجة صارمة :

– اي شيء هذا ؟

– منشأة مساعدة تسمى «صقالة» ،يا نينا فاسيليفنا ،– اوضح رئيس القطاع متنازلاً .– هي ذي القوائم وها هي الضلوع ...

فقالت نينا محاولة ان لا تقع عيناها على عيني ارسنتييف :

– هذه عصي رفيعة ، لا ضلوع .

– اية عصي رفيعة !– قال ايفان بافلوفيتش بلهجة متسامحة ايضاً وهويخبط بيده على اثخن خشبة .– صنعت وفقاً للتصميم .

– هاك العصاة الرفيعة ، وهاك ....– قالت نينا وغضبها يتزايد باطراد من اللهجة المتسامحة ، وراحت ترسم صلبانا على الاخشاب غير المناسبة .– ارجو تغييرها .

– ما هذا ، يا نينا فاسيليفنا ، انك غير عارفة بهذه الامور بعد !

– والقوائم غير عمودية . انها صقالة «سكرى» تماماً .

– واين رأيت قوائم غير عمودية ؟

– هاك ، انظر هنا .

– هذا يبدو من هنا ، اما اذا نظرت من جهة اخرى ، فانها لتبدو جد عمودية .

كان ارسنتييف والنجار ، وكانا قد اعتزما

الانصراف ، ينتظران بوجهين صارمين مـاذا ستكون نهاية محاورة الرئيسين . فقالت نينا :

– كما تشاء . فاذا ما تسلق احد على هذه الصقالة فسأكتب مخالفة .

– كلا ، وما الداعي للكتابة ؟ – تمتم ايفان بافلوفيتش بسرعة ، وقد بدا عليه الجد فورا .

– سنصلح ، سنصلح كل شـيء . مـا لك يا فاسيا، ، لماذا كنت تسمر اخشابا رفيعة ؟

– المواد التي اعطوني اياها صنعت منها . – اوضح النجار بوجه متجهم .

– ينبغي طلب مواد متفقة والمخطط . فما هذه القوائم لديك . اهذه قوائـم ؟ يجب ان يجري تصليح كل شيء بعد ساعة !

واخذ النجار يخلع الضلوع ، واما ارسنتييف فقد سأل باكتئاب :

– وانا ماذا ينبغي ان اعمل في هذه الساعة ؟

وذهبت نينا . واقبل ايفان بافلوفيتش على النجار ، مشيعاً اياها بنظراته ، وقال له بصوت خافت :

– اصطبر .

فنظر اليه النجار بارتبـاك بطرف عينه .
— ارجع الخشبات الى مكانها . ليس على كل عطسة يقال يرحمك الله . اصعد لفوق ، يا ارسنتييف .
وبعد نصف ساعـة دعيت نينـا بواسطة الراديو الى الطابق الثاني . كان كبير المهندسين وارسنتييف واقفين قرب الصقالة المشؤومة . وقد سأل كبير المهندسين نينا :
— هل كنت هنا ؟
— كنت .
— انظري — قال هذا وكسر برجله خشبة رفيعة . — ينبغي الانتباه الى مثل هذه الاشياء .
— ما هذا يا رفيق ارسنتييف ؟ — سألت نينا بارتباك . كانت دائما تشعر بالارتباك حين ترى انها موضع خديعة وغش .
فقال لها كبير المهندسين :
— انـه هـو الذي ينبغـي ان يسألك : «ما هذا ؟» . ينبغي ان تكوني اكثر انتباها . فبانتباهك ترتبط حياته . مفهوم ؟
— فاهمة . — اجابت بصوت خافت .

— اسمح لي ان اوضح ، ايها الرفيق كبير المهندسين ،— هكذا بدأ ارسنتييف الكلام ، الا ان نينا لم تفسح له مجالاً لاتمام كلامه . وتمتمت قائلة بغضب :

— لا ينبغي ايضاح شيء لكبير المهندسين . كل شيء واضح بما فيه الكفاية . اذهب الى رئيس القطاع وانذره باني ساجيء بعد ساعة لفحص الصقالة .

*

ائتلفت نينا مع الوظيفة الصعبة بسرعة . صحيح انها كانت تعتبر وضعها موقتاً فلم تبدل شيئاً على طاولة الكتابة التابعة للمهندس المريض ، بل لم تمس رزنامته الملأى بملحوظات قديمة العهد ، واقتصرت على وضع كأس صغيرة تحتوي على الزهور ، قرب الدواة . بيد ان توقع تغير الوظيفة لم يمنعها من ان تكد «بكل طاقتها» ، كما كانوا يقولون عنها .

كان المكتب الذي يشتغل فيه المهندس السابق غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة . والنافذة

تطل على ورشة البناء ، فكان يمكن للمرء اذ يطل برأسه منها ان يرى هيكل البناية بكامله حتى اعلى نقطة فيه . ولكن نينا كانت لا تكاد تجلس وراء طاولتها ، فكان الرؤساء ، من غير ان يحاولوا الاتصال بها هاتفيا ، يبادرون على الفور الى تكليف عامل الراديو بدعوتها عن طريق مكبر الصوت . وما كانت نينا تستقر في المكتب ، لأنهـا لم تكن توافق على ان تأتمن احدا على التحقق من تنفيذ تعليماتها ، وكذلك لا نهـا كانت مغتاظة من آخابكين ، العامل الفني في قسم التموين ، الذي يجري كل يوم حديثا بشأن بلاط الواجهة رقم ٩٢ ، الذي لم يرسله مصنع خاركوف حتى الآن . وما مضى اسبوعان حتى كانت قد امتلكت الخبرة الراسخة في الوظيفة ، ولقد كانت وهي تصعد سلالم البناية تثني بحركة آلية اطراف الاسلاك الناتئة في الممرات .

ومع ذلك فقد كانت نينا في ختام الاسبوع الثاني تشعر بمثل وحدة اليوم الاول ، اذ لم يظهر لها اصدقاء . وقد كان رؤساء القطاعات يقفون منها موقفهم من ضائقة موقتة ستزول

زوال المطر او الريح ، ويسخرون من مشيتها على العوارض الخشبية ، ويحملون عليها بتسامح في الاجتماعات الادارية المستعجلة . واما العمال فكانوا ، اذ فهموا ذلك ، يرفضون الاذعان لها على المكشوف ، ولا يسمونها في غيبتها باسمها وكنيتها ، بل يسمونها «تكنيك السلامة» ، ليس الا . وبرغم ذلك توصلت نينا الى تسوير جميع الفراغات وتغطية ابواب السقوف والفتحات بالشباك المعدنية او باغطية موقتة .

على ان عدد الجروح البسيطة لم يقل . وقد ذهبت نينا بضع مرات الى مسكن العمال العام محاولة جمع الشبان لالقاء حديث عليهم حول قواعد تكنيك السلامة ، ولكن هذه الاحاديث لم يكن يذهب اليها احد تقريبا ، رغم ضغط منظمة الكومسومول . فكانت نينا تغتاظ ، وتتهم الشبان بانعدام الانضباط ، وتطلب من كسينيا ايفانوفنا ، المشرفة على التربية في مسكن العمال ، ان تعمد الى اتخاذ التدابير . وكانت كسينيا ايفانوفنا تقتصر على الابتسامة الحزينة ، وتهز رأسها وتقول ان

نينا لم تجد هنا بعد عدم الانضباط الحقيقي الذي يتطلب المعاقبة فعلا ، بل ويتطلب احيانا الكتابة باسم مجلس الاعاشة الى مسقط رأس البناة الشبان ، الى آبائهم وامهاتهم : وهذا ما يكرهه الفتيان اكثر من كل شيء . وفي نهاية المحادثة كانت كسينيا ايفانوفنا تشير عليها بتنظيم امسية للرقص ، واجراء حديث لدى اجتماع الشبان .

كانت نينا تغضب وتروح تبرهن على ان من واجبهم دراسة تكنيك السلامة بدون اية مغريات ، ثم تمضي الى بيتها . واذ لم تتوصل نينا الى شيء من كسينيا ايفانوفنا ، فقد قررت ان تعلق في ورشة البناء لافتات عليها تعليمات موجزة . واجرت حديثا بهذا الصدد مع آخابكين ، اوضحت له فيه ان اللافتات غير كافية ، وان الموجودة منها قد عملت بغير عناية . فاللافتات ينبغي ان تكون وطيدة ، مصنوعة من التنك ، والاحرف ينبغي ان تكون مكتوبة بدهان زيتي على مهاد جميل ، والنص ينبغي ان يكون بارزا للعيان ، قابلا

للتذكر . واضافت غير واثقة : «بل وربما شعرا» .
فسألها آخابكين :
– وكم تحتاجين من هذه اللافتات ؟
– باقل تقدير ثلاثمئة وخمسين قطعة .
– كم ؟
– ثلاثمئة وخمسون .
– مالك ، أتمزحين ؟.. أتعرفين كم ستكلف لافتاتك ؟ – ونزع قطعة ورق من الدفتر ، وراح يتمتم بسرعة : «تنك ١٠٠ صفيحة ، زيوت ... اصبغة ... الاجور ... نقليات ... نفقات اضافية ...» ، وحسب وقال : اللافتة الواحدة ستكلف ١٣ روبلا* .
فسألته نينا :
– وكم يكلف الانسان ؟
– اي انسان ؟

* ان النقود في هذا الكتاب حسب المقياس القديم للاسعار الساري المفعول قبل يناير (كانون الثاني) ١٩٦١ . (الناشر) .

ـ كم يكلف الانسان في دولتنا ؟

ـ لست ادري كـم يكلـف الانسـان ، ولكن حاصل ضرب ٣٥٠ بـ١٣ يقارب خمسة آلاف روبل ! ولن يسمح لك احد بانفاق هذا القدر من المال على كل تافهة .

واخذت نينا الحسابات ومضت الى كبير المهندسين . فامكنهـا الاتفاق مع رومـان غافريلوفيتش . الا انه لم يسمـح بصياغـة النصوص شعرا . وما هي الا بضعة ايام حتى كانت الفتاة ذات الاقراط النحاسية ، واسمها نيورا ، تعلق لوحـات جميلة ، ولكن لا على السياج بل في اماكن العمل المعينة من قبل نينا . وقد جاءت العبارات التي ابتكرتهـا نينا ، وقضت فيها ليلتين ، محاطة بالتعليمات ، عبارات مختصرة مفيدة : «الاداة غير المضبوطة غدارة وخطرة» ، «لا تنظر الى نار اللحـام الكهربائي» ...

بيد ان يد قسم التموين الشحيحة ظهرت مع ذلك آثارها : فبدلا من ٣٥٠ لافتة لم يتم تجهيز غير خمسين ، وفي الزاوية الدنيـا من

كل منها ، وبموجب تعليمات خاصة من آخابكين ، كما يبدو ، كتب بحروف صغيرة : «الثمن ١٣ روبلا» .

وفي اليوم التالي ، بعد تعليق اللافتات ، ذهبت نينا للقيام بجولة على القطاعات . لم تعد الاماكن العالية تخيفها ، ولكنها كانت تتوجس خيفة من المسير على العوارض الخشبية الافقية . وقد لاحظت في الطابق السابع رأس ميتيا الاشقر . وقد كان في ذلك اليوم يقوم باعمال اللحام على الغاز .

فنبهته قائلة :

– حين تنتهي ، لا تترك بقايا الكاربودات في المولّد .

فالتفت اليها ميتيا وقال :

– لست اتركها قط ، يا نينا فاسيليفنا .

– آه ! لماذا تشتغل بدون نظارات ، يا ياكوفليف ؟

– انكسرت – اجاب ميتيا وابتسم . – وضعتها في جيبي صباحا ، فسهوت ووضعت

هناك الملقط ، فانكسر الزجاج ... هاك ، تفضلي .

وتناول النظارات من جيبه . كانت احدى الزجاجتين منصدعة بعض الشيء .

فقالت نينا وهي تفحص النظارات :

– قابلة للعمل تماما .

– واذا وقعت الزجاجة في العين فجأة ، –قال ميتيا معترضا .– فانت نفسك تعرفين : الاداة غير المضبوطة غدارة وخطرة .

فاضطرمت نينا . الى متى أخيرا ستظل اقتراحاتها تعتبر سخافات ، وملاحظاتها مدعاة للضحك ؟ ! وقالت له محاولة ان تبدو هادئة :

– اذا كنت تخاف على عينك ، فقد كان عليك ان تهرع الى المستودع منذ مدة فتبدل نظاراتك . العمل ممنوع بدون نظارات .

– كيف لي ان اذهب من الطابق السابع واعود اليه ! والبرنامج ؟ والمردود ؟

– ابلغ مدير العمل اني انا قد صرفتك عن

العمل . – قالت نينا ، وتناولت دفتر الملاحظات واخذت تسجل مخالفة .

– امحيها ، يا نينا فاسيليفنا ...

– كلا ، لن امحوهــا . اصبحت لديــك مخالفتــان . واذا كنت ستستمــر على هذا النحو فيما بعد ، فاني ... اني سأكتب لأبويك عن سلوكك في ورشة البناء .

– ولكني لن اعطيك العنوان .

– لا بأس ، سأجده في قسم الملاكات .

ما كانت نينا ، طبعا ، تنوي الكتابة الى ابوي ميتيا ، وما ادركت كيف انطلقت هذه الكلمات من لسانها ، ولكن مكبر الصوت اخذ يتكلم فجأة من السمــاء : « بعــد عشر دقائق اجتماع اداري ... اكرر ... » ،فهرعت الى مكتب القطاع الثالث ، حيث يوجد مكبر الصوت ، وحيث يمكن سماع كل شيء .

وفي طريقها تخطت فتاة لا تعرفها ذات عينين تنمان عن الحيوية . كانت الفتاة تصعد السلم المعدني بهدوء ، ممسكــة بالدرابزيــن لا تنزع يدها عنه ، متوقفة بين حين وآخر ،

ناظرة الى سهم الرافعة المتحرك . فقالت نينا في نفسها : «الراجح انها من الجدد» ، ومضت في طريقها مسرعة .

وفي المكتب ، القائم موقتا في الطابق الرابع من البناية العالية ، كان رئيس القطاع ايفان بافلوفيتش جالسا ، وعلى رأسه قبعته التي لا تتغير ، مردودة الى قذاله . ما كانت القبعة متناسبة قط ووجهه العريض الغليظ بعض الشي الملفوح بالشمس ، بل لقد كانت تبدو صغيرة عليه الا انه لم يكن يخلعها حتى في المكتب ، فهو مستعد في كل لحظة للانطلاق سريعا الى القطاع بسبب كراهيته للمعاملات الورقية والاتصالات الهاتفية .

كان ارسنتييف واقفا امام الرئيس ، وكلاهما في غضب وتجهم .

نظرت نينا باحتراس الى ارسنتييف ، متوقعة منه التلميح الى تعارفهما في الطابق السادس عشر . ولكن اللحام لم يكن في حال تسمح له بتذكر هذا .

كان يقول لرئيس القطاع :

– لو كنـــا اربعة اشخـــاص ، لكان كل شيء على ما يرام .

فسأل ايفـــان بافلوفيتش بصوت كئيـــب :

– ومن اين آتيك بالناس ؟ من اين ؟..

– ولكننا لسنا بحاجة الى عمال اكفاء . اننا نحتاج ولو الى أولئك الفتيات البسيطات ، لكي يذهبن الى تحت بطلب من اللحامين اذا ما احتاج الامر الى الاتيان بشيء ما ، ويراقبن المحولات ، ويفحصن الاسلاك . لكي لا يركض اللحام نفسه ، فيضيع الوقت .

وانشق الباب ونظرت الى المكتب الفتـــاة التي تخطتها نينا على السلم .

وسأل ايفان بافلوفيتش ارسنتييف :

– وربما ليجلبن لك السندويشات ؟

فاجاب ارسنتييف في هدوء :

– وما الغرابة في هذا ؟ نعم وسندويشات .

– أيمكن الدخول ؟ – سألت الفتـــاة وقـــد شقت الباب من جديد ، ودخلت غير منتظرة الجواب ، فوقفت قرب طاولة الكتابة . وسأل ايفان بافلوفيتش ، غير منتبه اليها :

– لعلك تريد ان تكون لديك خادمة ؟ من اين آتيك بالناس ؟

– لو كنت مكانك لوجدت .

– تفضل اجلس . اني أتخلى عن وظيفتي .

– وهل تراني احمق ، يا ترى ...

واخذ ايفان بافلوفيتش يفكر ، مديراً بيده قلم الرصاص . جليّ ان افكاره لم تكن بالمرحة ، فقد قرر وقفها ، وسأل الفتاة ملقياً عليها نظرات متعبة :

– ايوه ، وانت ماذا تريدين ؟

– اني مرسلة الى هنا للعمل . فماذا عليّ ان اعمل ؟

– هــا ــ هــا ، الى العمل ! هذا حسن . ما كنيتك ؟

– روديونوفا ، ليدا روديونوفا .

– حسن ، يا ليدا روديونوفا . تفضلي اجلسي على هذه الاريكة ، استريحي .

فقالت الفتاة :

– اني متعبة من الاستراحة . مضى عليّ يومان

وانا استريح . منذ ان نزلت من القطار وانـا استريح .

– سنزيل هذه المصيبة ... ايوه ، كيف ؟ أاعجبك بيتنا الصغير ؟

– لا بأس . الا انه عـال جداً . ليتـه لا يسقط .

– لن يسقط . اننا نبني لاجيال .

وسأل ارسنتييف من جديد :

– ايوه ، مـاذا بشأن الناس ، يـا ايفان بافلوفيتش ؟

ولكن مكبر الصوت انفتح في ذلك الوقت ، وقـال صـوت كبير المهندسين الابح : «نبدأ الاجتماع الاداري . هل رئيس القطاع الاول في مكانه ؟» . فاجاب صوت رئيس القطاع الاول : «في مكانه» . وجواباً على مثل هذا السؤال اجابت اصوات اخرى ، صادرة عن رجال ونساء : «هنا» او «في مكانه» . وحين وصل الدور الى ايفان بافلوفيتش ، قال هو ايضا : «انا في مكاني ، ولينا فاسيليفنا هنا» ، ونفخ في السمّاعة .

ودنت ليدا من خزانة المكتب ونظرت الى

الزجاج واخذت تصلح من وضع شالها . ثم سألت ارسنتييف :

– هل يمكن تناول طعام الفطور هنا ؟

فقال لها باسى ، وجلس قربها على الاريكة :

– حل المشاكل هنا هو وحده غير ممكن ، اما كل ما تبقى فممكن .

فتناولت ليدا من حقيبة يدها كعكاً وجبنة ، وفرشت شالها على ركبتيهـا ، واخذت تأكل . فسألها ارسنتييف :

– أأنت من سيبيريا ؟

– ومم عرفت ؟

– كعكنا السيبيري لا مجال للاشتباه به . من اية منطقة ؟

– من منطقة اومسك . اعيش غير بعيد عن ايشيم . وانت ؟

– انا من منطقة نوفوسيبيرسك .

كانت نينا تصغي الى حديثهما بفضول وحسد كئيب . واخذت تقول في نفسها : «ها قد مضى عليّ اسبوعان وانا اشتغل في ورشة البناء ، والعمـال والمهندسون يقفون مني موقفهم من

غريبة . اما ليدا هذه فقد جاءت الى هنا للمرة الاولى ، فاذا هي على الفور تجلس كأنما هي في بيتها ... وغدا ، في اغلب الظن ، سيظهر لها اصدقاء وعشراء . خير لي ان انتقل من هذه الوظيفة المشؤومة وابدأ الاشتغال بشيء ما اكثر إصالة !..»

وفي هذه الاثناء كانت ليدا تقول :

— يقولون ان ابناء نوفوسيبيرسك لا تلفحهم الشمس . امـا انت فهاك كيف اصبحت ملوح الوجه .

—ولم لا ؟ نحن اللحامين اقـرب منكـم الى الشمس . في اعلى عليين . هـل انهيت حلقـة دراسية ما ؟

— كلا .

— هل تحسنين العمل في تكنيك البناء ؟

— كلا .

— وهل كنت تشتغلين باللحام الكهربائي ؟

— كلا .

— لست تفهمين شيئاً ، اذن ؟

— لا افهم بعد شيئاً .

ـ يا لك من شغيلة ذات قيمة ! سآخذك لعندي . أتأتين ؟

ـ لا ادري . انمـــا اذهب حيث ترسلني الرئاسة ... واي عمل لديك ؟

ـ لا شيء ذا بال . يصادف ان يكون ثمة شيء ما ينبغي الاتيان به من تحت ، وهكذا ستكونين ... كيف اقــول ... مندوبتنـــا ، فتذهبين وتجلبين ، لكي لا نتلهى عن العمل .

فسألته قائلة :

ـ لست افهم شيئا . يعني مندوبة للركض من تحت لفوق ؟

ـ ومــاذا تريدين انت ؟ ان توقعي فوراً التصاميم ؟

ـ وهل يعطون احذية ؟

ـ يعطون احذية ولباساً للعمل .

ـ لست ادري . خير لي ان ارى اين ستعينني الرئاسة ...

ولم يتح لنينا ان تسمع ما قيل بعد هذا ، فقد راح ايفان بافلوفيتش يصرخ في السماعة

بصوت شديد . كان يصرخ قائلاً ، مهددا في المذياع :

– الرافعة تسحب الآجر ، واما عمال التركيب فينتظرون الاعمدة الطولانية ساعــة كاملــة ! ساحات القطاع الاول ملأى بالآجر ، اما المركبون في الاعمال الرئيسية ، فانهم متعطلون من جراء فقدان المواد ... فليقل كبير المهندسين أهذا مضبوط ؟

فسمع من يقول له جواباً على كلامه :

– وهل ينبغي لنا نحن في القطاع الاول ، يا رفاق ، ان نقعد بدون آجر ؟ وهكذا يعتبر ايفان بافلوفيتش نفسه المدير الرئيسي للرافعة المركزية .

ولعلع صوت رومان غافريلوفيتش الابح ، قائلاً :

– انتظر ، ايها القطاع الاول ، ليس الوقت وقت مزاح . الافضل ان تنشروا مخطط تنظيم العمل . هل نشرتموه ؟

ومع ان هذا لم يكن يخص ايفان بافلوفيتش ،

فقد تناول هو ايضا المخطط من جارور الطاولة . واردف كبير المهندسين يقول :

ـ جدوا نقـاط مواقف الرافعـات . هل وجدتموها ؟ هل وجدتم رقم ٢ ؟ لماذا لم تخلوا حتى الآن مكانا لموقف الرافعة من قدرة طن ونصف رقم ٢ لدى الواجهة اليسرى ؟

فاخذ رئيس القطاع الاول يقول :

ـ واين احشر الصندوق ؟ كنت اريد وضعه في الزاوية ، فلم تسمح نينـا فاسيليفنـا ... انها تمنع وضع الصندوق هنا .

ـ اجل ، امنع ، ـ قالت نينا وقد تناولت السماعة من يد ايفـان بافلوفيتش . ـ اقـرأ التعليمات ، يا رفيق رشتوف . العمل ممنوع تحت الحمولة المرفوعة .

فقاطعها كبير المهندسين بحدة ، قائلا :

ـ انتظري ، يا نينا فاسيليفنا . لماذا ، يا رفيق رشتوف ، لم تقدم تقريرا عن هذا حتى الآن ؟ خذ التصميم او ـ ار ١٢ . انظر . لماذا لا تستطيع وضع الرافعة في الوسط من البناية ، هاك في المحورين با ـ ار و١٠ ـ ١١ ؟

اما كيفية وضع القضبان الحديدية ، فانت نفسك فكر بها . واما الرافعة المركزية فاجعلوها بكاملها تحت تصرف رئيس القطاع الثالث .

وقرع ايفان بافلوفيتش باصابعه ، وقال غامزا بعينه لليدا المندهشة : «عال !» . وتابع كبير المهندسين يقول :

– اما رئيس القطاع الثالث فسنطلب منه الهيكل جاهزا بعد عشرين يوما . واضح ؟ ..

فنفخ ايفان بافلوفيتش في السماعة ، كأنما هو ينفخ في السماور ، وصاح :

– رومان غافريلوفيتش ، رومان غافريلوفيتش ، لقد سبق لي ان اعلنت لك اننا لن نستطيع الانتهاء في عشرين يوما !

– هذا رأيك ؟

– الجميع يقولون هكذا . فاسأل اي عامل . هاك ، تفضل ، عندي هنا ارسنتييف ، مصادفة ... ايوه ، هيا ، ابلغ الرئيس عن رأيك ، – اضاف بصوت خافت ، مقدما السماعة لارسنتييف .

– أأبلغه بصدق وشرف ؟

ـ طبعا . لا تخف . ما دام غير ممكن ، فماذا في الامر ؟

ـ ما رأيك يا ارسنتييف ؟ ـ سأل كبير المهندسين .

فتناول ارسنتييف السماعة :

ـ اذا اخذت رئاسة القطاع مطالبنا بعين الاعتبار ، فاننا سنقوم بالعمل .

فقالت نينا في نفسها : «انه لجسور مع ذلك !» ، اما ايفان بافلوفيتش المنذهل فقد جلس من إثر المفاجأة .

وانتهى الاجتماع الاداري ، فذهبت نينا الى مكتبها . فرأت هناك ميتيا . كان يتحادث مع آخابكين بانتظارها .

ـ كيف سأذهب الآن الى العطلة ؟ البناء سيتأخر بسببنا ، واما انا فذاهب . والعمل هذا هام جدا بالنسبة للدولة .

فقال له آخابكين :

ـ لا تشتغل بالك . اهتم انت بنفسك ، والدولة تهتم بنفسها .

ـ كلا ، لست موافقا على هذا ، لست موافقا

على ان اهتم بنفسي ، وتهتم الدولة بنفسها .
الافضل ان اهتم انا بالدولة ، ولتهتم الدولة بي .
وسألت نينا :
ــ لماذا لا تتناول الغداء ؟
ــ في الوقت متسع ـ قال ميتيا ـ لي عندك شغل .
ــ واي شغل ؟
ــ اذا كنت ستكتبين لأمي ، فلا تكتبي لها اني اشتغل في الاماكن العالية .
ــ ولماذا ؟
ــ لا تكتبي ، وكفى ، ـ طالب مخفضا عينيه . ـ أليس سواء لديك ما تكتبين ؟ الذنب ليس على امي .
ــ لست أفهمك نوعا ما ، يا ميتيا ...
ــ وما هو غير المفهوم هنا ؟ انها في خوف من اثر الحرب ، مؤرقة في لياليها . واذا هي عرفت اني اشتغل في الاماكن العالية ، فلن تنام ابدا . وكم ستخطر لها من تصورات .
فسألته نينا بصوت خافت :
ــ أليس لديك أب ؟

– ليس لديّ اب . امي لوحدها تعيل نفسها وثلاثة اولاد . انها مريضة ، وعما قريب ستخور قواها كليا . ها هي صورتهم معي .

واخرج ميتيا محفظته ، وتناول صورة فوتوغرافية مهترئة الاطراف ، واردف يقول :

– هي ذي امي ، انها تشتغل في مزرعة تعاونية ، في القطاع التجريبي ، وهذه ليوسيا ، وهذا فاسيا ، وهذه الصغرى اليونكا . – وقد كان الاطفال نحيلين ، ولهذا كانوا متشابهين .

– اني اساعدهم قدر طاقتي ، فلست أبقي لنفسي الا ما يلزمني للطعام وللسينما ، اما للثياب فلا آخذ ، فالميزانية لا تكفي ... وعند التخفيض التالي للاسعار سأبقي من اجل الملابس .

– لن اكتب شيئا ، يا ميتيا – قالت نينا – انا كنت امزح .

– ايوه ، لا بأس . اما انا فلا داعي لقلقك عليّ . فالمرء اذا كان يمشي على الارض مشية راسخة ، فلن يعثر وهو فوق .

لم تلاحظ نينا كيف ذهب ميتيا . فقد

كانت جالسة وراء طاولتها تنظر الى الكأس المحتوية على الزهور ، تتخيل شقيق ميتيا وشقيقتيه ، وهم شقر مثله ، وامه الفاقدة زوجها في الحرب ، وتتصور ميتيا وهو ذاهب الى دار البريد يكتب اوراق التحويل .

– متى ستكون اللافتات الثلاثمئة الباقيات ؟

– سألت آخابكين بصورة مباغتة جعلته يرتجف .

– حين سيكون التنك ستكون اللافتات .

– اسمع ، يا رفيق آخابكين ، لمن تبنى هذه العمارة ؟ – سألت من جديد ، وهي بالكاد تكبح جماح غضبها .

– لمجلس سوفييت موسكو .

– بل للناس ، لا لسوفييت موسكو . هل تحب الناس ، يا رفيق آخابكين ؟

– حسبما يكون الناس . ان مدير مصنع خاركوف لا يقدم البلاط رقم ٩٢ ، فهل عليّ ، في رأيك ، ان احبه ؟

– لست أتكلم عن مثل هذا الحب . انما اتكلم عن الحب للانسان بوجه عام ، عن

الاهتمام بالانسان ، عن ان عليك انت وعليّ انا وعلينا نحن جميعا ان نهتم بالناس .
– لا تصرخي في وجهي !
– لست اصرخ . متى ستكون اللافتات ؟
– قلت لك : حين سيكون التنك ستكون اللافتات .
– طيب . سأنقل هذا الى كبير المهندسين .
وفي تلك اللحظة بالضبط رن جرس الهاتف ، وكان المتكلم رومان غافريلوفيتش يدعو نينا اليه .
فمضت مسرعة في الممشى ، وقد اعتزمت ان تتحدث الآن عن ميتيا ، وعن امه ، وعن قسم التموين المتكاسل في صنع اللافتات ، وعن وضعها المزعج في ورشة البناء .
كان رومان غافريلوفيتش مشغولا بشيء ما .
فدعا نينا للجلوس ، وهو شارد الذهن ، وظل وقتا طويلا يقرأ في ورقة صغيرة ، مديرا في يده خاتما رسميا طولانيا . واذ انتهى من القراءة ، قال لها :

ـ سمعت انك قد انزلت احدهم من جديد من العمل في الاماكن العالية الى تحت . ليكن في علمك ، يا نينا فاسيليفنا ، ان العمل الجيد من قبل مهندسة تكنيـــك الوقايـــة ينبغي ان يساعد البنـــاة على زيادة التاجية العمل ... على الزيادة ، ـ وقد كرر قوله كأنما يطبع هذه الكلمة بخاتمه الرسمي .

فاعترضت نينا قائلة بانفعال :

ـ أعتقد إن الافضـــل ان ينزلـــوا من ان يسقطوا على الارض . اما فيما يتعلق بانتاجية العمل فان قولك صائب ، الا اني لم الق حتى الآن مساعدة من احد ولست ارى مساعدة منـــك ايضا . فكم مرة طلبت جمع العمـــال لالقـــاء حديث ، وطلبت صنع اللافتات ... وايضا ...

ـ وماذا ايضـــا ؟ ـ ســـأل كبير المهندسين وهو ينظر الى نينا بانتباه .

وترقرقت الدموع في عينيهـــا ، فادارت وجههـــا . فانسحب رومان غافريلوفيتش من وراء الطاولة واقبل عليهـــا . فاستدارت من جديد . فسألها :

– ثمة صعوبة ؟

كانت نينا واقفة في صمت ، مديرة ظهرها اليه . فاردف يقول لها :

– وليس عملي بالسهل ، يا نينا فاسيليفنا . ها انا قد حسبت هنا كيف تجري الامور بشأن هيكل العمارة . ثمة ارقام هزيلة . اننا في هذا اليوم متخلفون اسبوعا . طلبت من الرئاسة زيادة عدد عمال التركيب واللحامين على الكهرباء ، فتلقيت ورقة صغيرة يرفضون فيها طلبي . وفوق ذلك انت تخرجينهم من العمل كل يوم .

فتمتمت قائلة :

– لن اخرجهم .

– ولكن لا ، لست بهذا الصدد . لا تقللي انت من التطلب ... بلى ، واريد ان اقول لك ايضا اني لو كنت مكانك لكنت اكثر حذرا في المسير على العوارض .

– وانت ايضا تمشي عليها .

– وانا ايضا لا يجدر بي . فاذا رأيتني فاطرديني من هناك – قال رومان غافريلوفيتش

هذا ثم ختم قائلا بحدة :ـ واما انت فمحظور عليك المسير على العوارض .

فاشارت نينا برأسها موافقة ، غير قائلة شيئا ، وخرجت من المكتب .

*

كثيرا ما تأمل سكان موسكو وزوارها في السنوات الاخيرة العمارات العالية . انها مرئية من كثير من الشوارع ، مرئية نهارا ومساء وليلا . ولا شك ان جميع من كانوا ينظرون اليها في ساعة متأخرة من المساء ، حين تهدأ ضجة العمل وتجمد الرافعات ، واذ يبدو على العمارة الضخمة الرشيقة كأنما هي تستسلم للنوم على نغمات ابواق السيارات ، ـ لا شك ان الجميع كان يلفت انظارهم ضوء كهربائي مشتعل لوحده في احدى نوافذ الطابق الثامن او التاسع من دار لم يكتمل بناؤها . والى منتصف ارتفاع البناية فقط ترتفع جدران من الآجر غير مطلية بالملاط بعد ، ذات فراغات نوافذ قاتمة ، وفوق

الجدران يمتد الهيكل المعدني ، اما النافذة الصغيرة المزججة فتظل لوحدها تضيئ حتى ساعة متأخرة من الليل . فما هذا الضوء ؟ لعل مدير العمل قد نسي اطفاء المصباح وذهب الى بيته ، او لعل واحدا من العمال الخبراء قد بقي هناك لانهاء اعمال مستعجلة ، او لعل بنائين فارغي الصبر قد انهوا واحدة من الغرف التي لا عداد لها ، لكي يروا كيف ستكون البناية في المستقبل القريب ؟..

في احدى الامسيات كان يمكن رؤية مثل هذا النور في الطابق الثالث ايضا من العمارة التي كانت تشتغل فيها نينا كرافتسوفا . كان هذا النور مشتعلا في شقة عتيدة من غرفتين جهزتها منظمة الكومسومول موقتا لتكون ناديا . فمن عادة البنائين ان يعمدوا ، كأنهم اصحاب البيت ، لاستخدام المبنى غير المكتمل لحاجاتهم ، فاذا ما تمشى المرء في الطوابق الدنيا ، غالبا ما يلقى بين اكوام الآجر والانابيب ، او بين صناديق الملاط ، بابا جديدا كتب عليه «بوفيه» او «مكتب

القطاع الثالث» ؛ وهيهات ان يخطر لنزيل الفندق فيما بعد ان السواقين كانوا منذ وقت غير بعيد يشترون من غرفته الحليب والليمونادة ، او ان مدراء العمل كانوا يجرون فيها الاجتماعات الادارية العاجلة .

وفي ذلك المساء كان اعضاء الكومسومول مجتمعين في النادي لبحث مسألة تتعلق بالمباراة الاشتراكية . وكانت نينا قد جاءت قبل بداية الاجتماع بعشر دقائق وجلست في النادي . وما كان ثمة احد بعد . جاءت الفتاة ذات الاقراط النحاسية بقارورة ماء وغطاء طاولة وكأس ، وانصرفت . وبعد قسط من الوقت اخذ النادي يمتلئ . كان الشبان يأتون ثلاثا ورباعا ، الفتيان لوحدهم والفتيات لوحدهن ،مرحين صخابين ، ولكنهم ما ان يروا نينا حتى يأخذون يتكلمون باصوات اخفض ، ملقين عليها التحية من بعيد ، ويجلسون متنحين . ولقد تذكرت نينا ، في اسى ، كيف كانت ، لعام مضى ، تذهب الى اجتماعات الكومسومول في رهط من الصديقات ، وكان

الجميع من حولها اصدقاء ، والجميع يدعونها للجلوس قربهم .

وجاء ارسنتييف ، فوقف عند المدخل ، وتطلع الى ما حوله ، وحيا نينا بغير اكتراث ومضى الى الصف الاول . ومع ان النادي قد ازدحم ، فقد ظلت بضعة امكنة على يمين نينا ويسارها خالية . خلا ليدا روديونوفا ، فقد اندفعت الى امام وجلست قربها . فقالت نينا في نفسها مكتئبة : « بعد اسبوع ستتنحى عني هي ايضا . سيعلمونها . »

وسألتها ليدا وهي تحسن جلستها على المقعد الضيق :

— أأنت تسهرين على العمال ؟

— انا اسهر عليهم . وماذا ؟

— ولكن اين تشتغلين شغلا حقيقيا ؟

— كيف شغلا حقيقيا ؟

— ايوه ، كيف اقول لك ... ما هو شغلك ؟ اما في الهيكل ، او في معمل الخرسانة ، او في وضع الآجر .

فاجابت نينا مرتبكة بعض الشيء :

– اشتغل بتكنيك السلامة فقط . اسهر على ان لا تقع حوادث مؤسفة .

– يا له من عمل لديك ! – تمتمت ليدا بأسف وصمتت .

واقبلت على الطاولة امينة منظمة الكومسومول ، الفتاة الاوكرانية ، تلك نفسها التي تشتغل موجهة للاعمال ، وتتكلم بمكبر الصوت قائلة : «اكرر» ، وابتدأ الاجتماع . وجرى انتخاب مكتب الرئاسة سريعا ، فهرع اثنان من الشبان نحو الطاولة محاولا كل منهما شغل مكان الرئاسة والتهرب من وظيفة كتابة المحضر المملة . وتهامس مع الاوكرانية من اسعده الحظ ان يكون رئيسا واعلن ان ثمة ضيوفا يحضرون الاجتماع ، ممثلين للعمارة العالية المجاورة . وقد جاؤوا يدعون للتباري . فنهض الجميع واخذوا يصفقون ، واقبل على طاولة الرئاسة ، في ارتباك شديد ، شابان وفتاة . ووقف الشابان على جانبي الفتاة ، وقرأت الفتاة نص التعهد . وكان التعهد يحتوي على بضع مواد ، من بينها مواد عن نوعية العمل ، وكمية

مقترحات تحسين البناء ، وانجاز البرنامج بنسبة ١٢٠–١٣٠٪ .

وسأل الرئيس :

– هل من اسئلة ؟

فلعلع صوت ميتيا :

– نعم . كم يدفعون لكم مقابل لحم متر من السقف ؟

فاجابت الفتاة على السؤال .

– ومثل هذا المقدار عندنا . – قال ميتيا خائب الامل .

وسأل الرئيس من جديد :

– هل هناك اسئلة اخرى ؟ شرط ان تكون جوهرية فقط .

– كيف تجري عندكم الرقابة على الاعمال الليلية ؟ – سألت عاملة الرافعة ، وضحك الجميع لأمر ما .

– ليس هذا السؤال جوهريا . – قال الرئيس ثم اقترح بدء المناقشة .

فكان ارسنتييف اول المتكلمين . قال ان الدعوة للتباري يجب ان تقبل ، طبعا ، لا سيما

وان المادة المتعلقة باقتراحات تحسين البناء قد تم انجازها ، وعلى سبيل المنافسة للضيوف اقترح انجاز المعدل بنسبة ١٤٠٪ . فصفق له الجميع تصفيقا عاصفا ، باستثناء نينــا . وقد انتظرت حلول الصمت ثم خاطبت الرئيس قائلة :

— لديّ سؤال أوجهه الى ارسنتييف .

فالتفت الجميع نحوها .

— لماذا ، يا رفيق ارسنتييف ، عينـت رقم ١٤٠ لا ١٥٠ ، مثلا ، او ١٦٠ ؟

فضج اعضاء الكومسومول قائلين :

— وهل يمكن تنفيذ المئة والستين ؟ هيّن ، بالكلام فقط ، ان يقول المرء ١٦٠ ...

فاردفت نينا تقول :

— ايوه ، طيب . واذن فلم لا يكون الرقم ١١٠ ؟

وساد الاجتماع صمت يشوبه الارتباك .

فقالت نينا :

— اننا نقطع على انفسنا تعهدات طيبة ، ولا نفكر قط بــان العمود الاخير في الهيكل

ينبغي ، بموجب التصميم ، ان يتم نصبه خلال تسعة عشر يوما . ان علينا ، قبل ان نقطع على انفسنا عهدا بنسبة ال ١٤٠٪ هذه ، ان نحسب هل هي كافية لاتمام تركيب الهيكل في المهلة المحددة .

فسأل ارسنتييف بلهجة ساخرة :

ـ واذا كانت لا تكفي ؟

ـ اذا كانت لا تكفي ، فينبغي العمل على نحو احسن ايضا . فانت ، يا رفيق ارسنتييف ، قد اعلنت بتبجح ، انك تتعهد بانجاز المعدل بنسبة ١٤٠٪ . انت واثق بانك ستنجز المئة والاربعين ولهذا تتعهد . ولكن التعهد ينبغي ان يقطع لا من اجل اظهار اي بطل انت ، بل من اجل انهاء البناية في المهلة المعينة .

فصاحت عاملة الرافعة :

ـ هذا غير صحيح ! على الرئاسة ان تهتم بتزويد البناء بالقوة العاملة . واذ ذاك سننتهي في الوقت المحدد .

ونهضت الفتاة الاوكرانية فقالت :

ـ القوة العاملة كافية لدينـــا . ولو انكم

جميعاً اشتغلتم منذ البداية بكامل قوتكم ، لما كنا في حاجة الى ال ١٤٠ ٪ . وانا اعتقد ان نينا فاسيليفنا على حق فيما تقول . اذا كان الامر يحتاج الى ٢٠٠ ٪ ، فينبغي التعهد بـ ٢٠٠ ٪ . فما رأيك يا اندريه ؟

— يجب درس هذه المسألة .

— انك تجيب باسلوب دبلوماسي كانك في برلمان .

— وكيف لا ؟ انا لا اشتري الجرائد لكي الفّ بورقها التبغ للتدخين .

فقاطعته نينا قائلة :

— يستخلص من ذلك اننا سننجز التعهد ، اما العمارة فلا نكمل بناءها في المهلة المعينة . ليس هذا تعهداً ، بل ثرثرة ، يا رفيق ارسنتييف .

— ثرثرة ؟ — قال ارسنتييف هذا وهب من مكانه ومضى الى الطاولة . — اذن فافسحوا لي المجال للمزيد من الثرثرة . اذا ما تتبع المرء ، على اساس الوثائق ، عملنا خلال الاسبوعين الاخيرين لتبين له ان معدل عمل عمال التركيب

في الاماكن العالية قد انخفض . فما هي الاسباب التي ادت الى ذلك ؟ كان ثمة كثير من الاسباب ، ولكن الرئيسي منها ينحصر ، على ما اعتقد ، في انه قد اخذ يظهر في الآونة الاخيرة كثير الى حد الافراط من النزعة الانسانية فيما يتعلق بصحتنا ، كثير الى حد الافراط من الاهتمام القلبي ، من قبيل ما يجري في المصحات .

ولزم الجميع الصمت . وكانت لينا واقفة قـرب الجدار ممتقعة بعض الشيء . وتابع ارسنتييف كلامه :

– واذا نحن حسبنا كم مرة اضطر شباننا للركض نازلين الى تحت من جراء هذه النزعة الانسانية ، واذا نحن حسبنا كم نخسر من الوقت حين يوقف العمل لكل تافهة وننزل الى تحت من الطابق السادس عشر ، ثم نصعد بعد ذلك لفوق ، تكون النتيجة فقدان بضعة ايام عمل . اعتقد ان الامر هكذا : اذا كان لدى المرء موهبة للعمل في مصح فينبغي ان يشتغل في مصح . فهناك يمكن ان يراقب لكي لا يصعد احد على السطح . اما هنا ، فانهم يحضون على انجاز

البرنامج ، بينما هم انفسهم ... ولكن لا نفع في الكلام ! — وجلس ارسنتييف ، وختم قائلا وهو جالس : — هذا كل ما عندي .

وسمعت نينا صوتا واضحاً يقول :

— مهنة ضارة .

وضج الفتيـــان . وطلب ميتيــا الكـــلام . فأخذ يقول :

— حين نقلوني الى هنا من ذلك البيت كنت اشتغل هنا منذ البداية ، وهذه العضادات انا لحمتها . — قال هذا مشيراً الى السقف ، فأخذ الجميع ينظرون الى العضادات . — وفيما انـــا ذات مرة الحم وصلة اذا بي ارى عماً اشيب الشعر قادماً ، يحتذي كالوشاً . وقد دنا مني فسألني لدى اي مدير عمل اشتغل . فقلت له ، طبعاً . فكتب شيئاً ما في دفتره ومضى في طريقه . وبعد ثلاث ساعات نقلوني الى طابق آخر ؛ لم يكن النظـــام قد ضبط اذ ذاك بعد ، فكانوا ينقلوننا قرابة خمس مرات في اليوم . واشتغل في الطابق الآخر فارى العم اللابس الكالوش من جديد . وينظر اليّ فيسألني : « لدى اي مدير

عمل تشتغل ؟» . فاقول له ، طبعاً ، من جديد . وللمرة الثالثة ، قبل نهاية العمل ، اذ كنت الحم في الطابق الاول ، حدث الشيء نفسه : اقبل نحوي العم ذو الكالوش فسألني : «لدى اي مدير عمل تشتغل ؟» .

— اختصر — قال له الرئيس . — تكذب في قولك انه لم يعرفك للمرة الثالثة .

— اذا شئت فصدّق ، وإلا فلا . وانهيت عملي . فاقبل عليّ مدير العمل ايفان بافلوفيتش ، فقال : «كتب لي بسببكم ثلاث ملاحظات بشأن تكنيك السلامة . ثلاثة لحّامين كانوا يشتغلون اليوم باسلاك عارية . فيا لها من مصادفة غريبة» . ايوه ، يا له من مهندس بشؤون تكنيك السلامة ! — وتنهد ميتيا . — ما كان قط يخالط العمال ، بل ما كان يسأل عن الكنية ، بل كان ضغطه الرئيسي موجهاً الى الرؤساء . ولكن نينا فاسيليفنا لا تدرك وظيفتها تمام الادراك . وفي اعتقادي انها ستأخذ ذلك بعين الاعتبار .

فسأل الرئيس نينا :

– الديك ما تقولين ؟

– نعم ، عندي ما اقول .–قالت هذا ومضت من خلال صفوف المقاعد الى طاولة الرئاسة .

– بالاضافة الى ما سبق ان اقترحته ، ارجو ان يتضمن تعهدنا مادة عن التصفية الكاملة للاصابات في جميع القطاعات . وانا آخذ على عاتقي تنفيذ هذه المادة ...–قالت بصوت راعش ، وختمت كلامها قائلة ، وهي تنظر الى ارسنتييف :–هذا كل شيء .

*

كان اندريه وميتيا ، شأنهما في ذلك شأن معظم البنائين الشبان الآخرين العاملين في العمارات العالية ، يسكنان في مساكن عامة تبعد عن موسكو قرابة خمسة عشر كيلومترا . وكل يوم ، ما بين السابعة والعاشرة مساءً ، كانت تنطلق الى عربات القطارات الكهربائية الرحبة ، الواقفة في محطة كييف ، اسراب مرحة صاخبة من الفتيان والفتيات ، يحتشدون لدى النوافذ

غير مبالين باستنكار الذاهبين الى منازلهم الريفية ، ويزدحمون في الممرات ، ويشغلون اماكن للاصدقاء المتأخرين او يجلسون بدون اكتراث في اماكن محتجزة من قبل آخرين . كانت الفتيات يتخذن امكنة تجمعهن معاً ، فيخرجن شغل الصوف ، ويتهامسن بامورهن ، ويقرأن الرسائل بعضهن لبعض ، وكان من عادتهن انهن ما ان يقطعن نصف الطريق حتى يغفين ، مسندات رؤوسهن الى اكتاف صديقاتهن او جيران لا يعرفنهم . واما الفتيان فكانوا يملأون العربة بقهقهاتهم ، ويشاكسون الفتيات بنكات لاذعة ، وما ان يسمعون صوت البائعة تنادي : «بوظة ، الواحدة بروبل وخمسة وعشرين ، صلبة كالجليد ، حلوة كالعسل» حتى يشترون ست قطعات دفعة واحدة فيوزعونها بسخاء على الصديقات . وكان مراقبو القطارات يعرفون البنائين معرفة لا تحتمل الخطأ ، بناء على علامات مشهورة لديهم ، فلا يسألونهم عن بطاقات السفر ، وفي المحطة الاخيرة يوقظون الغافين . على ان كثيرين منهم لم يكونوا في حاجة

لهذا ، اذ كانوا يستيقظون بانفسهم قبيل وقت النزول بخمس دقائق ، كأنما بفعل رنة جرس ، فيصلحون على عجل وضع القبعات والشالات والتسريحات على رؤوسهم ، ويضعون في الحقائب ما كان في الايدي من شغل ، ويطوون اطراف الصفحات في الكتب على المكان الذي وصلت اليه القراءة ، ويتناولون لفائف التبغ من نوع «بيلومور» او «راكيتا» ، ويصطفون في الممشى واحداً اثر الآخر .

طال وقت الاجتماع المتعلق بالاتفاق على المباراة الاشتراكية ، فاضطر اعضاء الكومسومول للعودة الى مساكنهم على احد القطارات الليلية الاخيرة . كان الركاب قليلين . وفي الظلمة تسبح نوافذ مضاءة من بيوت غير مرئية ومصابيح المحطات في ضواحي موسكو . وكان ميتيا ضجراً من وحدته . واحس بشيء من الانزعاج فنهض من مكانه واتجه نحو المقعد المجاور ، حيث كان اندريه مغفياً وقبعته منزلة على عينيه . ومقابل اندريه ، كانت تجلس نيورا وبيدها غطاء صغير للمائدة تحوكه . وقد كان

ميتيا غالباً ما يرى نيورا في هذه العربة ، الثالثة من الاخير ، في هذا المكان بالذات ، وبيدها هذا الشغل نفسه . وجلس ميتيا قربها ، فسألها :

– هل ستنتهين من الحياكة في عام ١٩٥٤ ؟

فاجابت نيورا :

– سأنتهي اذا لم يعقني المتعطلون عن الحساب .

– المحادثة تعيقها ! لو اني اسحب الخيط ، ولكن المحادثة تزعجها ! هاك اسمعي كيف نشتغل نحن اللحامين على الكهرباء .

– ثمانية ، تسعة ، عشرة ... – ظلت نيورا توشوش .

وتابع ميتيا يقول :

– اول امس ، صباح السادس عشر ، كنت اعتزم لحم الزوايا فوق . فوضعت حزام الوقاية وربطت الحلقة بالسلسلة ، وكانت السلسلة ترنّ على خاصرتي كالسيف . واذا بي اسمع فجأة من ينادي : «يا رفيق ياكوفليف !» . فالتفت بكتفي اليمنى ، طبعاً . ونظرت فاذا

بـ «تكنيك السلامة» لابسة ثوب عمل جديد ، وجيوب مطرزة بخيوط بيضـاء ، كأنما هي تستعد لالتقاط صورة لها . فقلت في نفسي : «الآن ستبدأ بممارسـة عمل تهذيبي عليّ» . وهكذا كان ! فقد قالت : «عفوا ، يا رفيق ياكوفليف ، تعال الى هنا ، من فضلك» . اما هي نفسها فكانت واقفة على بعد يعادل ما بيننا وبين الباب . وقلت في نفسي : «الآن ستقوم بفحص النظارات» . وقد كان لديّ ، كأنما عن عمد ، زوجان من النظارات في جيبي : واحد لي والآخر لاندريه سرغييفيتش . وهكذا اسرعت مبتهجـاً لكون الفصل الذي تعتزم تمثيله لن ينجح ، وقـد ركضـت بحيـث عثرت رجلي بالسلسلة ، فوقعت قرب قدميها . ونهضت . فقالت : «ما رأيك في سبب هذا الذي حدث لك ، يا رفيق ياكوفليف ؟» فقلت لها : رجلاي قصيرتـان . وهذا عندي منذ الطفولة : البطن ينمو على نحو متناسب ، وكذلك اليدان ، اما الرجلان فلا تنموان . اغلب الظن ان هذا ناجم عن الحياة قعوداً» .

– ثمانية ، تسعة ، عشرة ، – ظلت نيورا توشوش .

– «كلا ، يا رفيق ياكوفليف – قالت «تكنيك السلامة» ، – هذا ناجم من انك لم تربط السلسلة بالحلقة حسبما تقضي التعليمات» . وهنا شرعت في القاء محاضرة زعمت فيها اني اذا صعدت هكذا الى فوق ، ومشيت على العوارض ، وعثرت بالسلسلة ، لهويت الى تحت ... وظلت تسوق الكلام ، وتتشدد ، واما الوقت فكان يمر ، والشغل في تلك الاثناء واقف . وظللت استمع اليها ، واستمع ، واما النهاية فلا وجود لها . ثم قلت لها : «ولكن ما لك قد لصقت بفرقتنا ؟ اتريدين ان نقدم جميعاً بيانا نقول فيه اننا لطلب عدم تحميل تكنيك السلامة المسؤولية عن وفاتنا ؟» . فصاحت : «رفيق ياكوفليف !» فوضعت السلسلة في الحلقة ، وركضت الى فوق ، مثل القرد . لماذا اقول هذا ؟ ايوه ! كنت تقولين غاضبة بان المحادثة تعيقك عن حساب الانشوطات ، ولكنهم هنا لا يفسحون لنا المجال

لانجاز البرنامج ، ويبقوننا في تحت ، ونحن لا نقول شيئاً ... هذا سبب كلامي !

فسألته نيورا :

ـ اعن نينا فاسيليفنا تتكلم ؟

ـ عنها . انها ، طبعاً ، ماتزال فتية ، لم يسبق لها ان اشتغلت في اي مكان . وها هي تتدرب بنا . لا شك ان لا احد يريد ان ينال الاجرة بدون عمل ... البعض يبنون ، والآخرون يخربون ، وغيرهم يعرقلون العمل . كل موكل بشيء . لقد اضرّت بنا كثيراً . من جهة ، البرنامج لم يتم انجازه ، ومن جهة اخرى ، ليست الاجرة بذات بال . اثناء القبض الاخير حصلت على ٣٦٣ روبلا فقط . وكل ذلك بسببها ... فكيف العمل معها ، الواقع اني لست ادري !..

ـ انكم تتجنبونها كأنما هي مصابة بمرض معدٍ . ولكن حاول ان تقيم صداقة معها ينته كل تكنيك السلامة بالنسبة لك .

ـ ما لك ، اتمزحين ؟

ـ ليس ثمـــة اي مزاح . يجدر بك ان

تدعوهـا بصورة مهذبة الى السينمـا او الى الرقص ... انكم هنا غلظاء الطباع جميعاً .

فقال ميتيا منزعجاً :

– كنت احسب انك ستقترحين امراً مـا عملياً . فهل تراها تذهب معي ؟ فانا ، اولا ، اشقر ، وثانيا قصير الساقين ، وقامتي اقصر من قامتها . واذا هي طلبت رقصة التانغو ، مثلاً ، فهل استطيع رقص التانغو يا ترى ؟

فقالت له نيورا :

– لا التانغو حتما . انما يجدر بك ان تحكي لها شيئاً ما . حين لا يكون ثمة موجب ، يضج الرأس من حديثك ضجيجاً .

– والحديث لا يجري بيني وبينها . فهي تنطق بكلمات لا تفهم الا بشق النفس . قالت اليوم في الاجتماع كلمة «تبجح» . فهل تعرفين انت ما هو «التبجح» .

فقال اندريه فجأة :

– التبجح هو ان يحسب الابله نفسه مفرطاً في الذكاء .

فقال ميتيا منتعشاً :

– هو ذا من ينبغي ان يعقد معها صداقة . حقاً ، يا اندريه سيرغييفيتش . انك لفتى طويل القامة ، تعرف معاني الكلمات ...

– اتقول هذا جاداً ؟ – سأل اندريه .

– جاداً ، بالطبع . نحن جميعاً ، يا اندريه سيرغييفيتش ، سنرجو منك .

– كف عن هذا الكلام ، – قال له اندريه مقاطعا ، واسدل قبعته على عينيه اكثر من ذي قبـــل .

على ان اندريه قد اضطر لتذكر حديث القطار بعد بضعة ايـــام ، حين نظمت نقابة الورشة زيارة يقوم بها الشبان للسيرك . لقد ذهب كثير من البنائين ، وحين اخذوا يجلسون في اماكنهم ، صادف ان جاء المكان الذي جلس فيه اندريه بجوار نينـــا . وكان واضحاً ان ميتيا قد قام بعمل تنظيمي كبير وقت توزيع البطاقات . وقال اندريه في نفسه : «لا بأس ، غداً ساكلمه !..»

وبدأ العرض . كان يجري في الحلبة قطيع من الخيل ، تقرع الارض الخشبية بقوائمها قرعاً

مدوّياً ، قاذفة نثارة الخشب على النظارة في الصف الاول . وكان قائد الاوركسترا يلــوح بقضيب صغير ، ناظراً الى تحت . واثناء الوقفات كان العازفون يقلبون الابواق وينفضون منهــا اللعاب .

وكان اندريه ينظر بذهن شــارد تارة الى الاوركسترا ، وطوراً الى الناس ذوي الملابس الرسمية ، وحينا الى رأس ميتيــا الاشقر ، الجالس بعيداً ، في الصف الثاني ، ويشم عبير العطر المنتشر من تينا ، ويلتزم الصمت . ولقد سألته هي قائلة :

– ما لك مكتئباً هكذا ؟

– ثمة ما يدعو للاكتئاب : اننا نفشل في البرنامج . وعسير الاعتياد على هذا . . . – اجاب محنقاً ، وصمت من جديد .

وخرج الى الحلبة شخص يلبس الفــراك ، فقال :

«فترة استراحــة» . فنهضت نينــا على الفور ومضت الى الممشى . وقال اندريه في نفسه : «الراجح انها ذاهبة نهائياً . ما كان يجدر بي

ان اكون بمثل هذه الفظاظة» . وبعد خمس دقائق جاء ميتيا فسأل متواقحاً : «ايوه ، كيف ؟» فاجابه اندريه : «بتاتا» ، فابتعد عنه ميتيا مبتسماً في خبث . ورن الجرس الاول ، ثم الثاني ، وما ظهر لنينا اثر . واخيراً ، قرع الجرس الثالث فظهرت نينا ممسكة بيديها صرة ورقية بيضاء . واذ وصلت الى مكانها ابتسمت فقالت :

— سنأكل من الكيس مباشرة . حسن ؟

وظهر في الصرة توت بري عليه مسحوق من السكر . فأكل اندريه بضع حبات ليظهر انه قد كف عن الغضب . وسألته نينا :

— انت ايضاً تسكن في المسكن العام ؟

— نعم .

— هل تدرس ؟

— في الصف الثاني بالمراسلة . عن قريب سيبدأ درس مقاومة المواد . يقولون انهـا اصعب مادة . وكل ما تبقى بسيط .

— حين كنت ادرس ، كان طلابنا يقولون : «من ادّى الامتحان في مقاومة الموّاد يكون قد اصبح في وسعه الزواج» . ومع انها قالت

هذا من غير ان تكون لديها اية فكرة مضمرة ، فقد شعر اندريه انهـا قد اصبحت فجأة في وضع حـرج ، وانقطع الحديث .وهكذا ظلا صامتين حتى نهاية العرض ، وما حدث غير ان تمتمت نينا قائلة وهي تنظر الى الرجال بلباس البحارة كيف يدورون على اراجيح مطلية بالنيكل : «طريف ، اتراهم هنا يفحصون غالبا الحبـال المعلقة ؟» ، واصبح اندريه يشعر بالرثاء لها .

وحين خرجا الى الشارع ، سأل اندريه :

– أفي وسعي ايصالك الى البيت ؟

وسارا في بولفار تسفيتنوي . وفيما كان اندريه ممسكا بساعدها شعر كم هي خفيفة وبدى له من المدهش كيف لا تعصف بها الريح من فوق العوارض الضيقة . وانعطفا صامتين نحو شارع سادوفايا . كانت السماء فوق الدور قاتمة لا نجوم فيها . وبالقرب من مبنى الوزارة الكبير ، وقد كان النور مشتعلا في جميع نوافذه ، كانت تقف الى جانب الرصيف سيارات «زيم» و «بوبيدا» اللامعة وكان السواقون المنتظرون رؤساءهم قد فتحوا اجهزة الراديو في السيارات ،

وفتحوا الابواب ، وهم يسمعون آخر الانباء ،
كانت نينا تسكن في زقاق غير بعيد عن ساحة مایاكوفسكي . وكان الزقاق مظلما ، فما كان ثمة غير مصابيح من التنك مشتعلة فوق البوابات ، مكتوبة عليها ارقام البيوت .

— ما هذا الصندوق المعلق ؟ — سألت نينا .

— هذا تلفون النوبة ، — اجاب اندريه . — في ايام السبت تجري حفلات هواة عندنا في المسكن العام . تعالي الينا .

— سآتي ذات مرة . ولكن لماذا تلفون النوبة ؟

كان اندريه يدرك انهما انما يتحادثان لمجرد ان ليس من المناسب السير صامتين طول الوقت ، وكانت نينا شاعرة بانه مدرك لهذا ، وكانا كلاهما يحسان بالارتباك .

كانت الدار التي تسكنها نينا قديمة ، من ثلاثة طوابق ، متناثرة الملاط . وفي الطابق الاول منها مغسل للملابس .

— متى يسير قطارك ؟ — سألت نينا .

فنظر اندريه الى الساعة .

– بعد ساعــة وعشرين دقيقة تقريبــا .
القطار الكهربائي ينطلق الآن على فترات متباعدة .
– اذن فادخل الى عندي . فما الداعي لان تجلس كل هذا الوقت في المحطة ؟
– ولكن أيمكن هذا ؟
– ما دمت تدعى ، فهو اذن ممكن – قالت بلهجة الواعظ .
وفي الغرفة التي دخلا اليها ، كان يشتعل مصبــاح وهاج ، تحت اباجــور ذي حواش زجاجية ، ينير طاولة مدورة معدة للعشاء . وعلى غطاء نظيف ، كانت موضوعة على نحو متناظر ثلاثة صحون بجانبها سكاكين وشوك على المساند . وفي الوسط وعاء زجاجي فيه تفاح . فقال اندريه في نفسه وقد رأى قرب كل صحن منشفة مطوقة بحلقة : «هاك كيف يعيش هؤلاء الناس» . وسمع صوت من الغرفة المجاورة يقول :
– أأنت لوحدك ، يا نينا ؟
– كلا ، عندي ضيف ، يا ماما .
وظهرت في الباب امرأة قصيرة القامة شائبة ،

فابتسمت وهي بعد لم تر اندريه ، واخذت تبحث عنه بعينين حسيرتين .

وقالت مبتهجة :

– اسمي ايرينا مكسيموفنا . أتريد ان تغسل يديك ؟ الآن سنشرب الشاي .

وعلى اثرها ظهر والد نينا ، فاسيلي ياكوفليفيتش ، وقد عاد لتوه من الشغل . انه رجل طويل القامة عبوس لا يثير دهشته شيء ، يرتدي قميصا منفتح الازرار ، يحمل شارات عمال السكك الحديدية . جلس الى المائدة ، فازاح الصحون والسكاكين والشوك بكوعيه ، فاخل فورا بالتناظر الجميل ، وسأل اندريه بلهجة قاطعة :

– أتشتغل معها ؟

«ظاهر ان لنينا فاسيليفنا ابا صارما . لو عرف ماذا تفعل عندنا ، لوبخها توبيخا شديدا» – هذا ما قال اندريه في نفسه ، ثم اجاب على حذر :

– اشتغل معها ، ولكن لا الى جانبها . انها رئيستنا .

– وكيف هي ؟ ذات فعالية ؟ – سأل فاسيلي ياكوفليفيتش من جديد كما لو ان نينا غير موجودة في الغرفة .

ونظرت نينا الى اندريه مضطربة .

– واية فعالية ! – اجاب اندريه مطمئنا اياها بنظرته . – يقولون عن امثالها عندنا في سيبيريا : لا تنطوي ، ولا تنكسر ...

فقال فاسيلي ياكوفليفيتش :

– الحمد لله ، فليس في هذا ما يخجل الاب .

ومن الغرفة المجاورة لاحظت ايرينا مكسيموفنا قائلة :

– كانت عندنا تدرس على الدوام دراسة جيدة .

– كفى ، يا امي ، – قالت نينا بصوت مغيظ ، ولاحظ اندريه بدهشة : ان في خلقها شيئاً من صلابة ابيها . – الدبلوم والانتاج شيئان مختلفان ... لماذا ذهبت من سيبيريا ، يا اندريه سرغييفيتش ؟

– كنت اريد ان ادرس ، ولكن جدتي لم تسمح لي . لم تسمح بشراء الكتب . كان يحدث

ان اشتري كتاباً ، فاضع عليه رقمـاً ، كمـا لو كنت استعرتـه من دار الكتب ، واذ ذاك يمشي الحال ... ولكنها حزرت هذا ايضاً فيما بعد فاحرقت جميع الكتب ، ومـا تركت غير «دليل اللحام الكهربائي» . تشاجرت معها ، فأخفيت الدراهم في بطانة الثياب ، واخذت من المطبخ قطعة خبز ، ومضيت الى موقف القطار .

– حسناً فعلت – قال فاسيلي ياكوفليفيتش، وهو يقطع تفاحة الى نصفين باصابع قوية .

– وجئت الى المحطة . لم يكن ثمة بطاقات سفر عادية الى موسكو . بل كانت هناك بطاقات لعربـات الدرجة الاولى فقط . ففككت بطانـة ملابسي ، ودفعت كل ما في حوزتي من دراهم ثمنا للبطاقة .

فقالت له نينا :

– ان لك لنفسية حازمة . لعلك مسرور بعملك في الاماكن العالية من البناية ؟

– نفسية كل انسـان توجهه الى عمله . ولماذا تجدين انت المصاعب ؟ لأن نفسيتك لا تتوافق مع عملنا كل التوافق .

– ومع ذلك تجدين المصاعب ؟ – قال فاسيلي ياكوفليفيتش مبتسماً في سخرية .

فقال اندريه مصححاً :

– يصادف ان يكون لديها ، كما لدى الآخرين ، نواقص . ولكن عملها اشد ارهاقاً من عملنا . ان لها لعملاً خاصاً تماماً . فمنذ مدة قريبة قطعنا على انفسنا عهداً بانجاز البرنامج ، فنحن مهتمون بالبرنامج ، اما هي فقد تعهدت بان لا نقع ولا مرة على المسامير . اناس مهتمون بالبرنامج ، وآخرون مهتمون بالمسامير .

– وكيف سافرت الى موسكو بدون دراهم ؟ – سألت نينا محاولة الابتعاد بالحديث عن الموضوع غير المستطاب .

– كما سبق ان قلت كانت معي قطعة من الخبز . وبعد ذلك ساعدني الركاب . استيقظت في الصباح فاصغيت ، فاذا بالجالسين على المقعدين السفليين يتحادثان : كان احدهما ومهمته تجنيد عمال للشغل ، يتشكى من مهنته . فنزلت الى تحت فاذا بي ارى كهلاً

جالساً يفتح باسنانه علبـــة كونسروة تحتوي على الكوسا المخللة . وفي المساء ، حين تناولت «دليل اللحام الكهربائي» ، ادرك على الفور اي طير وقع في فخه ، فاخذ يجتذبني الى مؤسسته . كان يعدني بجبال من ذهب . لم يكن يكتفي بتقديم الخبز ، بل كان يحمل الشاي لي بنفسه . وهكذا حتى موسكو . ولكني لم اذهب اليه . كان يبالغ كثيراً في امتداح مؤسسته . فقلت في نفسي : لا بد ان ثمة ما ليس على ما يرام . الخلاصة ، جئت الى موسكو ...

– تفضل اشرب الشاي ، – قالت ايرينـــا مكسيموفنا وهي داخلة الغرفة تحمل ابريق الشاي .

اذ ذاك فقط تذكر اندريه القطار ، فنظر الى ساعته وهب مسرعاً للذهاب .

وشيعته نينا الى الباب .

– لا يجوز الوداع عبر العتبة – قال اندريه .

– الامر سواء ، – قالت نينا ملوحة بيدها تعبيراً عن اللامبالاة ، – لن يكون ما هو اكثر سوءا .

وقال الدريه في نفسه : «ومع ذلك فحياتها صعبة وان تكن المناشف ملفوفة بحلقات» .
وقال لها وقد دخل من جديد الى الممشى :
– لا تفقدي توازنك ، فليس في هذا اية مصيبة . العمل الجيد كالحصان الاصيل ، لا يألف الفارس على الفور . الى اللقاء ! .. اما جماعتي الشبان فانا نفسي سأراقبهم .

واغلقت نينا الباب وراءه ووقفت في الممشى ، وفي نفسها دهشة مما الم بها فجأة من اسى ، وظلت واقفة الى ان توقف وقع خطواته على درجات السلم وانخبط الباب الخارجي الثقيل . وبعد ذلك دخلت غرفة الطعام وشرعت تتناول عشاءها ، وانتظرت ذهاب ابويها للنوم ، ثم جلست على طرف النافذة ، المكان المحبب اليها منذ طفولتها ، وراحت تفكر وهي تنظر الى السماء السوداء المزدانة بنجوم قليلة متباينة الالوان . كانت الغرفة في سكينة لا يشوبها غير خشخشة حواشي الاباجور الزجاجية حين تمر شاحنة في الشارع ، وغير تكتكة الساعة على الجدار

بصوت بطيء رصين . وكان الوقت يمر .
وبغية الترويح عن نفسها ، قررت نينا وضع
مشروع الامر الذي طلب رومان غافريلوفيتش
تقديمه له غدا . فجلست على طاولة صغيرة
للكتابة كانت في وقت مضى تكدّ عليها في حفظ
جدول الضرب ، وتبكي وهي تجهد نفسها لحل
مسائل الحساب فلا تصل الى الجواب ، وتقوم
بالمشاريع المدرسية ، فغمست الريشة في
دواة من القيشاني ، وشرعت تكتب :
«... اثناء جمع القشاش في الطابق الارضي
من القسم المركزي في البناية وقع حادث مؤسف
لرئيس فرقة الفعلة» ، وفكرت قليلا فادركت
فجأة سبب مزاجهاَ السيئ ، فقالت في نفسها :
«اكيد ان هذا ناجم عن كون ارسنتييف قد
اشفق عليّ ، وبدافع من هذا الاشفاق كذب
على ابي ، زاعما اني اشتغل جيدا . واما انا
فكنت ، بصمتي ، اؤيد هذا الكذب . وسوف
يظن الآن بأني لست سوى فتاة جبانة ...
وسيكون على صواب فيما يظن» . وشعرت
نينا باقتراب لحظة من لحظات اليأس ، اذ

تحس بان ليس في الدنيـــا شيء مستطـــاب .
وبصوت مسموع ، قالت لنفسها :
ـ وما شأني فيما سيظن بي ؟
ولكن نينا ادركت ، على الرغم من ان هذا قد قيل بكثير من الحزم والتصميم ، ان رأي الدريه فيها قد اصبح منذ اليوم بالنسبة لها اهم من رأي اصدقائها الطلبة السابقين ، ومن رأي رومـــان غافريلوفيتش ، بل ومـــن رأي ابيها .
وفيما هي ترسم ، باكتئاب ، مثلثات ودوائر على ورقة مشروع الامر ، راحـــت تقـــول في نفسها :
ـ لعلي سأذهب الى المسكـــن العـــام يوم السبت . طريف ان يعلم المرء ايـــة حفـــلات هواة لديهم ؟..

*

في تلك الغرفة من المسكن العام للرجال التي كان اندريه يسكن فيهـــا ، ظل الفتيـــان ساهرين وقتا طويلا بعد زيارتهم للسيرك .

كان ميتيا جالسا الى الطاولة يتعشى ، ويقطّع اللحم المقدد على جريدة . وعلى السرير ، قرب النافذة ، كان يستلقي عامل الكهرباء ، واضعا يديه تحت رأسه ، وهو ينظر باكتئاب الى السقف .

وقد قال ميتيا وهو يطلي اللحم والخبز بالخردل :

ـ كلا ، اقول لك ، هذا غير صحيح . فبعد السيرك ، اذا كنت تريد ان تعلم ، ظللت اتعقبهما مسافة حيين . كانا اول الامر يسيران منفردين ، ثم تناول ساعدها . فقالت له اذ ذاك بان يمشي على غير ذلك الجانب منها ، فانتقل الى الجانب الآخر ، وتناول ساعدها من جديد .

فسأله عامل الكهرباء قائلا :

ـ هل ستطفئ النور عما قريب ؟

ـ الآن سأتعشى ثم اطفئه . وهاك ملاحظة اخرى : لماذا لم يعد الى البيت حتى الآن ؟ أتظن انه يقوم بنوبته لوحده في شارع سادوفايا ؟

ها قد مضت الساعة الواحدة بعد نصف الليل ، وهو لم يعد بعد .

– ليس في هذا ما يدل على شيء – قال عامل الكهرباء . – اطفئ النور .

– سترى : سيكون النظام كاملا في العمل من جديد . فهي الآن ستوجه كل انتباهها الى اندريه سيرغييفيتش . أتراهن ؟

ولكن عامل الكهرباء تنهد واستدار صوب الجدار . وظل ميتيا جالسا بعض الوقت ، واخذ يفكر ، ثم جمع ما تبقى من اللحم والخبز ، والموسى ، وعلبة الخردل ، ولفها جميعا في صرة ، ووضعها في الخزانة . وبعد ذلك غسل يديه ، وخلع ملابسه ،ونظر الى اسنانه بانتباه في مرآة صغيرة ، وكان قد همّ بان يمد يده الى مفتاح الكهرباء ليطفئ النور ، الا انه سمع وقع خطوات في الممشى ، فارتمى على السرير .

ودخل اندريه الغرفة بهدوء وجلس يشرب الشاي . ما كان يمكن فهم شي من ملامحه . وظل ميتيا بضع دقائق يتظاهر بالنوم ، ولكنه

اذ لم يعد يطيق اصطبارا نهض على كوعـه ، فسأل :

– ايوه ، كيف الحـال يـا اندريـه سيرغييفيتش ؟

– اذا ما نطقت ولو بكلمة عن نينـا فاسيليفنا ، – قال اندريه متأتيا في لفظه ، – فسألقي بك عن السرير ... والغرفـة ينبغـي ترتيبها . لعلنا نشتري اباجورا ... سيأتينـا ناس ... عيب .

ومن جديد سأل عامل الكهرباء :

– هل ستطفئان النور عما قريب ؟

– خلّ الرجل يشرب الشاي ، – قال ميتيا مدافعا عن اندريه ، ثم اضاف بصوت خافت وهو يلف نفسه باللحاف : – قلت لك ان كل شيء على ما يرام ...

*

كانت المباراة بين شغيلة الاعالي في البنايتين العاليتين تجذب انتباه البنائين اكثر فاكثر .

وذات مرة ، ابصرت نينا ، وهي ذاهبـة

الى المكتب ، اناسا متجمعين قرب لوحة الانجازات في العمل . فسألت :

– ما هذا الاجتماع ؟

فاجابتها ليدا :

– ننتظر ان يعلنوا النسبة المئوية لانجاز البرنامج يوم الامس . ان مكتبكم يشتغل بكثير من الهدوء ، يا نينا فاسيليفنا .

فقالت نينا هذا لكبير المهندسين ، ومنذ اليوم الثاني اخذت الفتاة الاوكرانية تذيع نشرة الاعمال التي تم انجازها ، فيما يتعلق ببنايتهم اول الامر ، ثم فيما يتعلق بالبناية التي كان اعضاء الكومسومول يتبارون معها . ووقت اذاعة هذه النشرات كان يتقاطر الناس الى مكبرات الصوت ، اما السواقون فكانوا يوقفون عربات النقل القلاّبة ويفتحون ابوابها . وتنظر نينا من فوق الى ساحة الورشة المعمارية ، فتقول مبتسمة : «كأن ثمة اذاعة عن مباراة بكرة القدم» .

كان تركيب هيكل البناية يزداد كل يوم سرعة ، وقد قال رومان غافريلوفيتش لنينا

بشيء من السرّية انه قد ظهرت امكانية بلوغ النقطة اللازمة قبل يوم من المهلة المعينة في البرنامج .

وبالفعل تصاعد الهيكل كثيرا خلال إسبوع ، ولم يعد لدى البنائين من شك في ان الاعمال سيتم انجازها في الوقت المعين . واصبح الامر الآن ينحصر في احراز قصب السبق على شباب الكومسومول في البناية المجاورة فيما يتعلق برفع معدل الانتاج والبراعة .

كان ارسنتييف واصدقاؤه يجيئون الى العمل صباحا بمزاج ممتاز ، وكانت عدوى هذا المزاج تنتقل الى نيورا وليدا ، اللتين وضعهما رئيس القطاع الثالث تحت تصرف اللحامين على الكهرباء ، فتقومان سريعا بفحص الاسلاك ، وتركضان الى المحولات الكهربائية ، وتعلنان اذ تدخلان البوفيه ان ارسنتييف يحتاج الى شراب بارد ، فيسمح لهما باخذ ذلك دون انتظار الدور .

لم تتحقق تخوفات نينا بشأن موقف ارسنتييف منها . فهو ، بالعكس ، قد اصبح

بعد زيارة السيرك اشد اهتماما بها ، وبات يتكلم معهـا من غير ان يكون في كلامـه ظل لسخريته ، وكان اشد ما ابهج نينـا انـه لم ينس وعده لهـا بالسهر على تقيد رفاقـه الفتيـان بمتطلبـات تكنيك السلامة . وذات مرة ، فيما كانت نينا سائرة على المداميك ، سمعته يؤنب ميتيا لسلم التركيب المعطل . وبدلا من الذهاب للمجيء بسلّم آخر ، عاند ميتيا واخذ يبرهن على ان هذا السلّم ايضـا حسن . فتوقفت نينا جانبا واخذت ترقب نتيجة ذلك . لم يطل ارسنتييف الجدل ، انما قال : «صعب عليك الذهاب للمجيء بالسلّم ، انما انا نفسي سآتيك به» . وانصرف . فتعقبه ميتيا المرتبك بنظراته ، وتمتم قائلا باستكانة فلسفية :

— معنى ذلك ان ليس هو الذي اصبح ذا سلطة على تكنيك السلامة ، بل هي التي اصبحت ذات سلطة عليه . بات الامر اسوأ مما كان . انهما معا سيضغطان علينا كل الضغط ، — ونظر

الى نيورا ، فاضاف قائلا :ـ آه منكن ، يا مستشارات !..

فاعترضت نيورا قائلة :

ـ لا تتهم الآخرين ، فانت الذي وزعت البطاقات في السيرك .

ـ ولكن من الذي اشار بذلك ؟ هل نسيت ما كنت تقولين في القطار ؟ ليتك اشتغلت بالحياكة والتزمت الصمت ...

ـ يمكن ان يقال لك الكثير !..

ومع ان نينا لم تدرك ما تعني الكلمات عن البطاقات والمستشارات ، فقد ازداد لديها الشعور بالعرفان لارسنتييف ، وحين جاء اليها بعد بضعة ايام ومعه نشرة الاحوال الجوية تنبىء بهبوب رياح شديدة فالتمس العمل بحيث لا يتوقف شغيلة الاعالي ، اجابته قائلة :

ـ سنفعل ذلك ، يا اندريه سيرغييفيتش . حتما سنفعل ذلك !

على ان قول هذا كان ايسر بكثير من القيام فعلا بشيء ما . فبموجب التعليمات ينبغي ان تتوقف الرافعات حين تكون الرياح من الدرجة

السادسة ، فلا يبقى ثمة ما تنقل به الاعمدة والعوارض الى فوق . ولقد فكرت نينا طويلا فيما ينبغي عمله ، فقالت بان يذهب اللحامون والمركبون الى العمل كالمعتـــاد . وفي اليـــوم التالي هبت الرياح فعلا ، واوقف تركيب الهيكل في العمــارة العالية المجاورة وسمح للمركبين بالذهاب الى بيوتهم . ولكن نينا اتصلت هاتفيا بدائرة الاحوال الجوية فعرفت ان قوة الرياح لم تبلغ بعد الدرجة الرابعة ، فسمحت لشغيلة الاعالي بالعمل منبهة اياهم الى وجوب النزول الى تحت فور اعلانها عن ذلك بمكبر الصوت .

وطول اليوم ، بعد كل خمـــس دقائــق ، كانت نينــا تتصل هاتفيــا بخبراء الاحوال الجوية ، وتم تركيب عدة اعمدة وعوارض برغم اضطــرار المركبين للنزول الى تحــت مرتين . وفي المساء اعلن الشكر لنينا في منشأة البناء بموجب امر صادر ، واقبل عليها المركبون يقدمون لها التهانئ الواحد اثر الآخر . وجاء ارسنتييف ايضا للتهنئة . فقال لها مبتسما : «حسن طبعــا ان يقدم الشكر . ولكن الامــر

الرئيسي هو اننا قد لحقنـا بهم تقريبـا » ، واشار برأسه الى العمارة المرئية من بعيد . « وما هو الا يوم واحد من العمل العادي حتى نكون نحن قد سبقناهم » .

وقد شعرت نينا انه وهو يقول « نحن » انما كان هذه المرة يعنيها هي ايضا ، ولعل تلك كانت هي المرة الاولى التي احست فيهـا بالفرح والاستبشار خلال مدة عملها في ورشة البناء .

*

وفي الطريق الى البيت ، تذكرت نينا ان اليوم يوم سبت ، وان حفلة للهواة ستقام هذا اليوم في المسكن العام للبنائين ، فابطأت خطاها . ثم اجتازت الطريق واتجهت الى محطة السكة الحديدية ، مبررة قرارهـا المفاجىء بضرورة التحادث مع الفتيات اللواتي يشتغلن مع عمال التركيب .

ما كانت نينا تعرف اين مسكن الفتيات ، ولكنها ما ان بارحت القطار حتى التقت بليدا فطلبت منها ان توصلها الى نيورا .

كانت الغرفة التـــي تسكنهـــا نيورا تتميز بالناقة تكاد تكون خارقة . وقـــد كانت ثمـــة اربعة اسرة مرتبة في مختلف الزوايا ، متراصة حول الجدران : سرير نيورا مزين بوسائـــد صغيرة ذات اغطية مطرّزة وبستائر من الدنتلا على مسنديه . وعلى سرير آخر فرشت بعناية ، ولكن ببساطة تكاد تكون بساطـــة الجنـــود ، بطانية مقدمـــة من الادارة ، وعلى الوســـادة منشفة مطوية بشكل مغلف . وعلى الجدار ، قرب السرير الثالث ، المغطى بشرشف نظيف بدلا من البطانية ، علقت سجادة صغيرة عليها صور دببة صغار واما الرابع ، المغطى بلحاف عريض سميك ، مخيّط من مثلثات مختلفة الالوان ، فكانت تزدحم على الجدار القريـــب منه كثرة من الصور الفوتوغرافية تكاد تصل العليا منها الى السقف ، فكان من غير الممكـــن تمييز ما فيها . وكانت نيورا جالسة على مقعد خشبي تشتغل ، شأنها في القطار ، بحياكتهـــا التي لا تنتهي . فسألتها نينا :

– انت الآن تشتغلين مع اللحامين ، يـا نيورا ؟

– نعم . انا اشتغل ، وليدا هذه ايضا .

– اسمعن ، يا بنات . لقد اخذ الفتيان يشتغلون باندفاع شديد منذ ان اخذوا يلحقون بالبرنامج . وكان هذا ملحوظا ، اليوم ، بصورة خاصة . فاذا رأيتن اللحامين لا يربطون انفسهم بالسلاسل او يشتغلون بدون حزام الامان ، فابلغنني على الفور ... وليبق هذا سرا بيننا ، حسن ؟

فقالت نيورا :

– ياكوفليف لا يسمع سواء أقيل له ام لم يقل ! عبثا !

فسألت نينا وقد عراها ارتباك بالكاد يلحظ :

– ومن التي تشتغل مع ارسنتييف ؟

– انــا اشتغل مع ارسنتييف ، – اجابـت ليدا . – ولكنه يربط نفسه بالسلسلة دائما . وما لك تهتمين بنا هذا الاهتمام ؟ الواقع اني لا ادري ... ما شأنك انت بذلك ؟ ..

– هل تهتمين بالامر اذا وقعت نيورا من فوق ؟

– ولكن نيورا صديقتي !

– حين ستشتغلين هنا شهرا او اثنين سيصبح كثيرون اصدقاء لك وصديقات ...
ما هذا ؟ – سألت نينا فجأة في رعب .

– اين ؟ ها – ها ، اتراك لا تعرفين ؟ مصاصة . عندنا طفل .

– اي طفل ؟

ورفعت نيورا الغطاء ، فرأت نينا بين جانبين رأسيين لسريرين متجاورين طفلا نائما على وسادة من ريش ناعم .

– ابن من ؟

– ابننا ، – اوضحت نيورا وقد استأنفت الحياكة . – من غرفتنا . ولدته ماروسيا ، وسترجع الآن من الشغل . لقد نظمت لدينا من اجل هؤلاء «غرفة للامهات والاطفال» . ولكننا قررنا عدم تسليمه لها . لقد ولد عندنا ، وسنقوم نحن بتربيته . في البيت

دائما واحدة منا نحن الاربع ... انتبهي انت ، يا ليدا ، في علاقاتك مع الفتيـان . اذهبـي للنزهة ، تسلـّي ، ولكن لا تفلتي زمامك .

– يكفي ! آن وقت الذهـاب الى الحفلـة الساهرة .

– انتظـري ، الآن ستأتـي ماروسيـا .
– قالت نيورا هذا وهي تنظر الى ملابس ليدا نظرة انتقادية ، وسألتهـا :– هل تعتزمين الذهاب هكذا الى السهرة ؟

– هكذا . ولماذا ؟

– شالك قاتم جداً ...

واذ ذاك دخلت الغرفة فتاة نحيفة في الثامنة عشرة من العمر تقريبـا . وكانت هي بالذات عاملة الرافعة التي اوصلت البلاطتين الى الطابق السادس عشر لكي تتمكن نينـا من الوصـول الى السلّم . وقد مضت رأساً الى الطفل دون ان تلقي التحية على احد ، وانحنـت عليـه فسألت :

– أما يزال يسعل ؟

– لا ، لقد تحسن بعض الشيء ، – اجابت

نيورا . ـ نحن الآن ذاهبات الى الحفلة الساهرة . فهل يمكن استعارة شالك ؟

ـ خذيه ـ اجابت ماروسيا . ـ انا انتهيت من النزهات ...

وجلست على السرير واخذت ترضع الطفل ، وهي تنظر من النافذة الى رأس شجرة وحيدة . واما نيورا فقد راحت تدندن باغنية وقد تأهبت للمباهج المقبلة ، وغيرت ملابسها وبدأت ترش وجهها بالمساحيق .

ـ وهل يجيء ابوه لعندكم ؟ ـ سألت لينا .

ـ لا لزوم لجر الاب بحبل . سنربيه بدونه ، ـ اجابت ماروسيا ، وهي ما تزال تنظر الى النافذة . ـ قلن هناك بان يقللوا من الخبط .

ـ لو كنت مكانك لقلعت عينيه ! ـ قالت ليدا بعد ان فكرت قليلاً .

ـ ولماذا كل هذا ؟ لقد نسيت حبي ، ـ قالت ماروسيا معترضة ، وهي تتسمع الى الضجة المرحة المنبعثة من النادي .

– لسنا بحاجة اليه ، – اضافت نيورا .
– سنربيه بدونه . لقد ساعد اندريه سيرغييفيتش على ابقائهما عندنا ...
– ارسنتييف ساعد ؟ – سألت نينا مندهشة .
فقالت نيورا بصوت هادئ مطمئن :
– اي نعم ، انه منتخب لمجلس شؤون الاعاشة . كنا بحاجة لقماطات فذهب الى مدير التموين فقال : «لقد ظهر عندكم ساكن خامس ، فخصص له كالجميع كل ما يحتاج اليه من الاشياء» . فاعطونا شراشف لنجعل منها قماطات ...
وفجأة ازداد وضوح صوت الهارمونيا وانفجارات الضحك . اغلب الظن انهم فتحوا جميع النوافذ في النادي .
فقالت ليدا لماروسيا :
– يجب ان تذهبي فتشرحي صدرك . اعطيني الطفل ، وانا سأهدهد له .
وقرع الباب . ودخل ارسنتييف . فقال اذ رأى ليدا :

ـ هنا انت . هيا بنا الى السهرة . ايــة عنزات ترقص هناك . لا يشتهي المرء رؤيتها . هيا اريهم رقصتنــا الوطنية «بودغورنايــا» . وانت هنا ، يا نينا فاسيليفنــا . هيــا بنا جميعاً !

وعقب ارسنتييف وليدا ، دخلــت نينــا غرفة رحبة ، خانقة الجو رغم كون نوافذها مفتوحة . فقد كان النــاس كثيرين . ومضى ارسنتييف بليدا الى امام ، حيث كانت فتاتان تغنيان وترقصان على انغام الهارمونيا . وقال ارسنتييف وقد وضع يــده على الهارمونيــا :

ـ هيا ، اعزف رقصة البودغورنايا .

فسأل العازف :

ـ وما هذه البودغورنايا ؟

ـ غنيّ له ، يا ليدا .

فجلست ليدا قرب العازف واخذت تغني له على مقربة من اذنه ، واخذ هو يصغي ويحرك الهارمونيا بأناة .

وعاد ارسنتييف الى نينــا ، وقال بحزم للفتيان الجالسين على المقعد :

– افسحوا مكانا للجلوس . أما تبصرون ؟

فجلست نينا . ووقف ارسنتييف من خلفها .

وتعلم العازف اللحن غير المعقد ، فاسند خده على الهارمونيا ، ونهضت ليدا متأنية ، وكأنما هي قد سحرته ، ووقفت تحرك كتفيها وتزداد رشاقة كل لحظة . وانتظرت بداية الايقاع وتحركت ، الا انها غلطت في حركتها ، فهزت رأسها بانزعاج ، وانتظرت من جديد العزف المؤذن ببدء الرقص ، واخيراً توثبت بخفة ، وراحت تقرع الارض بضربات مألوفة ، ودون ان يقلقها ماذا ستفعل بعد ، اخذت تصلح وضع شالها ، ورياح الموسيقى المنطلقة في سياقها الموزون تطير بها وتمر بها سابحة من امام الناس والطاولات والجدران والجرائد واللافتات .

ومع ان ارسنتييف كان واقفاً خلف نينا ، ومع انها لم تلتفت اليه ولا مرة واحدة ، فقد كانت تحس دقيق الاحساس كم كان مأخوذاً بالرقص والموسيقى ، وكيف كانت نظرته تتعقب ليدا باستكانة ، فتسرب الى روجها ما

يشبه الغيرة ، وودت لو تتعب ليدا لكي تنتهي بسرعة هذه الرقصة التي لا نهاية لها .

ولكن يدي ليدا ، وقد باتتا غير خاضعتين لها ، بل لسلطة الرقصة الوطنية ، كانتا تنبسطان ثم تنضمان على صدرها ، واما رجلاها فتطيران مسوقتين بالموسيقى ، فما تلامسان الارض الا لتقرعا عليها ، وشفتاها تهمسان للعازف «اسرع !» ، بل لقد كان فستانها ، وقد تجمع في ثنايا طيارة ، يبدو كأنما يرقص من تلقاء نفسه .

وضرب العازف النغمة الاخيرة بعنف ، فارتبكت ليدا فجأة ، كأنما هي قد احست بجمالها للمرة الاولى ، وهرعت الى الباب .

فقال ارسنتييف بلهجة يخيل لمن يسمعها انه قد كان هو الراقص :

– هاك ، هي ذي رقصتنا الوطنية «بودغورنايا» ، يا نينا فاسيليفنا . حلوة ؟

– لا بأس ، الا ان فيها بعض الرتابة – اجابت نينا ، وقالت في نفسها باكتئاب : «كيف خطر لي ان اجيء الى هنا ؟ !.»

ولكن حين اوصلها ارسنتييف ، فيما بعد ، الى المحطة ، تعدل مزاجها ، فقالت في نفسها مبتسمة ، وهي جالسة في عربة القطار : «أتراني في غيرة ؟ يا للحماقة !»

*

وبعد بضعة ايام وقعت مصيبة : ذلك ان الخبير الطوبوغرافي قد حكم بعدم صلاح تسعة اعمدة ، كانت قد نصبت وقت هبوب الرياح بصورة غير شاقولية تماما . ومع ان هذا كان يمكن توقعه في حـــال الاستعجال التي كانت الاعمال تجري فيها خلال الايام الاخيرة ، فقد قلق الجميع ، وضجوا ، واخذوا يبحثون عمن يقع عليهم الذنب . ما كان يجوز الاستمرار في العمل قبل تصليح الاعمدة . وقد جمع ارسنتييف الفتيات بعد العمل ، فامر بالمجيء غدا في وقت ابكر ، والتاكد من ان الاسلاك معلقة في كل مكان ، وغير ملقية على المداميك . وختم كلامه قائلا : «غدا نلحق . وسنلحق مهما كلف الامر» .

وصباح اليوم التالي كانت الشمس شديدة الحرارة . فكان متوقعا ان يكون النهار خانقا وحارا . وكانت ليدا ونيورا في مقدمة من جاؤوا الى الورشة ، فقامتا بعملهما ، وجلستا قرب السلّم ، في فسحة الطابق الثـاني والعشرين ، بانتظار اللحامين .

وظهر ارسنتييف عابس الوجه ، تبدو عليه سيماء التصميم . فسأل ليدا :

– هل تستطيعين الصفير ؟

– كلا . ولماذا ؟

– اذن خذي هذا المفتاح . ومتى رأيت نينا فاسيليفنـا قادمة من تحت فاقرعي بالمفتاح على عمود .

– ولماذا هذا ؟

– ما دام قد قيل لك اقرعي ، فاقرعي . مفهوم ؟

– مفهوم . هذا عمل سهل . – اجابت ليدا . كانت جالسة في الفسحة تفكر وترقب كيف تطقطق الشرارات الكهربائيـة الزرقـاء قرب ارسنتييف .

حين اقبلت ليدا للمرة الاولى على البناية العالية خيّل لها ان امثال هذه الدار لا يستطيع بناءها غير عمالقة اشداء حكماء لا مثيل لهم . وقد كاد يدخل في ذهنها مدخل اليقين انه قد وقع خطأ في ارسالها الى هنا ، ولسوف ينقلونها الى مكان آخر بعد اسبوع لا اكثر . ولكنها ما ان اشتغلت قليلا حتى رأت اناسا مثلها ، بسطاء عاديين ، وفتيات مثيلات لها ، بل رأت مَنْ ابناء بلدها . فانشرحت نفسها ، وكانت في بعض الاحيـان تتجول في الطوابق وقت الاستراحـة للغداء ، فتسأل ميتيا الى اين تمتد الانابيب ، ولماذا رسموا هيكلا عظميـا على باب مركز المحولات الكهربائية .

لقد رأت كثيراً من الماكنات غير المعروفة لديها : مضخة للخرسانة ذات مقابض كمقابض القاطرة ، تضخ الخرسانة ، الى فوق حتى الطابق السابع في انابيب سميكة . وحين كانت هذه المضخة تشتغل ، كان البلاط الخشبي من حولها يرتعد كأن ثمة اعصاراً يهب . ورأت عربات معلقة ، محملة بمواد البناء . وكانت العربات

تحلق فوق رأسها طائرة الى اعماق البناية دون ان تلامس الاسلاك الكهربائية ، كانما قد وهبت القوة والعقل .

وذات مــرة ، رأت ليدا في الطابق الثامن حجرة من القضبان الحديدية المشبكة ، اشبه بحجرة المصعد الكهربائي . فما دنت منها حتى انفتح بابها ، وامتدت من داخلها يدان جديديتان فوضعتا بتأنٍ وعــاء مملوءاً بالآجر . وعلى الدواليب الصغيرة المائلة مضى الوعاء مباشرة الى الشغيلــة وتوقف على الارض . وارتدّت اليدان الحديديتان الى الحجرة ، فاستقرتا هناك وترامتــا الى مكان مــا تحت محدثتين صفيرا خفيفاً . فسألت ليدا :

— لأي شيء هذا ؟

— هذا مصعد ، — اجاب البنّـاء . — لا تتجولي هنــا . اذا هو ضغط على رجلك ، ستعرفين . لعلك لم تقعي بعد في يــد مهندســة تكنيك السلامة .

فهرعت ليدا الى تحت ، وتسلقت على السلّم الحديدي الى فسحــة كانت توجد فيهــا لوحة

تشغيل المصعد . كانت تشتعل لمبات صغيرة على اللوحة مقابل الارقام الدالة على الطابق الذي تطلب اليه مواد البنـاء ، وثمة امرأة متيقظة الانتباه قليلة الكلام ، تأمر بتحميل المصعد ، وتضغط على الزر ، فيصعد الوعاء الحامل للآجر الى فوق . فسألت ليدا :

– هو نفسه يقف حيث ينبغي ؟

فاجابت المرأة :

– طبعا يقف . تعالي الى هنا . فمن حولك اسلاك عاليـة التوتر . اصطبري لتراك نينـا فاسيليفنا ، فتنهال على رأسك توبيخـا حتى لتجعلك تنسين اسمك ...

في كل مكان كانت ليدا تسمع الكلام عن نينا فاسيليفنا . وقد كان الكلام مختلفا ، ولكنه في الاغلب ساخر او مغضب . وشيئـاً فشيئاً اقتنعت ليدا بان نينا فاسيليفنا قليلة الجدوى للورشة المعمارية ، وانها جد مشاكسة ، وغالباً مـا توقف الناس عن عملهم لاسباب تافهة . فكانت تقول في نفسهـا : «على ان الامر غير المفهوم مبعث هذا الاحترام الذي يبديه لهـا

اندريه» . وفجأة سمعت من فوقها صوتاً يقول لها «مرحباً !» ، فرفعت رأسها ، فرأت نينا . وبصورة آلية تناولت ليدا المفتاح ، ولكن الوقت كان قد فات . فقد قالت لها نينا :

– نسيت مـــا طلبت منك . هاك انظري . ارسنتييف يشتغل بدون حزام الامان . اهذا مضبوط ؟

– غير مضبوط ولكنه لم يسمح لي بالكلام .

– يعني انك تطيعينه اكثر مما تطيعينني ؟

فاجابت ليدا بلهجة قاطعة :

– وهل ترى عليّ ان اطيع الجميع ؟

فنظرت اليها نينا ، فلم تجب بشيء ، واتجهت نحو ارسنتييف . فما لاحظها الا حين رفع الترس عن وجهه لكي يبدل القطب الكهربائي وفي الحال القى نظرة غاضبة على ليدا . فسألت نينا :

– لماذا تشتغل بدون حزام من جديد ، يا اندريه سيرغيييفيتش ؟

– الجو حار ، – اجاب اندريه – لا يمكن قط العمل بالحزام . فلبسه اسوأ من لبس الفروة .

ـ في هذه الحال ، عليك ان تتوقف عن العمل .

ـ ماذا تقولين يا نينا فاسيليفنا ! فانت تدركين ان علينا ان نعوض اليوم ما فات بالامس .

ـ اني ادرك هذا جيداً . ولكن ينبغي لبس الحزام يا اندريه ... ترى هل ينبغي اقناعك انت ؟

ـ طيب ، سالبس . سأنزل الى هذه الشرفة ، والبس الحزام . انه معلق هناك . ـ وعدها ارسنتييف بلهجة مسالمة .

ـ كلا ، بل البس الآن ، ـ قالت نينا ، ولكنه كان قد انزل الترس على وجهه وبدأ يلحم . ـ ماذا ، اتريد ان تتخاصم معي ؟

ومشت اليه نينا على العارضة وجرت حامل القطب الكهربائي . فرفع ارسنتييف الترس بحدّة وقال بلهجة منذرة :

ـ حذار ان تسقطي ... فالمكان هنا لن يسقف قريبا ...

وانطلق ميتيا يضحك فوق . فقالت نينا مغتاظة :
انظر ، صديقك ايضاً بدون حزام . ليدا ، اذهبي لتحت وقولي لهم بان يقطعوا التيار الكهربائي .
فالقت ليدا على ارسنتيييف نظرة متسائلة . فقال لها وقد اسدل عينيه :
— لا تذهبي .
— ولكني آمرها بالذهاب ، — كررت نينا وقد شحب وجهها .
فقال ارسنتيييف دون ان يرفع عينيه ايضاً :
— لا تستطيعين ان تأمريها . انها تابعة لي .
وادركت نينا ان ما يجري الآن يمكن ان يؤدي الى انهيار الصداقة التي قامت بعد جهد ومشقة ، وقد ينهار الى الابد ما هو اهم لديها ، وكان قد انبعث وهي بعد لا تجسر على تصديقه . ولكنها كررت ببرودة وهي تضغط بيدها على دفترها المهترئ :
— اذهبي ، يا ليدا .

ومن جديد نظـرت ليدا الى ارسنتييف ، فالتقت عيناها بنظرته الجامدة ، فاجابت بصوت خافت ، ولكن بحزم :

ــ لن اذهب .

ولكن نيورا ، وقد كانت تراقب هذا الحوار بهلع ، تنهدت وقالت :

ــ لا ينبغي الجدل ، يا شباب . انا ساذهب .

وعـادت نينـا الى الفسحة وتوقفت وهي تدعك الدفتر بعصبية . وكانت ليدا تقول في نفسهـا ، وهي تنظر اليها : «فلتحاول قطع التيار» . ومضت عشر دقائق ، فانطفأت جميع انوار اجهزة اللحام . فالقى ارسنتييف بحامل الاقطاب الكهربائية ، ورفع الترس عن وجهه ، ومن غير ان ينظـر الى نينـا ، سأل بصوت مغتاظ ، دون ان يكون معروفا لمن يوجه السؤال :

ــ ايوه ، وماذا سنفعل بها ؟

ــ في السنة الماضية ، ــ شرع ميتيا يقول ، ــ وضعوا حارساً جديدا على بوابة ذلك البيت . وفي اليوم التالي ، لم تنجز السيارات المهمة .

وقد تبين ان هذا الحارس كان في كل مرة يطلب من السواقين اوراق هويتهم ويتحقق منها . كان يقول : «ايوه ، يــا فلان ، هــات نرى بطاقتك . ايوه ، لا تبحث عنها هنا ، في المرة الماضية كانت موضوعة في جيبك الايسر» . لم يكن ثمة اساس ايضا لتأنيبه . فقد كان يعمل حسب التعليمات . ولكن النتيجة كانت ضرراً للشغل ...

فقالت نينا :

— انا ، يا رفيق ياكوفليف ، مكلفة بالسهر على سلامة الناس .

فصاح ارسنتييف قائلا :

— لم يكتب في اي مكان ان السهر على سلامة الناس يجري بحيث يلحق الضرر بالشغل .

— السهر على سلامة الناس لا يمكن ابداً ان يضر بالشغل .

— انه يضر . الا ترين ؟

وصعد الى الفسحة رومان غافريلوفيتش ، فمسح العرق عن جبينه ، وسأل بصوت متقطع :

— من قطع التيار ؟

- قطعته هي ، - قال ارسنتييف مشيرا برأسه الى نينا ، متعمدا عدم ذكر اسمها . - رآني جالسا بدون حزام التركيب ، فقطعت التيار .

فصححت نينا كلامه قائلة :

- لم تكن جالسا ، بل كنت تشتغل .

- البس الحزام حالا ، وانت ايضا يا ياكوفليف ، - قال كبير المهندسين بلهجة صارمة واخذ يهبط السلم ، ولكنه توقف على الدرجة الثانية ، واضاف : - اما انت ، يا نينا فاسيليفنا ، فارجو ان تأتي لعندي حين يتسع لك الوقت ، - وما كان في صوته ما ينبئ بالخير .

عادت نينا الى البيت متهدمة كليا . كانت الغرف قائمة قاعدة . فقد كان ابوها يتأهب للسفر بمهمة ويجمع امتعته .

ما كان يستطيع ايجاد شيء في خزانة الملابس ، فهو غاضب على زوجته ، التي كانت تدور في المخازن منذ ما بعد الغداء . وقد حاولت

نينا مساعدته ، الا ان الامتعة كانت تسقط من يديها ، وحين اخذت تعد الكلسات ، وجدتها في البداية سبعا ، ثم تسعة . فسألها ابوها :

– ما لك ، اانت مريضة ؟

– كلا ، يا بابا ، انما هو مجرد تعب . ليت المهندس الدائـم بتكنيك السلامة يعود سريعا ! فلم اعد استطيع .

– الامر فوق طاقتك ؟

فجلست نينا الى الطاولة واسندت ذقنها الى كفيها ، وقالت بعد قليل من الصمت ، غير ناظرة الى ابيها :

– نعم ، فوق طاقتي ، يا بابا .

فاكتفى بان لاحظ قائلا :

– هي ذي شهادة الدبلوم التي حصلت عليها مع الامتياز ! ..

ولكن كلماته هذه كانت اثقل عليها من اثقل عقاب . فقالت في نفسها وهي تمسح دموعها :

«بالتأكيد ! ساشتغل منذ الغد مثلما كان يشتغل المهندس السابق . ساقدم ملاحظـات لمدراء العمل ورؤسـاء القطاعـات فقط .

وليتخذوا هم انفسهم التدابير . وفي الحقيقة ، اي شأن لي مع ديميتريييف ، ومع امه ، ومع ارسنتيييف ؟.. وما مبعث هذا القلق لدي على اناس غرباء ، بعيدين عني تماما ؟ شد ما انا بحاجة لهذا ! ..»

وفي الصباح كانت في نفرة شديدة من مغادرة سريرها . ولكنها تغلبت على نفسها وذهبت على مضض الى الشغل . وكعهده دائما ، استقبلها الشيخ في البوابة وحياها من غير ان يطلب ابراز بطاقة المرور . ولقد تذكرت نينا ، وهي تبتسم ابتسامة مريرة ، مدى ما كانت تشعر به من فراغ صبر ومن فرح حين كانت تمر من هذه البوابة في الايام الاولى ، وكيف كانت تعتزم ان تثير الدهشة لدى رئيس ورشة البناء بما لديها من معارف وما تتصف به من حيوية ونشاط . وضحكت ضحكة حزينــة مقتضبة ، قائلــة في نفسها : «بل لقد استأت ، انا الحمقاء ، من طلبهم بطاقة المرور» . كان ميتيا يقف متكدرا قرب لوحة معدلات العمل . وعلى خلاف عادته لم يلق التحية على نينا ، بل خفض قبعته على

عينيه ومضى صوب السلم . فقد كان مسجلا في خانة يوم امس رقم ثنائي . وقالت نينا في نفسها : «لم ينجزوا حتى ١٠٠٪ . لقد خسروا المباراة . خسروها تماما» . وعلى جري عادتها ، قررت الصعود فورا الى فوق والتحقق من وضع الشغيلة وخلف الاعمدة في القاعـــة الكبيرة من الطابق الثاني ، كان ثمة ناس يتحادثون . وسمعت نينا صوت عامل الكهرباء يقول :

– اكيد ان الرئاسة مسؤولة . لو انها كانت قد اشتغلت في مكان ما ، لكان في الوسع القاء المسؤولية عليها . ولكنها جاءت الى هنا من مقاعد الدراسة فورا . لا لوم عليها ... لو انها اشتغلت اول الامر بمعاونة وكيل .

وحزرت نينا ان الحديث يتناولها ، فاحست فجأة باللامبالاة حيال كل ما يحيط بها ، فانكفأت وعادت ادراجها ، قاطعة على نفسها عهدا بان لا تخرج اليوم من مكتبها حتي نهاية العمل .

كان النهار اشد من الامس حرارة وخنقـــا للانفاس . وكان الغبار الدقيق الحار عالقا بلا حراك في الجو اللاهب . والفتيـــات بفساتينهن

وشالاتهن ، يتبادلن رش الماء ، بعضهن على بعض من انابيب اطفاء الحريق ، من الرأس حتى القدم . وفي السيارات كانت الابواق تزعق بصوت اجش ، وكثير من السواقين يسيرون بسياراتهم رافعين الغطاء عن محركاتها . ومن جراء هذا الحر النادر بالنسبة لموسكو باتت نينا اكثر لامبالاة بكل شيء ، بل وعديمة الحساسية بعض الشيء . وحين نظر اليها آخابكين ، دون ان يلقي التحية عليها هو ايضا ، اعتبرت انها تستحق ذلك ، فلم يعترها الغم .

كان الجلوس خلف طاولة الكتابة الفارغة مضجرا وسخيفا . وقد سألت نينا لمجرد عدم القعود بدون شغل :

— متى ستكون اللافتات الاخرى ؟

فاجابها آخابكين دون ان ينقطع عن النظر الى الفواتير :

— لن تكون اللافتات الاخرى .

فقالت نينا بدون مبالاة :

لن تكون ، ولا لزوم لها .

وانفتح الباب ، ودخلت ليدا المكتب مسرعة . كان وجهها مبتلا بالدموع . فصاحت :

– نينـــا فاسيليفنـــا ! عجلي ، يـــا نينا فاسيليفنا !

– ماذا حدث ؟

– هيا بسرعة ... يا نينا فاسيليفنا ... اندريه معلق !

– كيف معلق ؟! ..

– هكذا ... انفلت وعلق بالسلسلة ... وليس يدري احد منا ما العمل ...

فانطلقت نينـــا من المكتب مسرعة ، وقد اوقعت كرسيها . كان العمال يتفرقون في مختلف الجهـــات من الزاوية البعيدة في البناية وهـــم يتحادثون باصوات عالية ويلوحون بايديهم . وسيـــارة الاسعـــاف البيضـــاء ، ذات الستائر الحريرية ، الغريبة المنظر وسط الشاحنات القلابات ، وخلاطات الخرسانة والاوعية ، تجري مطلقة نفيرها العنيد ، مترنحة فوق الحفر . واسرعت نينا نحو السلّم وهي تسمع ليدا تبكي من خلفها بصوت عال ، على طريقة اهل القرى .

وفي تلك اللحظة ، انطلق الى جانبها صوت ميتيا يقول :

– لا تركضي ، يا نينا فاسيليفنا . كل شيء على ما يرام . انه ، اذا كنت تريدين ان تعرفي ، قد اصبح في القسم الصحي ...

كان العمال محتشدين قرب القسم الصحي ، وهم يتطلعون من النوافذ . وسمحت لنينا بالدخول ممرضة شائبة مبتلة اليدين .

وبالقرب من النافذة المفتوحة كان اندريه الشاحب الوجه مستلقيا على السرير ، وقد لف بشرشف مبتل بالماء . قالت الممرضة :

– انها ضربة شمس . اصيب بحرارة تجاوزت الحد المحتمل .

فانحبست انفاس نينا ، فترامت على الكرسي ، وكاد ترامیها ان يكون سقوطا . ودخل طبيب الاسعاف فنظر الى الغرفة والى نينا بعينين ذكيتين ، وسألِ الممرضة مبتسما ابتسامة ساخرة : «من المصاب هنا ؟ هو ام هي ؟» ومن غير ان ينتظر جوابا ، جلس قرب اندريه واخذ يجس نبضه .

وقال للممرضة منبها :

– وقاية العمل عندكم ضعيفة . في مثل هذا القيظ ينبغي السهر على ان يشتغل العمال وعلى رؤوسهم القبعات ... بعد نصف ساعة سيكون سليما معافى .

قال الطبيب كلماته الاخيرة موجها اياها ، لامر ما ، الى نينا ، ثم ودع الممرضة وانصرف .
ونصحت الممرضة نينا ، قائلة لها بلطف :

– اذهبي للاستراحة ، يا نينا فاسيليفنا . انظري ، لقد انخطف لون وجهك .

فانتعشت نينا ، وقالت :

– اية راحة هنا ! ينبغي على الفور التحقق من الوضع فوق ، كيف هو ...

وانطلقت مسرعة من القسم الصحي ، شاعرة بقوة الفتوة السابقة تنتعش في جسدها ، واخذت تصعد السلم الى فوق ، غير مستريحة في الفسحات وهمست قائلة لنفسها بانفعال : «الآن سارغمهم جميعا على ان يعملوا كما ينبغي . وليؤنبني رومان غافريلوفيتش لنفسه ، ليسخر المركبون مني ، فلن اتراجع ولا خطوة

عن مطالبي !.. ليس السهر على سلامة الناس بالعمل اليسير ولا البسيط . ولسوف يفهم ارسنتييف هذا ذات يوم ... وقد لايفهمه ... اما انا فلن اتراجع مع ذلك !» وهكذا ظلت تصعد راكضة ، دفعة واحدة ، بدون توقف ، حتى الطابق العشرين . وهناك فقط ، في الطابق العشرين ، استردت وعيها وتوقفت ، فسمعت شهيقا وراء ظهرها . فقد كانت ليدا تصعد وراءها .

– اويّ ، كم تسرعين ، – قالت ليدا ، – الحق ، لا يمكن اللحاق بك ... شكرا ، يا نينا فاسيليفنا !..

– على ماذا ؟

– على اندريه ! – قالت ليدا هذا ، فعانقتها واخفت على كتفها وجهها المغمور بالدمع .

«ايوه ، كنت اعرف هذا !» – قالت نينا في نفسها متعبة ، وهي تربت على ظهر ليدا ، وتحس بالضعف السابق واللامبالاة يستوليان عليها . وراحت ليدا تقول مستعجلة :

– كنت اخشاه اول الامر ، وارفض الذهاب معه الى اي مكان ... كان فتياتنا يخفنني . اما امس فقلت في نفسي وقد بت لا اطيق الاصطبار : « ليكن ما يكون ! » ، وذهبت معه الى السينما . فيا له من فتى طيب ... طيب جدا . الواقع اني لا اعرف له مثيلا ! ..
– واجهشت للبكاء من جديد ، والقت رأسها على كتف نينا .

كان يسيطر على نينا شعور بالعداء يصحبه شيء من حنان الامومة نحو هذه الفتاة ، فوقفت تنتظر في رعب ايًا من هذين الشعورين سيتغلب على الآخر ، ممسكة بالدرابزين ، ناظرة الى الفضاء بعينين محملقتين . واخذ الشعور بالعداء يشتد ، ولكن السلم الحديدي شرع اذ ذاك يرن ، وصعد ميتيا الى الفسحة فصاح :

– عاد ذلك المهندس ، يا نينا فاسيليفنا !

فسألت غير فاهمة ما يقول :

– اي مهندس ؟

– ذلك الذي كان يعالج في المستشفى .

— ايوه ، لقد انتهى عذابي اخيرا ! — قالت هذا الا انها شعرت اذ ذاك ان هذه الكلمات غير صادرة عن وعي منها .

— ايوه ، لقد انتهى عذابي ، — كررت بنبرات واضحة . — وفي الوسع الآن اختيار عمل معماري حقيقي . — وادركت والدهشة تستولي عليها انها لا تستطيع الشعور باية فرحة من هذا النبأ الذي طالما انتظرته . وتحرك في قلبها القلق على مصائر ميتيا واندريه ونيورا وليدا ، وما كان في وسعها ان تتصور كيف يمكن ايكال امر هؤلاء الناس غير المطواعين الى شخص آخر . فقالت مستاءة من نفسها : «ايوه ، كم يوماانتظرت ، اما الآن فلست مسرورة بذلك ! ليست هنا روضة اطفال ، يانينا فاسيليفنا» .

— مالك تفكرين ؟ — سألت ليدا .

— لا شيء ، لا شيء ، يا ليدا . سيكون علي الانتقال الى عمل آخر ، فاسهري عليهم ...

— ستتركيننا ؟

— كلا . انما جاء المهندس السابق في

تكنيك السلامة ، الذي شغلت مكانه موقتا .
انه رجل كهل ، ذو خبرة وتجربة . فما هو
مثلي ... من مقاعد الدراسة رأسا ... ولكن
هيهات ان يصعد الى هنا . ولذلك فاني ارجوك
بان تسهري بنفسك على الشبان . ان يشتغلوا
في الايام الحارة وعلى رؤوسهم القبعات .
واسهري على نفسك . فلا يجوز الاستناد على
الدرابزين على هذا النحو . ولا يجوز الدوس
على الاسلاك الكهربائية . فقد يحدث كل
شيء ...

ومسحت نينا وجهها المبتل بدموع ليدا ،
ونزلت الى مكتب الادارة .

كان يجلس وراء طاولة الكتابة شيخ عبوس
يرتدي كمين اضافيين اسودين من نسيج
الساتان . ووضع الكأس الصغيرة التي تحتوي
على الازهار على حافة النافذة . وكان الشيخ
يتصفح اضبارة الاوامر الصادرة في غيابه .
ورفع الى نينا عينين فاتحتي اللون ، واخذ
ينظر اليها نظرة متفحصة شاملة ، وبعد ذلك

فقط نهض عن كرسيه بجهد ، فحياها وقدم نفسه . ثم قال :

– ولكن هذه الاوامــر موضوعــة في غير اضبارتها ، يا نينا فاسيليفنا .

كانت نينا ، وهي ذاهبة الى مكتب الادارة ، معتزمة التحدث اليه عن تعقيدات الوضــع في ورشة البناء ، وعن ضرورة تعيين مفتشين من الشغيلة في القطاعات ، وكان في نيتها ان تقترح اسماء المرشحين لهذا التفتيش ، وان تتحدث عن ادوات العمل غير السليمــة ، وعن نقص اللافتات ، ولكنهــا ، بدلا من ذلك ، قالت على نحو مفاجئ لها :

– يؤسفني ترك هذا العمل ...

– ولكن ، تفضلي ، لاتتركيه ! – قال الشيخ منشرح الصدر . – اذا كنت ستتمكنين من اقناع الرئيس فلسوف اكون مدينــا لك الى ما لا نهاية . ان عنده ، منذ وقت بعيد ، طلبين مني بالانتقال الى القسم التكنيكي .

وذهبا الى الرئيس ، ولكن السكرتيرة الفتية قالت انه قد ذهب لحضور اجتماع ولن يرجع

الا بعد الساعة الثامنة مساء . فتلفنت نينـا الى البيت تطلب عدم انتظارهـا على الغداء ، وظلت في ورشة البناء اثناء النوبة الثانية .

كان العمال يواصلون اعمال التركيب على ضوء البروجيكتورات .

وقد نبهت نينا العامل على المذياع لدعوتها فور عودة الرئيس ، وصعدت الى فوق ، الى فسحة الطابق الثاني والعشرين . كانت تقول في نفسها وهي تصعد الدرجات الرنانة : «هل سيبقونني في هذا العمل ام لا ؟ اذا مـا اخذ الرئيس يعترض فسأذكره بان لم يقع في عهدي اي حادث مؤسف حقيقي . اما اذا قال ان الشكاوى ترد عليّ ، وان اعمال التركيب قد تباطأت بسببي فهذا غير صحيح ، وروما‌ن غافريلوفيتش نفسه كان يأمر بعدم التساهل في المطالب ... وقد يقول الرئيس اني قليلة الخبرة ، ولكني ساجيبه باني قد تعلمت الكثير في هذه المدة وتعرفت الى البنائين ، فبتّ اعرف طباعهم ،وان الامر سيكون في المستقبل اسهل بكثير عليّ ... وبعد ذلك سأقول انهم اذا ما

نقلوني الى عمل آخر ، فلسوف اظل مع ذلك مهتمة بشغيلة الاعالي ، قلقة عليهم ... »

وفجأة استولت الدهشة على نينا : ما الداعي لتهالكها على عمل سبب لها كل هذا القدر من المنغصات ، على عمل عكر عليها حتى حبها . وقالت في نفسها وهي تصعد الى اعلى مكان : « لعل من الخير ان يكون كل هذا قد انتهى ؟ »

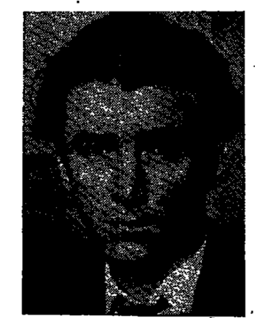
كانت موسكو الليل مرئية جيدا من هناك .

انوار صغيرة وكبيرة ترتعش في كل مكان حتى نهاية الافق . فكان يخيل للرائي ان نجوم السماء قد هبطت الى الارض . واخذت نينا تمعن النظر ، فميّزت برج ساحة بوشكين ، وابراج محطات القطر الحديدية ، وشهب الشرارات المنطلقة من قضبان الترامويات ، ومجرّة حديقة غوركي ، والنجوم الحمراء في رؤوس البنايات العالية ، وياقوت نجوم الكرملين . وبعيدا ، خلف الافق ، كان يتصاعد وهج زرقاوي من اضواء اخرى ، حتى لقد

كان يبدو ان لا نهاية لهذه السمـــاء الارضية الرائعة .

وقد كانت نينا ، وهي تتأمل نوافذ البيوت التي لا عداد لها كيف تبرق بانوارها بريقـــا لطيفا كانها صغريـــات النجوم ، تتمثـــل هذه المدينة باكملها ، والمقاعد القائمة على اطراف البقع المفروشة بالحشائش الخضراء في حديقة غوركي ، والاعلانات السينمائيـــة في ساحـــة بوشكين وقد كتب عليهـــا «نحن ننـــادي بالسلام» ، والعمارات العالية الرشيقة ، التي باتت مفروشة بالسجاد والاثاث ، كانت تتمثل المدينة الحانية على ابنائها والمضيافة ، فتدرك ان لم ينتـــه شيء وان احلى شيء في حياتهـــا انما هو في بدايته ليس الا .

فيكتور كونيتسكي



فيكتور كونيتسكي ــ مولود سنة ١٩٢٩، مؤلف القصة المنشورة هنا . هو من حيث المهنة بحار ، ملاح . وهو يكتب عن رفاقه البحارة ، عما رآه بنفسه ، عما يعرفه جيداً ، عمـا عانـاه واحس به . وقصص كونيتسكي تظهر في الصحافة بانتظام . وتتمتع بشهرة خاصة لدى القراء قصصه «مهمات الغد» و «واذا دعا الرفيق» وحكاية عن عامل الراديو كاموشكين» وقصة «في الطريق الى المرسى» .

في الطريق الى المرسى

((لا مكافـأة بدون انقاذ)) (من كتاب «الحقوق البحرية»)

١

كان على متن السفينة «داغو» اربعة متطوعين : روسوماخـا ، رئيس النوتيـة في

سفينة الانقاذ «كولا» ، وملاحان للدفـة ، وملاح للمحركات .

وكانت «داغو» تترنح على الامواج وتغمس انفها في الماء لدى كل شدة من الحبل الحديدي الذي يجرها . وكانت اضلاعها المتجعدة مغلفة بصفائح صدئة . وفي عنابرها يبقبق ماء كريه الرائحة .

في نهاية الحرب اصيبت «داغو» بقنبلـة في قسم المحركات . وقد تم انقاذ البحـارة ، واما السفينة المحطمة فقد قذف بها البحر الى شاطئ جزيرة «الارض الجديدة» المقفر .

ومرت فصول شتـاء كثيرة ، فغمرت اعاصيرها الثلجية «داغو» بالكتل الثلجية ، وكانت الدببة الفضولية تتسـلق الى مهاجـع البحارة . وغرزت السنون صدر السفينة الحاد الثقيل عميقاً في ارض الشاطئ الحصويـة . وبذل الناس الكثير من الجهد الى ان تم لهـم انتشـال «داغو» من اليابسـة ، وسدوا الثغرات ، ولحموا الشقوق في صفائـح جسم السفينة . وانها الآن لتتجرجر مقطورة بسفينة

الانقاذ «كولا» ، متمهلة في مسيرها وراءها لكي تحط في مرساها الاخير في مورمانسك ، ومن هناك لن تبحر الى اي مكان : فالقاطعة الغازية ستعمل تقطيعـا بالمعدن ، وستحمل كسارات «داغو» الى عربات السكة الحديدية ، وفيما بعد يعاد صهرهـا ، وتكون لهـا ولادة جديدة في النار . من اجل هذا كان يجهد الناس ، وهم يرفعون السفينة من اليابسة ، ومن اجل هذا كانوا يسيرون بها فى بحر بارنتز المضطرب في الخريف المتأخر .

كانت «داغو» تتمايل وتعاند في مسيرهـا كالعجل الجموح يجر الى السوق ، ولكن الحبل الفولاذي كان يمسك بها امساكاً شديـداً من منخريهـا وهمـا فتحتـا سلاسل المرساتين المصنوعتين من الحديد الصب .

وكان روسوماخا ، الذي ارادت له الاقدار ان يكون على متن «داغو» من قبيل القبطان ، جالسـاً على برميل من خشب ، كان من قبل يحتوي على مخلل الملفوف ، في قمرة المؤخرة قرب النافذة السليمة الوحيدة . وكان رئيس

النوتية قد سمّر البرميل بنفسه على جسر السفينة ، وكان على يقين من ان هذا المقعد مؤمن له حتى مورمانسك ، مهما تقلب الطقس .

كانت القمرة باردة ، رطبة ، غير مريحة .

ومن حين لآخر كان روسوماخا ينفث دخان لفافة التبغ في عبه ويتطلع اليه كيف سينطلق بعد ذلك من اكمامه . لم يكن الدخان يزيده دفئاً ، ولكن هذه العملية كانت تنطوي على ما يشيع الطمأنينة في النفس . كان روسوماخا في الرحلة الاخيرة بكاملها في حالة نفسية خارقة للعادة ومضطربة . فقد كان ينتظر اللقاء مع ابنه . ولقد مضت عليه ثلاثة شهور وهو يحلم بهذا اللقاء ، ويتصور كيف سيجلسان احدهما مقابل الآخر الى طاولة مشرب للبيرة ، فيصب لابنه ولنفسه . ومن حولهما ، وسط دخان لفائف التبغ ، سيضج الناس ويتشاتمون ، واما هو وابنه فسيكونان منعزلين كلياً وسط هؤلاء الناس ، لأنهما اب وابن .

سيدور بينهما حوار صعب . فثمة امور كثيرة لا بد من ايضاحها وتفسيرها . ولكن ،

لا بأس ، لسوف يجد الكلمات الصادقة .
سيقول ان ماريا لن تكون بعد مضطرة الى الشغل ابداً . حتى الموت . اما اذا مات هو قبلها ، فلسوف تحصل على راتب تقاعدي جيد . فما كان عبثا ركوبه متن البحار اربعين عاماً .سوف يعطون من بعده راتباً تقاعديا حسناً .

سيقطب الابن وجهه . وقد يروح يضرب اباه الضلّيل بالصمت او بكلمات ثقال ، مبعثها السخط والمرارة . واذ ذاك ، سيستمع روسوماخا باصطبار ، وهو الذي لم يسمح لأحد قط بان يوجه اليه مثل هذه الكلمات الثقال ، ذلك لأنه يحب ابنه وان يكن لم يسبق له قط ان رآه . وبعد ذلك سيعرض بصمت راحتيه اللتين انكشط جلدهما الوف المرات على المجاذيف الخشنة ، وتمزقتا بحبال الشراع ، واحترقتا بكلور الكالسيوم الذي تنظف به مراحيض السفن . وسيروي قصة حياته ببساطة . سيحكي كيف مات ابوه ، الصياد من سكان بحر الابيض ،

وقد جرته الشبكة تحت الماء . وكيف حدث له ، هو زوسكا روسوماخا ، ان ركب متن البحر للمرة الاولى ، وقد كان في التاسعة من عمره : فقد اخذه قبطان سويدي كان يتجول بمركبه الشراعي على بلدات ساحل بحر الابيض ، مشتريا الاسماك من سكانها . وكيف اصبح زوسكا يشتغل «بأكله وشربه» ، دون اجرة ، بوصفه «زويك» ، وهو ادنى درجة من اصغر البحارة ، واكثر منهم حرماناً من الحقوق ، مهمته القيام بالخدمات لجميع البحارة . ولدى هبوب العاصفة الاولى اصيب زوسكا بدوار البحر . شعر بالزعاج شديد ، فتقيأ على طرف السفينة المواجه للرياح ، ووسخ الارض . ما كان يعرف بعد على اي طرف يمكن التقيؤ ، وقد كان الامر سواءً لديه في تلك الحال : فقد كان على يقين من انه سيموت .

امسك القبطان بزوسكا من تلابيبه بيد ملوثة بالقطران ، وجره الى مقدمة السفينة ، وقذف به على العضادة الرأسية المتطايرة الى

السماء . لقد دفع بالغلام الى نهايتها حيث لم يكن غير زبد البحر المتلاطم والرياح الجليدية القاسية . وراح زوسكا يترنح ويدور على نفسه وسط المياه المعربدة الخضراء ، متشبثا بالخشب الزلج . وكان يصرخ صراخاً شديداً ويقرقر عاضاً باسنانه على سلالم الشراع ، الا انه لم يقع في البحر ، ونسي كلياً انه مصاب بالدوار ، وانه يوشك ان يموت . وفوق رأس زوسكا ، كانت الاشرعة الامامية المبللة تتخبط وتتلاطم محدثة صوتاً كانه رنين الحديد .

وحين سمحوا لزوسكا بالعودة الى متن السفينة ، جمع قواه وعض سروال القبطان المشمع وفخذه ، وكان جزاؤه على ذلك ان ضرب ضرباً فظيعاً والقي به في صندوق الحبال ، وقضى يوماً كاملاً مستلقياً على حبال المراسي المتدحرجة .

وبلهجة غير خالية من الاحترام ، بل بشيء من الاعجاب بزوسكا ، اخذ البحارة يقولون :

— اوه ، يا للوحش الصغير !

وقال القبطان متضاحكاً :

– سيصبح بحارا حقيقيا . اوه ، يا روسوماخا !

وبعد ذلك لم يتقيأ زوسكا قط ، ولم يعد يخشى البحر ولا الاعاصير . ففيما هو منطرح في صندوق الحبال متهدما مبتلاً وحيداً ، وضع حصيلة اول مغامرة بحرية له . وادرك نهائياً والى الابد ان في وسع المرء التغلب على البحر اذا هو صمد الى النهاية وما فكر بشيء خلا هذا «الصمود» . ادرك ان عليه ان يصبح قوياً معافى لكي يثأر من كل من يسخر منه الآن اذ هو صغير وضعيف ...

حدث كل هذا في عام ١٩١٨ ، وما عاد الى وطنه آلا في نهاية الثلاثينات ، بعد ان كان قد نسي نصف اللغة الروسية ، وكان قد جاب معظم بحار العالم على سفن سويدية وبلجيكية وبريطانية واميركية . ولكم ضرب وسخر منه طيلة هذه السنوات ! وكم سال الدم من انفه ، وكم تكدس من احقاد في نفسه ! ..

ولكن لعل من غير المناسب ان يحكي لابنه

عن كل هذا ، فلا يتظنّن ان اباه راغب في اثارة الشفقة على نفسه او يلوم على ما وجه اليه من كلمات التأنيب والتقريع ؟ ..

هذا ما كان يجول في خاطر روسوماخا وهو جالس على البرميل الذي كان يحتوي من قبل على الملفوف المخلل في قمرة مؤخرة « داغو » وينفث الدخان في عبه . ومن خلال الزجاج الاغبش كان يـــرى خطوط القمرة في مقدمـــة « داغو » ، وهي بالكاد تلحظها العين في عتمة الليل ، وخطوط العصفـــات الثلجية البيضاوية الهابّة . واحياناً ، كان يشق العتمة قبس صغير ، ولكنه حاد مشعّ ، من المصبـــاح الاحمر في مؤخرة « كولا » .

وحين كان القبس يتنحى عن مقدمة « داغو » ، كان رئيس النوتية يقـــرع بكعب حذائه على برميله ويشتم صاحب الدفة ناعتا اياه بالكليب . وقد كان الكليب ، وكنيته باردوكوف ، عملاقاً يكاد يبلغ المترين طولاً . وما كان هذا ، بسبب ما انطوى عليه من خجل ، ليحنق على كبير البحارة ، بل كان يبادر في صمت الى ادارة

دولاب الدفة ، ساحبا انف «داغو» الى مسار «كولا» .

كان توجيه الدفة باليد يزداد صعوبة باطراد . فقد كانت حبال دولاب الدفة تجمح عن الدوران مع انهم كانوا قد نظفوها وشحموها قبل الابحار . وكان مقدم «داغو» الفارغ العالي يتمايل وينحني طول الوقت بفعل الرياح ، ومن خلال النوافذ المحطمة كان يلطم الوجه رذاذ بارد شديد القسوة .

وما كان لباردوكوف من معين غير ما كان يتمتع به من اعتياد صاحب الدفة على الاستسلام للاحلام . فقد كان يحلم ، مثلاً ، بان لم يبق حتى انتهاء النوبة غير ساعة ونصف . وبعد ذلك سيأتي دور تشيببين الذي شبع نوماً ، فيصعد الى الحجرة ، وسيكون في وسعه تسليمه مقبض الدفة ، والنزول الى تحت والاستسلام للنوم ، متغطياً حتى الرأس بفروة دافئة . صحيح ان جدار الثلج البيضاوي المعتم سيظل يترنح امام عينيه حتى وهو نائم ، وسيبحث فيه عن النور الاحمر المنبعث من «كولا» ، وينتظر

صرخات روسوماخا الغاضبة ، ويشد قبضتيه على دولاب الدفة . ولكن كل هذا ليس مرهقاً في المنام بالقدر الذي هو عليه الآن في الواقع .

ولقد كانت تراوده احلام اخرى اشد تعقيداً في مجال التنفيذ والتحقيق . كان يحلم بان يعلن له غاستيف ، قبطان «كولا» ، الشكر على التطوع بالانجرار في علبة الكونسروة الصدئة هذه عبر البحر الصاخب . وما كان يحلم بمجرد شكر ، بل باجازة اسبوع . وكان يحلم بان يفسح له المجال لأن ينزل الى مرفأ مورمانسك ، ملوحاً بصندوق خفيف ، ويركب القطار ، ويذهب الى مدينة فولوغدا ، ويجيء الى غاليـا فجأة ، فينتظرها في الحديقة الصغيرة على باب المعهد . وكان يحلم بان يهطل الثلج على الاشجار اذ ذاك . فجميل جدا تهطال الثلج ، على ان لا تكون ثمة رياح ولا شيء من حولك يهدر ويزمجر ويترنح . وافكار البحارة في البحر انما تنصرف في الاغلب الى الشاطئ .

او كان باردوكوف يتذكر قريته الصغيرة في منطقة فولوغدا . الثلوج . اكوام الثلج حتى

سطوح البيوت . الهدوء والسكينة . الصرير الخفيف المنبعث من الدعائم الخشبية في المنازل الريفية ايام الصقيع القاسي في عيد الميلاد . الطنين الطويل الجليّ النبرات حين يهز النسيم الغصينات المكسوة بالجليد على اشجار البتولا المطأطأة الرؤوس . ولقد تذكر ذلك الشتاء غير المنسيّ لديه ، وقد حل فيه برد شديد الوطأة . كان الجو خانقاً في غرف مدرسة القرية الواطئة السقوف ، من جراء فرط الايقاد في المدافئْ ، وكانت النوافذ تذرف دموعها ، واما الشعارات المكتوبة على الجرائد القديمة مع نشرات مكتب الانباء ، فقد بات لونها معتماً من الرطوبة .

واثناء فترات الاستراحة بين الدروس لم يكن ينط الى الشارع وقت الصقيع حتى اكثر الصبية جرأة وبسالة ، بل كانوا يبقون في الجو الحار الخانق ، ويصخبون في الممشى ، ويلعبون لعبة «القبلات» . فكان احدهم يمسك بيد البنت التي تروق له باحدى يديه . اما اليد الاخرى الفارغة فكانوا ينهالون عليها ضربا بالحزام :

والذي يكون اكثر احتمالا ، ولا يترك يد البنت ، يكون هو الرابح . تلك هي اللعبة كلها .

اذ ذاك ، كان هو ، ليوشكا باردوكوف ، قصير القامة جداً . وفيما بعد ، عقب تخرجه من الصف السابع ، ترعرع دفعة واحدة وازداد طوله نصف متر . وقد كان مغمورا بحيث لم تعره غاليا اي انتباه . كان يقبض على يدها باستحياء ، حتى لا تكاد تحس بذلك . وكلما اشتدت ضربات الاولاد له عنفاً ، كلما ازدادت اصابع غاليا التحاما في كفه .

كم كان الصبية يزعقون من حوله ! كانوا يلسعونه بالضربات ، حسب الاصول ، بدون اية رحمة وطويلاً جداً . كل جسده كان ينضح عرقاً ، وشفتاه ترتجفان بصورة رهيبة ... والله يعلم بم كان من شأن هذا ان ينتهي – اذ كان لا ينوي اطلاق يد غاليا – لو لم يكن الجرس يقرع . وكانت البنات يهربن متضاحكات . ولاذ «المعذّب» بالفرار ، بعد ان ضربه في المرة الاخيرة بطرف الحزام . واما غاليا فقد سألته : «لماذا لم تطلق يدي ؟ فذلك مؤلم جداً ...»

فتمتم قائلاً : «ولمــاذا اطلقها؟» ، واخيراً اطلقهــا . وقطب حاجبيه ، وبصق على يده المزرورقة المتورمة ، ودهنها بلعابه . ولأمر ما كان يصبح دائماً الى جانب غاليا اكثر جرأة واشد مقاومة منه حين يكون وحيداً ...

هكذا كانت تدور الافكار في رأس باردوكوف ، وهــو ملق بصدره على دولاب الدفة العنيد ، باحثاً وراء الف «داغو» عن قبس المصباح الاحمر في السفينة «كولا» . ورققت الاحلام والذكريات مشاعر باردوكوف ، فشرع يغني . وظل طول الوقت يغني اغنية واحدة بذاتها تقول : «اننا ذاهبون الى البحر . وفيه قد يحدث كل شيء . ربما لا يتيسر لنا جميعا ان نعود الى بيوتنا ...»

وقد كان باردوكوف يغني بلهجة عاطفية بلغ من شدة تأثيرها ان روسوماخا صبر دقيقة ، ثم امره بالسكوت . واذ ذاك اخذ صاحب الدفة يحلم من جديد : في الشتاء سيقدم لا محالة فحصاً ليصبح ملاحا في المسافات القصيرة ،

اما روسوماخا هذا فسيظل ابداً رئيس نوتية ، وان يكن الآن يأمر كقبطان .

كان ملاح المحركات يقوم بالنوبة في قعر «داغو» قرب المضخات الآلية ، وهو فتى صغير الا انه فطن جدا ، مدوّر الوجه ، ملوث ابداً بالشحم او الزيت . وكانت بشرة وجه ملاح المحركات متقشرة بفعل الدهانات السامة ، وكان رفاقه يساعدونه على قشر هذه البشرة من الانف والخدين . كان الاسم الاصلي لملاح المحركات فاسيلي ، ولكنه كان يدعى فانفانيتش* بسبب مـــا كان يمتـــاز به من فطنة خارقة تتجاوز عمره . لقد عـــانى الفتى كثيراً من الاهوال في سنوات الاحتلال . ومع انه كان في ذلك الوقت البعيد غلاماً صغيراً ، فقد اشترك في الحرب . فقد عمد ذات مرة الى دق مسمارين ضخمين

* اصل الكلمة ايفان ايفانوفيتش ، وتلفظ هكذا بسرعة . والمقصود انه يعطى اسما ينادى به الكبار مثل «ابو فلان» باللغة العربية . (المعرب) .

في فردتي جزمة ضابط الماني ثم هرب الى الانصار ، واشتغل بشرف مساعدا للطباخة في قاعدة الانصار .

وقد كانوا في السفينة «كولا» يحبون فانفانيتش ، وكان هو عارفا بهذا ، فما كان يستاء حين يعبث احدهم بشعره او ينزع عن انفه قطعة من بشرة وجهه المتقشرة .

ما كان في وسع ملاح المحركات ان يحلم وهو في نوبته . فقد كانت المياه تتدفق كثيراً ، وكانت احدى المضخات تشتغل بصورة سيئة : فغالباً ما كانت تعطس ، واذ ذاك يروح خرطومها الدافع يقفز ويتلوى في عتمة قعر السفينة كانه الثعبان الضخم الثقيل . وكان فانفانيتش يقفز هو ايضاً متنحياً عن الخرطوم ويوجه شتائمه اما الى المضخة او الى نفسه . كان يشتم نفسه لنسيانه ان يجلب من «كولا» قطعة ماغنيتو احتياطية لتشغيل المحرك وعزقة للخرطوم المتلقي .

حين كانت المضخة تشرع بالعطس ، كانت بقبقة المياه تشتد في قعر السفينة . وعلى ضياء

مصباح كهربائي يدوي يرى فانفانيتش كيف يترنح السائل الاسود المشحّم مرتفعاً على درجات سلّـم القعر . ومـا كان يجوز لفانفانيتش ان يسمح له بالارتفاع . كان يقف رأسا لرأس في مواجهة هذه الميـاه القذرة السوداء في قعر «داغو» الفارغ المدوّي ، وكان يشعر بالرهبة في بعض الاحيان .

وفي كل ساعة كان روسوماخـا ينزل الى فانفانيتش ، فيظهر اول الامر في الظلام المطبق بصيص لفافة التبغ التي ما كانت ابداً لتبرح اسنان رئيس النوتية ، ثم تنطلق شتيمة بحـّاء : فقد كان لا بد ان يقع تحت قدميه شيء مـا اثناء سيره البطيء في العتمة .

كان روسوماخا يتفحص منسوب المياه في القعر ويقضي مع فانفانيتش بضع دقائق . فكانا يجلسان القرفصـاء احدهمـا مقابل الآخر ، ويستمعـان الى لطمات الميـاه على جوانب السفينة ، والى ضجيج محركات المضخـات ، وبقبقة السائل في القعر . وكان رئيس النوتية يسحب ساعته فينظر طويلاً الى وجهها النوراني ،

ويلاحظ وقت جولته ، فيسأل فانفانيتش اذ يشعر بان روسوماخا على وشك الانصراف :

– ايوه ، كيف الحال في الهواء الطلق ؟

– في الخريف يعصف الهواء دائماً ...

فيقره فانفانيتش على كلامه قائلاً: «اي نعم» بلهجة رصينة ، وهو راغب شديد الرغبة في استبقـاء رئيس النوتية ولو دقيقة ، وطرح بضعة اسئلة اخرى عليه . ولكن روسوماخا كان ينتصب واقفا ، قائلاً له : «خاطرك» .

ولقد كان رئيس النوتية يدرك ان فانفانيتش يعتريه الضجر والاكتئاب في قعر السفينة ، وان ملاح المحركات غير راغب في البقاء من جديد لوحده ، ولكنه ما دام الامر لازماً فهو لازم . ثم انه هو ، روسوماخا رئيس للنوتية لا شمس ، فليس في وسعه توفير الدفء للجميع .

وعلى متن السفينة كان رشاش الماء يغمر روسوماخا ، والرياح المصحوبة بالثلج تلسعه على عينيه .

كانت الالفا طن من الفولاذ ، التي يسيرون بها عبر البحر المصطخب ، تترنح تحت جزمة رئيس

ا

النوتية . وكانت الجزمة تزلق ، الا ان روسوماخا كان يستطيع ان يقبض اصابع رجليه بشدة بحيث يتشبث لعلاه باي متن وفي اية حال من الميلان ، كانما هما ملتصقان التصاقاً .

وما كان رئيس النوتية يستعجل الصعود الى العلّية ، بل كان يقف على سطح السفينة ، فيتأمل عتمة الليل التي يتمايل فيها البحر ويتلوى ويزمجر ، ويتأمل السماء التي تمزق فيها ريح الشمال بطون السحب فتفسح لنور النجوم الخافت ان يصل لحظة الى البحر ، فيتضاءل باطراد انشراحه لكل هذه القصة مع «داغو» المقطورة .

لقد ابحرت «كولا» طويلاً في مناطق القطب الشمالي ، مؤمنة سير السفن النهرية في مصب نهر اوب . وكسب ملاحوها لانفسهم بشرف الحق في الذهاب رأساً الى مورمانسك . وقد اغضب روسوماخا ان يوافق قبطان «كولا» ، غاستيف ، على جر «داغو» في طريق العودة ، من بحر كارا .

فللمرة الاولى في حياته البحرية كان رئيس

النوتية مستعجلا العودة بمزيد من السرعة الى الميناء ، الى الشاطئ . فقد اصبح في غير مستطاعه الصبر على اللقاء مع ابنه . بل ان روسوماخا قد التمس من القبطان ، في الموقف الاخير ان يسرحه من السفينة قبل نهاية السفرة ، قائلاً له :

– ثمة من ينتظرني على الشاطئ . اني بحاجة للذهاب الى مورمانسك .

قال هذا مزدهياً ، رغم انه ما كان على ثقة قط من ان هناك من ينتظره فعلا .

ولكن غاستيف لم يعمد حتى الى السؤال عمن ينتظر روسوماخا على الشاطئ : فهو بحاجة الى رئيس نوتية ذي خبرة وتجربة من اجل جر «داغو» .

وقد استاء روسوماخا من القبطان . وما هوّن الامر على نفسه بعض الشيء غير العثور في «داغو» على بعض الاشياء النافعة . فقد سحب رئيس النوتية سلماً متحركا معدنيا من قسم المراجل ، وخلع مقاعد من المرحاض في المؤخرة ومقابض من ابواب الحجرات الدنيا .

وقد كان كل هذا مما يمكن الافـادة منه في «كولا» .

وبعد زيارة ملاح المحركات والتمشى على سطح السفينة ، تسلق روسوماخا من جديد على برميله في قمرة المؤخرة ، وشرع يدخن لفافة تبغ جديدة .

ومن جديد راح دولاب الدفة يرسل صريره من خلفه ، وكان باردوكوف يغني غناء عاطفياً . كان يغني عن البحر ، عن ان كل شيء يصادف ان يحدث فيه ، وعن ان صيادي الاسماك اذا هم لم يعودوا ، فلسوف تبكي عليهم زوجاتهم بدموع شحيحة ، ويلعن الماء الاسود لعنة ابدية ، واما النوارس البيض فترفرف باجنحتها ، وينطلق شخص آخر في قلب الاعصار ...»

وحوالى الساعة الثامنة صباحا صعد الى القمرة ملاح الدفة الثاني تشيبين . وما ان بلغ العتبة حتى صاح يتحدث عن الحلم الذي رآه في نومه :

— اجاصة ، لو تعلم ، هائلة ! واما انا فقد كنت الكمها كما تلكم كرات البوكس !

وراح العصير يتطاير منهـا في جميع الجهات ويتطاير . واما انا فكنت الكمها لكمات شديدة ! طخ ، طخ ! وكنت انا نفسي اتمنى لو ذقت منها ولو لقمة صغيرة ... هكذا يصادف ! كم هى الدرجة على بوصلة السفينة ؟

ـ استيقظ من نومك . اية بوصلة هنا ؟ ـ اجاب باردوكوف بهدوء ، مقدما دولاب الدفة لبديله .ـ حافظ على المسير خلف «كولا» ، هو ذا البوصلة كلها لك ...ـ ثم تكلم مقدما تقريره الى روسوماخا :

ـ سلمت النوبة !

وصاح تشيبين : «استلمت ...» ، ثم اردف يقول :

ـ ايه ، كم آسف على تلك الاجاصـة ! ولكني لم اذقها . اسمع ، يا رئيس النوتية ، لقد رأيت اجاصة في المنام !

ولبث روسوماخا صامتاً ، ولكن تشيبين لم يرتبك من هذا اقل ارتباك ، واستمر يشاطر رئيس النوتية انطباعاته عن الاجاصة .

وامامه ، كما في السابق ، كان ضوء المصباح

الاحمر في مؤخرة «كولا» ينطفئ تارة ويشتعل تارة اخرى ، و «داغو» ترتجف من رجات السفينة القاطرة لها ، وتغمس انفها في الماء ، ثم تترنح باهتياج من جانب لآخر ، وحبال الصارية الامامية تلتف على انابيب تنقية الهواء قرب المدخنة .

كانت الامواج تندفع الى مؤخرة «داغو» ، الواحدة اثر الاخرى ، بعد ان تشطرها السفينة اربا . ولدى تمايل السفينة كانت تقرقع وتتدحرج على متنها المقفر تنكة بنزين فارغة لم يثبتها فانفانيتش . وكانت الرطوبة تتسرب من خلال الملابس . فكان تشيبين ينكمش من البرد . ومن حين لآخر كان يوجه الى رئيس النوتية سؤالاً محرجاً . فيقول له بصوت ودود :

— ما رأيك ، يا زوسيما سيميونوفيش ، الن تكون الحياة مضجرة في ظل الشيوعية ، آ ؟ كل شيء في هدوء وسلام ... ونظام ، ولا وجود لأى شرطي ، آ ؟ انا اسأل سؤالاً جدياً ، يا رئيس !

فيرد عليه روسوماخا مكشراً : «كفى !» .
فيقول تشيبين غير مستكين :
ـ كلا ، تصور فقط ان قد سقط في الهاوية آخر رأسمالي ، ولن يبقى من احد يغيظني ، آ ؟
كان روسوماخا يدرك تماماً ان في ذلك تعريضاً به . لقد تخلف عن جميع هؤلاء الفتيان ، وهو غير راغب في الاعتراف بتخلفه . كان فيما مضى يستهتر بكل ما يمكن ان يدور في اذهانهم عنه ، اما الآن ، فلا . وقد اثارته اسئلة تشيبين بشكل ملحوظ . فزأر قائلاً :
ـ لا سير الى اليمين !
ـ حاضر ، لا سير الى اليمين !ـ كرر تشيبين امر الرئيس حسب الاصول تماماً . ولكن فترة الصمت المنبعثة من الاحترام عقبتها السخرية الدورية المغطاة .

كان قد اقترب الفجر حين انطلق سهم ناري من «كولا» ثم تساقط شرارات شاحبة بعد ان تعلق لحظة في السحب الواطئة . وكان هذا يعني

الدعوة للمخابرة . ففتح روسوماخا جهازاً لاسلكيا مما يحمل باليد .

وتكلم قبطان «كولا» غاستيف . وقد كان صوته الصارم يرن في العتمة جليّ النبرات بحيث كان يخيل للسامع انه قد جاء الى هنا بنفسه ، لابساً السترة البسيطة الزرقاء التي يرتديها في البحر على الدوام ، جاء واخذ يحدق في وجه مأموريه بعينين نصف مغمضتين .

وانتصب تشيبين بقامته . فما كان القبطان ليطيق اصطباراً حين يطوي ملاحو الدفة جذوعهم قرب الدولاب او يستندون بظهورهم على الحاجز .

— قدّم النشرة ، يا رئيس روسوماخا !

وقدم روسوماخا النشرة :

— مستوى المياه في القعر ما يزال على حاله . حبل دولاب الدفة كما في السابق ينقبض قليلا . الرجال يشتغلون حتى الآن شغلاً مناسباً .

ومن جديد بدا كأن غاستيف قد دخل على اثر صوته الى قمرة المؤخرة ، الا انه كان يخيل الآن للسامع كأن القبطان قد جلس بقرب

روسوماخا على البرميل الذي كان يحتوي على الملفوف المخلل وامسك بكتف رئيس النوتية بعدم كلفة .

– كيف تسمعني ، يا زوسيما سيميونيتش ؟

– اسمعك جيداً ، ايها القبطان ، – اجاب روسوماخا برصانة . فقد ادرك ان الحديث سيكون جدياً .

– الرياح تشتد ، يا رئيس النوتية ... يتوقع ان تصل الى الدرجة التاسعة ، شمالية غربية ...

فاطلق تشيببن شتيمة ، ومص خدشاً على كفه ، وبصق من النافذة المكسورة امامه . وفي الحال ردت الريح البصقة من حيث اتت ، وبالكاد تمكن تشيببن من التنحي عنها . كان الطقس يتقلب فعلاً .

واردف القبطان يقول :

– لم يبق حتى رأس كانين غير عشرين ساعة . كيف حال «داغو» ؟ الوقت لم يفت بعد للانعطاف الى جزيرة كولغوييف ، وبالامكان

14—1187

الاستراحة في بوغرينو ... لا تستعجل في الجواب . انا على اتصال . استقبال .

ولبث روسوماخا صامتاً . كان يدرك كل ما لا يرى غاستيف ضرورة للحديث عنه بصوت مسموع . فما كان غاستيف على الاطلاق يحب اطالة الكلام . ليس في الوسع نقلهم سريعاً من «داغو» وقت الاعصار من الدرجة التاسعة . وسيتحطم مركب الانقاذ شذر مذر لدى انزاله . ولكن الذهاب الى بوغرينو ، الى جزيرة كولغوييف ، يعني اضاعة اسبوع ، بل اكثر من هذا . فان اعاصير الخريف لا تنتهي بسرعة .

كان كل شيء في هذه الرحلة يتعقد بصورة مزعجة لروسوماخا ، وكان كل شيء مضاداً لرئيس النوتية : القبطان بموافقته على جر «داغو» ، والبحر المعترم على الاصطخاب والهياج غير عابث ، والسفينة «داغو» نفسها التي تتلوى في مسيرها وتعاند .

واخذ رئيس النوتية يصيح في فوهة الميكروفون السوداء :

— انا روسوماخا ، انا روسوماخا ! طولوا

حبل الجر مئة متر ايضاً ، فالشدات عنيفة .
طولوا الحبل ، وسنصل ببطء .

ـ الى جنة الـرب ،ـ اكمل تشيبين كلام رئيس النوتية بصوت خافت ، ثم اوقف دولاب الدفة برأس حذائه ، ومال بجسمه الى الزاوية التي كان فيها جهاز اللاسلكي ، فشد روسوماخا من كمه وقال :ـ قل للعامل على الراديو ، يا رئيس النوتية ، ان يبلغ فيتكا ميليشين : اذا هو لبس جاكيتي فلسوف احطم اسنانه !

ومالت «داغو» على جانبها في الحال ، اذ بقيت بدون قيادة .

فزعق روسوماخا ، صادما الراديو بانفه :

ـ انا سأريك الجاكيت ، انا سأريك !

ولقد كان من الراجح جدا ان يستغل رئيس النوتية الظرف المؤاتي ليصفي حسابه مع ملاح الدفة ، ولكن صوت القبطان لعلع مجدداً من الراديو :

ـ اذا توقفت المضخات ، فكم ستتحملون ؟

ـ المهم ان لا ينقطع حبل الجر ، اما ما عدا ذلك فلا ينشغل بالك بشأنه . فليس هذا

الوعاء كثير الثقوب ، كما يبدو ، – قال رئيس النوتية مهددا تشيبين بقبضة يده .

ولكن روسوماخا لم يعد الى شتم ملاح الدفة بعد انتهـــاء المكالمة . ووقف قرب النافذة ، فقلّد عن غير وعي الوضعية التي اعتاد ان يقف بهـــا غاستيف ، مسندا كوعيـــه الى زاويتي عضادتي النافذة .

انه الآن يغامـــر ، دون تردد ، لا بنفسه وحسب ، بل بهؤلاء الفتيان ايضاً . فليس يجدر به ان يغضب عليهم . وقد آن التحقق من حبل الجر . فالحبل الحديدي يتلوى كثيرا في فتحة سلسلة المرساة اليسارية ويمكن ان يتآكل . واذ ذاك ستكون القاضية ... ولن يكون اذ ذاك لا لقاء ، ولا حديث في مشرب البيرة ...

كانت الامواج العالية تتدافع من المحيط حاملة الزبد الابيض على متنها . وما كان صخبها يتيح تبين صرير دولاب الدفة ولا ضجيج مضخات فانفانيتش .

وما كان يبدو للعيان اي اثر في الافق .

والسحب تهبط اكثر فاكثر . وكأنما كانت تضغط على الرياح منزلة اياها الى البحر . وكانت الريح تشتد وتستجمع قواها .

٢

عاش روسوماخا حياة معقدة . والسنوات العشرون التي قضاها خارج وطنه في صراع من اجل البقاء ، قاس لارحمة فيه ، قد تركت في نفسه اثراً عميقاً . وقد ظل رئيس النوتية وقتاً جد طويل مؤمناً بان خير شيء للمرء ان لا يفكر بمستقبله ، وان يسخر من الحاضر ويأخذ من هذا الحاضر كل ما يمكن اخذه اليوم ، كل ما يمكن ان تستوعبه يداه المتعافيتان . ولكن روسوماخا ما كان يهتم بنفسه . فقد كان بما له من بسالة عاصفة ، قادرا على ان يبدأ الصراع لوحده مقابل خمسة . وكان قادراً على الانتقال من صارية الى اخرى ممسكا بيديه الحبل المشدود بينهما .

كان قادراً — وقد فعل هذا غير مرة — على

الوثوب الى البحر لنجدة من يقع في محنة . وفي الحق ، لقد كان قادراً على ان لا يفعل هذا ، وهو مطمئن الضمير .

وقد كان رؤساؤه يقدرونه . وكانوا قل ما يحتاجون لاصدار الاوامر اليه . وبغريزة البحار كان يشعر اين يتآكل الصدأ الحديد غير المطلي بالسلاقون تحت الصباغ النظيف ، واين تتسرب الرطوبة تحت الكسوة الخشبية ، وكان يدرك بدون النشرة الجوية متى ينبغي اتخاذ تمتينات اضافية على حمولات سطح السفينة . كان يحب عمله ، يحب البحر : «وانـّى اذهب من دونه ؟» .

وكانت النساء اللواتي يلتقي بهن في المرافىء يلبين رغائبه . فقد كن يشعرن ان هذا البحار ذا العافية والشعر الكثيف الاشقر قادر على العيش بطمأنينة بدونهن ايضاً . وكان هذا يصدم مشاعرهن ويبعث لديهن الرغبة في التوصل الى الوسيلة التي يمكن ان تربطه بهن .

ولكن روسوماخا كان على اقتناع راسخ بأن العيش بدون اسرة اوفر طمأنينة ويسراً . فاذا انت جعت تجوع لوحدك فقط ؟ واذا

كان شغلك خطراً ، فبنفسك فقط تغامر . اما من لا يعيش لوحده فانه مضطر للعذاب من اجل جميع اهله . فما الحاجة الى هذا ؟..

حين كانت السفينة تغادر المرفأ الذي ترسو فيه ، كان رئيس النوتية ينهمك بالعمل قرب آلة رفع المراسي ، او يجمع قلوس الارساء وفي اللحظة الاخيرة فقط كان يجد الضرورة لأن ينتصب بقامته ، في غير استعجال ، فوق درابزين السفينة ، فيودع تلك التي بقيت على الشاطئ ، ملوحاً لها بقفازه المتسخ : «وداعا يا حبوبة !» .

ويبتعد عنه الشاطئ اكثر فاكثر . وتصفو المياه التي كانت قرب الشاطئ عكرة مصطبغة بالوان قوس قزح المنبعثة من النفط ... ومشاغل رئيس النوتية التي لا عداد لها تنتقل بروسوماخا من مكان الى آخر على السفينة ، وسريعاما تستغرق جميع افكاره : زوارق النجاة غير مغطاة جيداً من جديد !» وحين يتطلع الى وراء يكون الشاطئ قد غدا خيطاً ازرق شاحباً ، اذا كان الوقت نهارا ، او يكون

قد انتشرت عليه حفنات من الاضواء الصغيرة ، اذا كان الوقت ليلاً . وهكذا ايضاً كان يشحب ويتلاشى في ذاكرة رئيس النوتية الناس الذين خلفهم على الشاطئ .

بل انه لم يذهب الى القرية مسقط رأسه على البحر الابيض حين عاد الى روسيا بعد سنوات طوال من التجوال في الارض .

في العام الثالث بعد العودة الى الاتحاد السوفييتي ، قبيل الحرب ، كان روسوماخا يبحر على سفينة لصيد الاسماك في المحيط الاطلسي ، وكاد ان يقع في الحب . فقد كانت على السفينة فتاة من صيادي الاسماك تشتغل طباخة . وكان اسمها ماريا .

كانت قصيرة القامة ، تربط الشال على جبينها حتى ليصل الى عينيها ، وتتخذ مسلكا هادئاً غير لافتة الانظار اليها . تحمل شوربة السمك الساخنة الى الصيادين في مقرهم ، وعلى وجهها الابتسامة الخجلى الضعيفة ذاتها ، مهما اشتدت الاعاصير في البحر . وبالابتسامة ذاتها

كانت تجيب على دعاباتهم ، وبمثل هذه الابتسامة كان في وسعها القبض بيدها العارية على سلسلة الارساء الفولاذية الشائكة ، وبعد ذلك تغمس خدوش يدها خلسة في ماء البحر . جليّ أن فتوة ماريا كانت شاقة ، مـا دامت تبتسم على الدوام هذه الابتسامة الخجلى ، حتى لتكاد تكون وجلة .

كان روسوماخا قد اعتاد معاشرة نسـاء صخابات ، مثيرات للانتباه ، ولوعات بالدعابة والمزاح ، اما هنا فقد بات يطيب لـه النظر الى هذه الطباخة الهادئة . ولكن ماريـا ، وهي منهمكة في المطبخ مع قدورها ، وتردد اغنيات لا تسمعها الا هي ، لم تكن تعير رئيس النوتية اي انتباه خاص . وكلمـا مضت في مقاومـة مغازلات روسوماخا لها ، ازداد هو تحسبـاً وتحايلاً . ففي كل يوم كان ينزل الى المطبخ عدة مرات ، فيرسـل التنهـدات الشديـدة ، ويتشكى من المصير الذي قضى عليه بالوحدة ، ومما عاناه من مصائب وهو يركب متن البحار الاجنبية . لم يوقف رئيس النوتية دخان المطبخ

ولا حرّه اللذان ينفر منهما منخراه المعتادان على الهواء النقي . وقد كانت ماريا تجيب على هذه الاحاديث بابتسامتها الخفيفة الخجلى ، ولكن ذلك لم يكن يجعل حجرتها الصغيرة اقرب منالاً لرئيس النوتية ...

وكان الجميع ، طبعا ، عارفين باخفاق رئيس النوتية .

فكان من يتوفر لديهم المزيد من الجرأة يسخرون منه فيثور غضب روسوماخا .

قبل ثمانية عشر عاما ، في مثل هذه الليلة الخريفية العاصفة ، وسط الظلمة والاعاصير الثلجية ، لم يلاحظ قبطان سفينة الصيد ، التي كان يبحر عليها روسوماخا وماريا ، ضوء المنارة على الشاطئ . فجنحت السفينة على الصخور قرب شاطئ سكانديناڤيا . كان الارتطام عنيفاً والسفينة بكامل سرعتها . فامتلأ قسم المحركات بالمياه من جراء الصدمة على الصخور . ولم يرد احد على اشارات الاستغاثة . وعبثاً ذهب كل الجهود التي بذلوها للخروج

بانفسهم من مكان الاصطدام ، وضخ الميـــاه ، وسد الثغرات .

وفي نهاية الليل تراخت قوى الصياديـــن من شدة التعب والبرد . فباتـــوا لا يكترثـــون لشيء . وذهب كثيرون الى الحجرات الصغيرة وتراموا هناك وناموا . وقد كانوا غير منتبهين لارتطامات السفينة المديدة الصوت على الصخور ولتغير الميلان . وظل روسوماخا يصارع المياه حتى النهاية ، وكان آخر من تراجع امامهـــا . وبقي اكثر من الآخرين لا يفارقه الامل بالانقاذ . فقد كانت الحياة فيه اذ ذاك جد قوية . وما كان للتعب الشديد الذي يثقل ساعديـــه ، كالزئبق ، من اثر لديه غير زيادة حدة الشعور بالحياة في جسده .

وحين غمر الماء مضخـــات القعر واصبح الصراع معه لا معنى له على الاطـــلاق ، صعـــد روسوماخا الى حجرة القيادة على سطح السفينة ، فرفع علبة البوصلة فصب السبيرتو في زجاجة معه : فليمت ميتة صاخبة ! وشرب رئيس

النوتية الكحول واكل كما ينبغي في المطبخ المقفر ، ثم ذهب الى حجرة الطباخة .

كانت ماريا مستلقية ، ملتحفة حتى الرأس ، متكومة الجسم . وكان رشاش الماء يتطاير الى الحجرة عبر زجاج النافذة المحطم . فصاح روسوماخا قائلاً لها في اذنها :

– ها قد حلت ساعتنا للموت ! ايه ، يا حبيبتي ! خذي ، اجرعي الكحول ، روّحي عن نفسك ، يصبح الامر اهون .

فشربت مطاوعة . فقد كانت في هلع ، وجسمها يرتجف .

فقال لها روسوماخا مشجعاً :

– لا ترتجفي ، لا ترتجفي ... الا يؤسفك ان تموتي وانت عذراء ؟

دفعته ماريا عنها ، ولكن لا بمثل الصرامة التي كانت لها من قبل . وبعد ان دفعته ، غطت وجهها بيديها واخذت تبكي وتشهق ...

وفجأة قالت ماريا بصوت عال وببساطة :

– حبيبي ! اني احبك ، احبك ، يا زوسيما !

كانت انفاسه حارة . وقد طاب لها الاحساس بوجود هذا الجسد القوي الحي الى جانبها . وخف الهلع من البحر ، رغم ان سلاسل المراسي كانت تقرقع بصخب من جراء ارتطامات السفينة على الصخور ، والمياه تهدر بعنف في انبوب المغسلة .

وسألت ماريا وهي تضغط كفيها على شعر خدي روسوماخا الاشقر الشائك :

– كيف ستكون حالي فيما بعد ؟ كيف ساعيش الآن ، فانت ستتركني ، اليس كذلك ؟

– ماذا تقولين ! تمتم روسوماخا وهو يتفلت من يديها .–وفيما بعد ؟ ليس يكون لنا معاً اي فيما بعد ، لا تقلقي–قال معزيا لها .–عما قريب ستأتي الاسماك لحضور زفافنا ...

ومع ذلك فقد انتشلوهم اذ ذاك من سفينة الصيد المحطمة . ولكن روسوماخا فقد الاهتمام بماريا . فقد كان يتهرب منها ، وما هو الا شهر حتى ركب متن البحر من جديد في رحلة بعيدة المدى .

كان روسوماخا يتذكر حكاية الطباخة الفتاة وتحطم سفينتهم ويرويهما بالروح الهزلية ذاتها . وفي الحق ، لقد كان يرى في الحكايتين ما يضحك ، اكثر مما يرى فيهما من خطير ومحزن .

— كنت اعتقد صادقا اننا هالكون جميعا ، ومن المحزن لها ان تموت وهي عذراء ، آ ؟ ام الامر يبدو لك على خلاف ذلك ؟ — هكذا كان يسأل من يحاول القاء اللوم عليه .

وقضى روسوماخا الحرب مع فرق البحارة الخاصة في الشرق الاقصى ، اذ كان يبحر الى اميركا على الناقلات السوفييتية . وبالرغم من ان الرحلات كانت خطرة ، ورغم ان روسوماخا قد حدث له ان غرقت سفينته غير مرة ، فقد كان اقل معاناة من الآخرين : فما كانت له اسرة ولا بيت من شأنه ان يتألم عليهما . وقد ظل متشرداً كسابق عهده . ومع ان روسوماخا كان يحقد على العدو الحقد الجدير بالانسان الروسي ، ومع انه كان يشتغل كما ينبغي ان يكون الشغل ، وما استسلم مرة

للخوف على جلده ، فقد كان حين ينظر الى البسالة البصيرة المطمئنة التي كان يبديها الناس السوفييتيون المحيطون به ، يدهش لتفانيهم وفي نفسه اكتئاب . فقد كان يدرك في اعماق نفسه بان بسالتهم مغايرة تماماً لبسالته .

وحصل على مداليات ، بل لقد نال وسام النجمة الحمراء . وحين قام قبطان ، ما يزال في ريعان الشباب ، بتسليم روسوماخا الوسام ، تباطأ رئيس النوتية لحظة في وضع راحته الغليظة تحت علبة الوسام الحمراء الخفيفة ذات الوزن المعنوي الثقيل .

– لعلي لا استحق هذا ، ايها القبطان ، آ ؟ – قال مخفياً ارتباكه المفاجئ بابتسامة ساخرة .

فقال القبطان موافقاً :

– ايوه ، ان من المفيد لك التفكير هكذا احياناً . ولكنك كسبت هذا بشرف .

– الامر هكذا . هذا صحيح ، – قال روسوماخا .

وبعد الحرب بعامين ، عاد الى مورمانسك . فجمع في مطعم «الاركتيك» جميع معارفه القدامى الذين التقى بهم على مراسي المرفأ التجاري ومرفأ صيد الاسماك . وخلال بضعة اسابيع ، انفق كل ما في حوزته من نقود ، فاسودّت الدنيا في عينيه . واخذ الكلل يتسرب الى نفس روسوماخا . واصبح يتضاءل ميله الى الشراب مع امثاله من ذوي الرؤوس العنيدة ، واخذت تفتر باطراد رغبته في الصخب والخصام . وما عادت الفودكا تبعث المرح في النفس ، وباتت في الاغلب تحمله على السأم وتبعث في نفسه شعورا بأسى لم يسبق له به عهد وكآبة غير مفهومة .

كان روسوماخا في الليالي ينحبس لوحده في حجرته في السفينة ، وفي نفسه ابداً رغبة في ان يدرك ما الذي جرى له ، واين اختفى الطيش الماضي ، وما هو مبتغاه اخيراً . وما كان يحزر ان هذا انما هو تراكم التعب من الوحدة ومن العيش بدون هدف ولا غاية .

لقد طالما انزل به البحر الضربات . وما

كان روسوماخا لينسى قط قوة المياه اذ تثيرها الرياح . ربما كان محكوما عليه بان يخطئ ذات يوم فتزل قدمه على سطح السفينة المبتل ويهوي الى البحر محطم الرأس ، او تتعلق قدمه بحبل يدور في عنف ، او يخطئ في تقدير مكان هبوط حمل يجري انزاله الى قعر السفينة . فهل ترى سيبكي عليه احد في الدنيا ؟ الاصدقاء القدامى سيشربون نخب ذكراه طبعا فهم يفيدون من هذه الحجة للشرب على ذكراه . ولكن الاتراب القدامى يتضاءلون عدداً باطراد . بعضهم كبروا ، فاصبحوا ملاحين ، بل قباطنة ، ويعلمون الشبان في المدارس البحرية ، وآخرون استقروا على الشاطئ ، وعاشوا مع اسرهم ، وربّوا اولاداً ...

وحين حظر عليه السفر الى الخارج بسبب السكر وسوء السلوك ، ظل وقتاً طويلاً يصخب في ادارة الملاحة ، ويبرهن على انهم لن يجدوا في طول الاتحاد السوفييتي وعرضه رئيس

نوتية خيراً منه . ولكن تبين ان كون المرء رئيس نوتية جيداً ليس بالامر الكافي . ان ثمة كثيراً غير هذا يتطلب من البحار عندنا . ولكن روسوماخا لم يكن راغبا في «رفع مستواه الثقافي والسياسي» ، كما كان يتطلب منه المفوض السياسي ، ولا كان راغبا في قراءة الكتب ، ولا في الكف عن قذف الشتائم . وما افاده الصخب . وبعد المخالفة التالية سرحوه كليا من ادارة الملاحة .

اذ ذاك فقط قرر السفر الى بلده . فتمشى على الصخور ذات الطحلب على شاطئ البحر الابيض ، مسقط رأسه . وفي ذلك الحين كانت تنبسط ، في مكان الاكواخ البيضاء ، ورشات مصنع محفوظات السمك . وكان كل شيء قد تغير في ذلك المكان ، فما كان من شيء يذكر بالماضي غير رائحة السمك الفاسد .

وظهر ان من الصعب ايجاد عمل جديد . فما كانوا اذ ذاك يرغبون ان يأخذوا روسوماخا حتى على متن سفينة بعثة البحث عن سمك الرنك ، في ادارة صيد الرنك في مورمانسك .

وبناء على المعرفة السابقة دبّر له قبطـان سفينة الانقاذ «كولا» عملا لديه . فقد كان يعرف جيداً ويقدّر مـا يتصف به رئيس النوتية من جرأة خارقة ، وجلد على العمـل كجلد الثور . كان العمـل كثيراً على سفينـة الانقاذ في البحار الشمالية القاسية . وكان هذا العمل المرهق الخطر هو بالضبط الذي ساعد روسوماخا اذ ذاك على العيش . ففي جو البحر المألوف الذي كاد ان يفقده كليا ، وفي البرد والرطوبة والتعب الشديد ، كانت تتلاشى الافكار الكئيبة التي لا لزوم لها . وقد كان رئيس النوتية ينطوي على الامتنان من قبطانه ويسعى جهده لعدم الاساءة اليه .

وفي الربيع ، قبيل ابحار «كولا» في رحلتها الاخيرة ، التقى روسوماخا بماريا . حدث ذلك قرب مرسى الزوارق في مورمانسك . اقبلت عليه هي نفسها ، هادئة ، غير ملفتة للانظار ، كسابق عهدها . وتوقفت قيد خطوة ، فرفعت يديها وشدتهما في الحال على صدرها ونادته بشفتيها فقط :

— زوسيما !

فما عرفها على الفور ، وحين عرفها غمرته البهجة . وظل يسأل عن المعارف القدامى ، وعن سبب عدم التقائه بها في اي مكان ، وهل تركت الملاحة منذ وقت بعيد .

والتزمت ماريا الصمت . ثم اقبل زورقها . فقالت :

— ها نحن قد التقينا مرة اخرى . كنت اظن انك لم تعد في عداد الاحياء .

واجهشت بالبكاء واخذت تمسح الدمع بكم سترتها من خديها بهدوء . وفجأة استيقظت الشفقة في نفس روسوماخا ، فاخذ يقذف بالشتائم بصوت خافت .

— لا تشتم ، بكيت بدون سبب ... لا تظن شيئاً ... كل شيء قد طواه الماضي ...

— قالت هذا ومضت صوب سلّم الركوب ، والتفتت الى وراءها ، فقالت بصوت هادئ هذه المرة :— عندي اندريه ، ولدي . انه ابنك . منك . هو الآن في زيارة . اذا شئت

المجيء ، فتعال ... انا مقيمة في رأس ميشوكوف .

وذهب الزورق بماريا ، وظل روسوماخا واقفاً على المرسى : لم يكن قادراً على ادراك ما سمع .

كان ينبغي ان تقلع «كولا» في تلك الليلة ذاتها ، ولكن غاستيف سمح لرئيس النوتية بالغياب مدة ثلاث ساعات في المساء .

جرى لروسوماخا امر غير مألوف : فقد كان خائفاً . كان ينتظر اللقاء ويخشاه . وبلغ من شدة خوفه حتى اخذ احد حاجبيه يرتعش . وزاد من خشيته هذا الشعور بالهلع الذي لا عهد له به من قبل ، وارتعاش حاجبه . لم يجد ابنه في البيت . انما رأى صورته فقط . انه فتى ممتلئ بالعافية ، عريض المنكبين ، يرتدي جاكيتا ، ويضع ربطة العنق ، ينظر اليه ويعبس في وجهه . وبهذا العبوس ادرك روسوماخا ان الامر مضبوط ، فهو من دمه ، ولا يمكن ان يكون في ذلك اي شك .

— يدرس الطب . — كان هذا كل ما قالته له ماريا عن ابنه .

وما اعتزم روسوماخا ان يوجه بنفســه سؤالاً ما ، رغم انها كانت تتصرف بهدوء ، فما عادت الى البكاء ، وما وجهت اية ملامة . وقد سلكت ماريا مسلكا جعل الشعور بالهلع يزول عن روسوماخا .

وفي ذلك المساء الهادئ الابيض الجناحين ، كما يصادف ان يكون في المناطق القطبيــة في اواخر الربيع ، جرى كل شيء على وتيرة حزينة الا انها هادئة .

كانا جالسين في مدخل البيت . ولصق قدمي رئيس النوتية تقريبا ، كانت تبقبق موجــة خفيفة على اوتاد المرسى الصغير المكســوة بالاعشاب البحرية . وعلى الصخور ، خلف بيت ماريا ، نصب للاشارة ذو ثلاث قوائم ، غير مضاء بالانوار الوهاجة : ذلك ان المنارات وعلامات الطريق لم تكن تشتغل . فالبحارة لا يحتاجون الى انوارها اذا كانت الشمس لا تغرب وراء رؤوس الهضاب . وكانت الشباك

الممزقة المعلقة على الاوتاد بدلاً من السياج تتمايل بفعل النسيم ، وديك متوهج الالوان ، مقصوص الذيل ، يقاقي وقد تعلق بالشباك .

اطلقت ماريا الديك وقذفت به في الهواء .

– رح لبيتك ، يـا دييك . فالليل قد اقبل ...

فصفق الديك بجناحيه ، وصاح صيحة مظفرة بلهاء . فما كان في وسعه ان يفهم ان الضياء على الارض لا يعني دائماً ان ثمة نهاراً .

كان روسوماخا يدخن السيجارة تلو الاخرى وينتظر : ما هي الا لحظة حتى يجيء ابنه . ولكن محرك الزورق الاخير ، الذاهب الى المدينة اخذ يهدر ، وارتطم الزورق باوتاد المرسى ، والقى الملاح بالحبل في تكاسل على الوتد الخشبي وتثاءب . بعد نصف ساعة ، كان ينبغي للزورق ان يعود الى المدينة ويأخذ معه روسوماخا . ولكن الابن لم يظهر بعد : فقد كان يتسلى بالرقص مع الاصدقاء في مكان ما .

نزل من الهضبة ضابط ملاح سالكاً دربا مستقيماً غير مطروق ، والطحلب الرطب يبقبق

تحت جزمته ، فالقى التحية . واسرعت ماريا الى البيت فجاءت له بصرّة . واخذ الضابط يعدّ النقود .

— اوه ، ليس عندي قطع نقدية صغيرة لرد البقية ! — قالت ماريا بلهجة تنم عن قلق اشد مما ينبغي . — الست تجد معك عملة صغيرة ؟ لقد افرطت قليلا فى تنييل القمصان ، فلا تغضب .

— لا لزوم ! لا لزوم للباقي ، — قال الضابط ملوحا بيده تعبيراً عن عدم الاكتراث ، — شكرا ، يا والدة . تعالي بعد اسبوع نعطك ايضاً ...

وهزّ برأسه مودعاً روسوماخا ، ومضى يتسلق الهضبة :

— انهم معسكرون هنا في مكان قريب . شبان طيبون ، هادئون ، — قالت ماريا كأنما تدافع عن نفسها حيال روسوماخا . واغلقت كفها على النقود ودستها في جيبها . فسألها روسوماخا :

— تغسلين ؟

فما اجابت ماريا . بل اردفت تقول وافكارها منصرفة الى شيء آخر يخصها :

– لا يقترّون بالمال . هذا منهم بدافع الشباب ... اما تعبت من ركب البحر ؟

– واذا كنت قد تعبت ؟ ايان اذهب من دونه ؟ –قال روسوماخا هذا وقذف بعقب السيجارة صوب البحر حيث كان ينفث الضباب من وراء منعطف الخليج على الشاطئ المتبرد خلال الشتاء الطويل .

واخذ البوق على الزورق يسعل ويزعق داعياً الركاب ، وادرك رئيس النوتية ان لن يكون في وسعه انتظار ابنه حتى مجيئه . واذ ذاك فقط ، اذ كف عن انتظاره ، نظر الى وجه ماريا للمرة الاولى نظرات حقة ، وامسكها بخفة من كمها واجلسها الى جانبه .

فجلست مطواعة مستحية . وظل روسوماخا يتطلع الى وجهها ، ويراها عن قرب : شعرها موخوط بالشيب ، ولكنه ما يزال كثيفا ، وعلى جانبي عنقها عروق نائئة متشابكة . وقال رئيس النوتية :

— ايه ، يا ماريا !

وظل يبحث عما يجدر به ان يقول ايضاً ، ولكن نفسه كانت اذ ذاك مفعمة بمشاعر غير مألوفة ولا مفهومة لديه ، واخذ يلامس قلبه الم مبهم مرير ، الا انه مستطاب في الوقت نفسه ، حتى لقد راحت شفتاه ترتعشان ارتعاش حاجبيه منذ وقت غير بعيد . وكرر قائلاً :

— ايه ، يا ماريا !..

ومضى ينقب طويلاً فى جيبه باحثاً عن السجائر ، وقد كانت موضوعة قربه على درجة السلم . وكانت ماريا ملتزمة الصمت ، تنظر الى الهضاب البعيدة .

ومع ان رئيس النوتية كان طول الوقت يدرك ان ليس ينبغي له طلب الغفران عن كل ما عانته بجريرته ، الا انه شعر بما يمسك بخناقه ويخنق صوته في حلقه ، ولذلك فقد انهى كلامه منذراً بفجاجة وبصوت مرتفع :

— سامحيني ، اتسمعين ؟ سامحيني ، يا ماريا !

ـ مثلما يقول اندريه ، ـ اجابت ماريا وادارت وجهها . ـ رافقتك السعادة في رحلتك ...

ومن جديد زعق البوق على الزورق . فنهض روسوماخا ، واذ ذاك وجد الكلمات كان يمكن لوحدها ان تعبر عن كل تعقيد واهمية ما كان يعاني في تلك اللحظات . فقد قال لها :

ـ هذه اول مرة لا ارغب فيها بالذهاب الى البحر .

ولكنه ذهب . فكيف كان في وسعه ان لا يذهب الى البحر ما دامت «كولا» على وشك ان ترفع مراسيها ؟

٣

كانت العاصفة قد حشدت كل قواها في النهار .

فقد كان البحر العكر المستشرس يلطم جوانح «داغو» بامواج ثقيلة عالية . وبفعل اللطمات كانت تنبعث في اعماق السفينة الميتة اصوات مديدة نائحة . وكانت الاصوات بدورها تبعث

مشاعر غير مستطابة في نفس باردوكوف ، وقد عاد لاستلام نوبته امام دولاب الدفة . فقد كان يبدو له ان «داغو» تتمطط كلما انشد الحبل الذي يقطرها ، فتقرقع فقرات حيزومها وتتخلع اضلاعها ، وانها بالنتيجة موشكة على التمزق اربا . كانت الاحلام قد تلاشت من جراء التعب وحاول باردوكوف استدعاءها من جديد ، ولكنها اقبلت قاتمة شاحبة مثل نبتات طالعة على البطاطا المخزونة في قبو . اكيد ان غاستيف لن يعطي اية اجازة ، فبعد هذه الرحلة ستكون «كولا» في التصليح ، وسيكون من اللازم قضاء ايام بكاملها في كشط الدهان العتيق عن جانبيها . ومن جراء هذا العمل المضجر الوسخ ستحمرّ العيون وترتجف الايدي .

واذ وجد ملاح الدفة نفسه منساقاً مع هذه الافكار الكئيبة ، نفض رأسه والتمس من روسوماخا ان يسمح له بالتدخين . ولكن روسوماخا لم يسمح :

ـ انك واقف في النوبـة ، ولست تجمع البطاطا ...

فحرك باردوكوف ، بانزعـاج ، شفتيـه المزرقتين بفعل الريح ، ونكاية برئيس النوتية وبالريح وبرشاش الماء ، اخذ يحاول تذكر شيء ما مبهج مفرح . ومن جديد ظهر ان احسن شيء وابهج شيء مرتبط كله بغاليا . وكان من المستطاب تذكر ابسط الحوادث واتفهها . كيف ، مثلاً ، كانا ذات مرة يتمشيان معاً وقد خرجا من النادي بعد حفلة موسيقية اقامهـا الهوآة . كان الوقت مساء . والنجوم المشعثة بفعل الصقيع تشع وتتوهج ، ومع ضيائها تترامى السكينة على الارض المتجمدة . وما كان يحتاج الامر الا أن يتوقف المرء ، وان تكف الاحذية اللبادية عن الصرير فوق الثلج ، حتى تشمل هذه السكينة كل ما حوله ، ولامر مـا يغدو من المخيف اذ ذاك خرق هذه السكينة .

حاولت غاليا ، بدافع من الارتباك ، ان تتنحى عنه . وكان الدرب بين الكتل الثلجية ضيقاً فغاصت غاليا بحذائها اللبادي في الثلج

وزلت قدمها . فقالت له ملتمسة بصوت خافت وقد توقفت :

— سأذهب بنفسي الى البيت . اذناك تتجمدان .

كان يحس بألم فى حلقه من شدة الصقيع . ولكنه ، لحماقته ، لم يشأ مهما كلف الامر ان يسدل اطراف قبعته على اذنيه ، وهو الى جانب غاليا . وها ان اذنيه الآن تؤلمانه لدى هبوب الريح عليهما .

وخبط حذاء رئيس النوتية على البرميل . فانتفض باردوكوف . وصرّ دولاب الدفة على عجل . وسأل روسوماخا ملاح الدفة بلهجة عنيفة :

— بم تفكر ؟

كان رئيس النوتية ، خلال نهاية الرحلة البحرية الاخيرة ، ينظر الى البحارة الشبان ، برغم ارادته ، لظرة جديدة . اما من حيث مظهره الخارجي فقد كان معهم ، كسابق عهده ، فجاً صارماً لا يلين له قلب ، ولكنه كان من حين لآخر يباغت نفسه وهي في حال من الاهتمام

الشديد بانـــاس يكادون ان يكونـــوا من عمر ابنه . كان جلياً ان في كل منهم لمحة من اندريه . كانوا من جيل واحد ، وقد ترعرعوا في زمن واحد .

لم يكن روسوماخا معتاداً على مشاطرة احد افكاره . فما تحدث الا لغاستيف وحده عن التقائه بماريا . وما فعل هذا الا اضطراراً . والآن ، اذ بات يفصله عن اللقـــاء الجديد لا اسابيع ، بل ايام ، بل ساعات ، فقد اصبح في غير مستطاع رئيس النوتية كتمان كل شيء في صدره . ولقد كرر روسوماخا سؤاله :

— بم تفكر ، وانت ممسك بدولاب الدفة ؟

فما كان من باردوكوف الا ان تنهد وبدل وقفته من رجل الى اخرى ، حين استوى سطح السفينة لحظة . ودافع ملاح الدفة عن نفسه قائلاً :

— الاعصار شديد ، يا رئيس . والدولاب يشاكس . . .

— طبعاً ، شديد . . . وانت ، ماذا كنت تنتظر ؟ — قال رئيس النوتية بصوت خافت . —

واما انــا فافكر طول الوقت بنفسي . طول الوقت ، لو تفهم ، افكر ... وافكر ... اتطلع اليكم ، انتم يا من حليب امكم على فمكم ... ولكن لي انا ايضاً ولد ... اصغر منكم ، ولكنه اصبح طبيبا . ايوه ، وانت تقول ...

— لست اقول شيئاً ، — نطق باردوكوف منزعجاً . — ولكن آن لك يا رئيس ان تستريح .

— سنبلغ المرسي ، فنستريح هناك . ولكن لا تشدّ ، لا تشدّ دولاب الدفــة ! اشتغل بهدوء ...

— حاضر . ولكن لا بد للمرء الآن من الدراسة ست سنوات بل ست ونصف ليصبح طبيبا . وانت تقول انه اصغر منا .

ولكن روسوماخا لم يعد يسمع باردوكوف . فقد راح من جديد يحكي مع نفسه ...

وتحت جانبي «داغو» كانت الامواج تتفجر وتتفجر في صخب وضجيج .

على قاع حجرة القبطان ، التي اتخذوهــا مسكنا لهم ، كان تشيبين نائماً في سلام ، رغم

انه.كان يتدحرج من جدار لجدار لدى التمايلات الحادة . وما عاد بعد يرى الاجاص في منامه . اغلب الظن انه كان متعباً بعد نوبة استمرت اربع ساعات .

وكان فانفانيتش يتعذب هو ايضاً بمضختة المتمردة في القعر الثالث من السفينة ، وقد بات روسوماخـا ينزل اليه الآن كل نصف ساعة . كانت المياه تتصاعد في القعر . ولكن لا الى الحد الذي يثير قلق رئيس النوتية . وقد كان يرى ان السفينة ستصمد صموداً رائعاً ، وما من خطر يهددهم : لقد بقيت ست ساعات من المسير حتى رأس كانين الذي يمكن الاحتماء خلفه من الرياح .

وكان الشاطئ قد بـات يظهر من جانب السفينة الايسر جداراً اسود متعرجاً بين السحب المتكدسة الواطئة والشريط الابيض من زبد العاصفة .

وفي ضياء النهار الرمادي اصبحت صفائح الحديد الصدئة في قسم المحركات المحطم بانفجار القنبلة في «داغو» قبيحة المنظر جداً ، وكذلك

صواريها المكسرة ومدخنتها المائلة التي لم تكن تنطلق منها ولا نفثة خفيفة من دخان .

ولكن الاعصار ، والسحب الواطئة ، والبرد الذي كان منذ وقت بعيد ينفذ حتى العظام ، وعطل المضخة ، وعترسة دولاب الدفة ، — ولكن هذا كله كان مألوفاً وعادياً طالما رآه روسوماخا وعاناه في حياته بمختلف الصور . ولذا فان روسوماخا اثناء ادائه للمهمات الموكلة اليه ، لم يكن يفكر فيهـا تفكيراً شديداً . فالغريزة المتولدة من التجربة كانت تلهمه ما ينبغـي عمله ، ومتى وكيف ينبغي ان يعمل . وقد كان رأسه اذذاك طليقاً ، والافكار عن نفسه وعن الحياة الجديدة التي سيبدأها الآن حتماً لدى عودته الى مورمانسك ، كانت تتوارد على ذهنه الواحدة اثر الاخرى وتشيع الفرحة الهادئة في نفسه .

وبناء على الكيفية التي نادته بها ماريا على المرسى ، وشدت يديها على صدرها ، وبناء على ما شعر به من الطمأنينة والهدوء في تلك الليلة اذ كان جالساً قربها في مدخل البيت ، يستمع

الى بقبقة المياه على الاوتاد ، وبناء على كثير من الاشياء الاخرى غير المفهومة لديه ، كان روسوماخا يشعر بانها ستسامحه او هي قد سامحته . وما كان يمكن ان لا يدهش لقوتها . ان كون ماريا هادئة وغير مسترعية للانتباه ما كان قط ليرتبط في ذهنه مع البسالة والثقة الضروريتين لولادة ابن وتربيتـــه في سنوات الحرب الثقال . بل هي لم تحاول مرة ان تبحث عنه هو ، روسوماخا ، وتحكي عن الابن وتطلب المساعدة ! «افرطت في تنييل القمصان ، فلا تغضب ...» حين تذكر رئيس النوتية هذه الكلمات اخذت تؤلمه اضلاعه في الجانب الايسر من صدره ، كانمـــا هو قد تلقى ضربة عليها بزجاجة بيرة . فراح روسوماخا يحك صدره من فوق مشمعه الرطب . فيتجعد المشمع تحت راحته . ومضى يردد في نفسه ويهز كتفيه :

«ايه ، ماريا ، ماريا ! .. اي شيء وجدت فيّ اذ ذاك ؟ ايه ، ماريا ، ماريا ! ..»

كانت قمرات «داغــو» المحطمة بالقنبلة تتمايل امامه ، ودفق المياه المصطخبة يسيل

على القسم الاوسط من الظهر الاعلى الى شقــوق الدرابزين .

وفي اللحظة التي بدا فيها فجأة لعيني رئيس النوتية المعتادتين ان الريح اخذت تغير اتجاهها بسرعــة خارقة ، والامواج تجــري لا في غير اتجاهها السابق ، ارتفع فوق «كولا» السهم الناري الدوري ، وصاح به باردوكوف :

– يا رئيس ، لقد اسرعوا في المسير ! ما لهم ، هل جنّوا هناك تماماً ؟!

فتمتم روسوماخا ، وهو يدير ابرة الراديو :

– يبدو انهــم يبدلون اتجــاه المسير ... وانت ، هذا ليس شغلك ... دوّر ، هيــا ، حرك ...

٤

في كل مرة كان يسوق فيها قبطان «كولا» غاستيف سفينته المنقذة في مواجهة الاعصار لنجدة اناس متعرضين للهلاك ، كان يحدث له ان يجازف ، الى هذا الحد او ذاك ، بسفينته

وببحارته . فليس يمكن للمرء ان ينجد الآخر في البحر بدون تعريض نفسه للخطر .

وانه لعمل صعب ان يكون المرء قبطانا لسفينة انقاذ . فالبحر والريح يفسحان للتفكير ثواني من الوقت . ولا بد للمرء ان يكون قادراً على الثقة بنفسه وبرجاله ، فهذا هو الامر الرئيسي . وان لا يخشى لا الله ولا الشيطان . وان يكون عارفاً بالخدمة البحرية . وان تكون له سيرة حياة تعطيه الحق في اصدار اي امر .

وقد كان كل هذا متوفراً لدى غاستيف ، بما في ذلك سيرة الحياة . فقد طالما حدث له ، وقد كان في الماضي بحاراً حربياً ، في سلاح الغواصات ، ان قابل الموت وجهاً لوجه ، حتى لم يعد تغمض له عين عند حدوث ذلك . بل ليس ثمة وقت لان ترف الاجفان وتنغمض ، اذ ان منظار الغواصة ينبثق من الماء لحظة او لحظتين ، بل عليه ان ينظر الى السماء ، والى البحر ، والى الافق . واذ ذاك يرى فجاة فوهة مدفع وانحسار للامواج تحت مقدمة نسافة تندفع نحوه مباشرة بسرعة ثلاثين عقدة .

وقد حدث له ذات مرة في البحر البلطيق ، اذ كانت الحرب في نهايتها ، ان خرج الى سطح الماء تحت منظـار الغواصة ، وسط قافلـة بحرية المانية ، وتمكن من رؤية كل ما ينبغي ، واستطاع ان يهاجم بالطوربيدات ناقلة ضخمة ، الا انه لم يتمكن من ان يحيد عن ضربة النسافة الحامية ، عن ذلك الزبد اللعين نفسه ، تحت انف السفينة الحاد . فهوت الغواصة الى قاع البحر . وقذفوها بقنابل الاعماق ، ولكنهم لم يستمروا في الضرب حتى النهاية : فقد كان طيراننا يطارد سفن العدو .

ظلوا في قاع البحر يومين يصلحون الغواصة . وقد كانت المياه الخارجية تنســاب الى حفر المدخرات . واخذ الكلور يتسرب الى الحجرات . وفي ذلك الحين انتهــى عمــل غاستيــف في الغواصات . وقد كان ، حتى في حر الحجرة العادي في السفن العائمة ، غالباً ما يشحب وجهه فينزع ياقة قميصه ويلهث ؛ فما كان من مجال للتفكير في العودة الى الغواصات .

وبعد التسريح من الخدمة العسكرية ذهب

بنفسه للتدرب على متن سفينة انقاذ ، وظل يبحر وقتاً طويلاً الى ان حصل على الدرجة المعينة لقيادة سفينة مدنية . ولدى حصوله على الدبلوم ، صعد الى متن «كولا» . وقد مضت على هذا عشر سنين .

عشر سنوات من الاعاصير ، والاقلاعات الليلية المفاجئة الى البحر ، والتحميلات المستعجلة ، والانذارات بحوادث الغرق ، وانقطاع حبال الجر ، والمجادلات مع المنقَذين ، والتقارير عن شطب الممتلكات التالفة ، والزوارق المحطمة ، وهذه المحركات اللعينة للمضخات ، التي تتعطل دائماً في احرج اللحظات واكثرها اهمية .

وقد كان هذا كله مدرسة ممتازة فينبغي له ان يكون على استعداد لأى اختبار يضعه البحر امامه .

حين قرأ غاستيف السطور المقتضبة من البرقية المرسلة بالراديو الموقعة من قبل قبطان ناقلة الاخشاب «اوديسا» ، ظهر على احدى

كفتي الميزان مصير اربعة اعضاء من بحارته ، وعلى الكفة الاخرى مصير ثمانية وثلاثين رجلاً لم يسبق له قط ان رآهم .

بعد ثلاث ساعات سترتطم «اوديسا» على الصخور ، غير بعيد عن رأس كانين . وليس يمكن الا لـ«كولا» الوصول الى هناك قبل مضي هذا الوقت . وللتمكن من ذلك ، لا بد لـ«كولا» من مضاعفة سرعتها . والريح الشمالية الغربية الخريفية الجامحة تشد ناقلة الاخشاب الى الصخور ، فليس يتسع الوقت حتى لزيادة السرعة تدريجياً . و«داغو» مقطورة خلف المؤخرة . واذا زيدت سرعة المسير بشكل حاد اشتد الضغط على حبل الجر . وقد ينقطع الحبل ، ولكن ... ولكن الوقت لا يتسع . ومهما يكن الامر ، فما دامت «داغو» مقطورة ، فلن يكون في الوسع انقاذ بحارة «اوديسا» . ان «كولا» مربوطة في مسيرها بحبل فولاذي طوله نصف كيلومتر والفي طن من الحديد الصدئ . وبمثل هذا الذيل لا مجال حتى للتفكير بالوصول الى السفينة «اوديسا» . ولا بد

ايضاً من المحافظة على حبل الجر : فليس يمكن ان يكون على متن ناقلة الاخشاب مثيل له . واذا انقطع الحبل بعد زيادة شديدة في سرعة المسير ؟ ولكنه سينقطع اما على « داغو » واما في مكان ما بين السفينتين . وتكفي القطعة المتبقية ...

وقد امر غاستيف ، بعد تلقي البرقية ، بزيادة السرعة الى حدها الاقصى . وما سأل روسوماخا عن رأيه ، لأنه ما كان يشك في رئيس نوتيته . فلا بد لهذا ان يفهم ان استخلاص حبل الجر وانزال زورق النجاة ومحاولة انقاذ الرجال من « داغو » من شأنها اضاعة ساعتين من الساعات الثلاث ، المتطلبة جميعها حتى الدقيقة الاخيرة ، للوصول الى رأس كانين قبل ان ترتطم السفينة المنكوبة بالصخور .

دفع المساعد الاول لدى غاستيف مقابض جهاز اللاسلكي . فرن الجرس في قسم الماكنات .

واندفعت « كولا » بعنف الى امام .

وانصبت موجة على جانبها الايمن فغمرت المقدمة . فاخضوضر الضوء لحظة في قمرة

القبطان : ذلك ان الرشاش قد غطى الزجاج بمسيل متصل من الماء .

لم يتمكن ملاح الدفة من الامساك بالدولاب ، فانزلق ومضى من هناك على الارض المبتلة الى باب القمرة .

كان الميلان شديداً ، حوالى خمس واربعين درجة .

– قــف على قدميك ! –صــاح غاستيف مغضباً .

– حاضر ! – اجاب ملاح الدفة ، وتمسك بالاحزمة المثبتة تحت النوافذ ، وارتد الى دولاب الدفة .

وصاح المساعد الاول :

– في مثل هذه السرعة لا يصمد حبل الجر اكثر من ساعة !

ودس لفافة التبغ الى زاوية فمه وكشّر .

واجاب غاستيف :

– كلا ... كلا ، لا يصمد ساعة . بل اربعين دقيقة . وذلك هو الحد الاقصى . هل لديك اقتراحات اخرى ؟

فلم يجب المساعد الاول . وارتفعت موجة اخرى من ناحية الجانب الايمن ، وكان ينبغي الاستعداد لملاقاتها . فتشبث بالدرابزين وطوى رجليه .

وانزلت الموجة ضربتها . وارتجّت «كولا» ومالت على جانبها الايسر . واخذ ملاح الدفة يطلق الشتائم العنيفة . وانحسرت الموجة ، فاستقامت السفينة ، وشعر الجميع بصدمة اخرى ضعيفة . وصاح المساعد الاول :

– الحبل يحتك ! وظل غاستيف صامتا . فقال ملاح الدفة :

– الآن ستصل الموجة الى «داغو» .

وتوترت تقاطيع وجهه وتقلصت عيناه . وكان دولاب الدفة يدور ببطء وحذر . وكان جهاز المراقبة يطقطق بادوات وصل التيار الكهربائي . واخيرا ارتجّت «كولا» واقعت على مؤخرتها ، كالحصان المنكفئ وهو في عنفوان عدوه . وبفعل الصدمة ارتطم طرف قبعة غاستيف بزجاج النافذة . واندعك طرف القبعة .

– وصلت ! – صاح ملاح الدفة وادار الدولاب بسرعة ؛ وصمد حبل الجر .

– ايها المساعد الاول ! – قال القبطان آمرا : – ابلغ «اوديسا» اننا قادمون اليها . اعطهم احداثياتنا . سرعة مسيرنا تسع عقد . وادع روسوماخا للمخابرة . انا سأتكلم معه . انا نفسي .

ومشى المساعد الاول على جناح القمرة ، متشبثا بكل ما يصادف في طريقه ، واخذ ينظر الى ما وراء المؤخرة .

كانت «داغو» تتأرجح على حبل الجر على بعد ثلاثمئة متر من المؤخرة ، وسط سحابة من رشاش الماء . والحبل يظهر بكامله من تحت الماء حينا ، ويهبط ويتلاشى تحت الماء حينا . وكان عندما يتوتر يشق بطن الماء والريح تنفخ الرذاذ ، فيخيل للناظر ان ثمة خرقاً رمادية تتموج على الحبل .

وبصق المساعد الاول لغاستيف بصقة لزجة ، ووضع مسدس الاشارة الثقيل «فيري» على رأس البروجيكتور ، واطلق النار ، داعياً

روسوماخا للمخابرة . وكانت قد مضت قرابة ثلاث دقائق منذ اللحظة التي تلقى فيها غاستيف البرقية حتى هذه الطلقة .

وبناء على شدة ابتعاد السهم الناري ـ اذ انفجر في مكان ما فوق الشاطئ ـ تجلت قوة الرياح الهائلة في الاعالي .

ونزل غاستيف الى قسم اللاسلكي .فانتفض عامل اللاسلكي عن مقعده مخلياً اياه للقبطان .

ـ هات «داغو» ،ـ قال غاستيف ، وهو يترامى على مسند الكرسي المنحني ، وتناول السماعتين . كانتا دافئتين : فقد سخنتا على رأس عامل اللاسلكي . ونظر القبطان الى يديه . كانت سبابة اليد اليسرى ترتعش ارتعاشاً بالكاد تلحظه العين . فما استطاب غاستيف هذا . فوضع يديه على الطاولة ، مباعدا بين اصابعه القصيرة المنمورة بالنمش .

ـ ايوه ،ـ قال غاستيف في الميكروفون وقد سمع صوت روسوماخا .ـ اني اسمعك جيداً ،

يـا زوسيمـا سيميونوفيتش . اسمعك جيداً جداً ، يا رئيس النوتية .

وقدم عامل اللاسلكي الى القبطان صفحـة نظيفة للبرقيـات . فقد كان يظن ان القبطـان سيسجل شيئاً ما ، ولكن غاستيف دفع الورقة . فقد كان اقل حبا للورق وللكتابة منه للمحادثات.

ـ نعم ، لقد غيرت المسار قليلا وزدت سرعة المسير . وانا الآن ، يا زوسيما ، اعمل بمنتهى السرعـة ، وقد يحدث كل شيء ... ـ قـال غاستيف بتأن وانزلق من مسند الكرسي الى مقعده . وحين استقرت جلستـه اخيرا رفع قبعته واخذ يتفحص طرفها المدعوك . ـ هل تسمع كل شيء ، يا زوسيما ؟ .. هاك اسمع ، ناقلة الاخشاب «اوديسا» . ثمانية وثلاثون رجلاً . عما قريب سيكونون على الصخور قرب كانين . وليس في بحر بارانتز الآن اية سفينة غيرنا . هل فهمت كل شيء ؟ ما الآراء التي عندك ؟ استقبال .

ولبث الميكروفون صامتاً . واخذ غاستيف ينظر الى اطار الميكروفون المطلي بالنيكل ويرى

فيه وجهه ، مستطيلاً مشوها تشويها اخرق .
وامتد الوقت امتداد حبل الجر المبلل على جسر السفينة ، متشبثا بكل شق في الخشبات . وكان في فترة السكوت هذه ما ادهش غاستيف . بل لقد راح يشيل بكتفيه تعبيراً عن الاستغراب . فقد كان يعلم ان روسوماخا لا يمكن ان يضيع الوقت عبثاً في مثل تلك اللحظة . فسأل من جديد وهو يفك طوق صدريته بيديه الاثنتين ، وقد شحب وجهه :

– كيف فهمتني ، كيف فهمتني ؟ هل تسمعني ، يا رئيس النوتية ؟

– اسمعك .

فقال عامل اللاسلكي :

– ليس هذا صوت رئيس النوتية ، ايها الرفيق القبطان .

فصاح غاستيف :

– من على الخط ؟

– انا على الخط . انا، روسوماخا .

– فلماذا انت ساكت ، بحق الشيطان ؟ –

صاح غاستيف ، نازعاً شاله عن عنقه . ثم امر عامل اللاسلكي قائلاً :

– افتح الباب وادعمه بالسنّادة . فالجو الآن خانق .

– واي مجال للكلام ؟ اذا كان حبل الجر يتقطع ... واذا كنتم تكفّون عن توجيه مقدمة سفينتنا وجهة مقابلة للموج .. فان هذه العلبة الصدئة لن تصمد طويلاً ...

قال روسوماخا ما كان غاستيف نفسه يعرفه جيداً بما فيه الكفاية . فما الداعي للكلام عما هو مفهوم ؟ اكيد ، ان الوضع شاق ثقيل . ان للاربعة في «داغو» حظاً ضئيلا في الخلاص ، ولكنهم بحارة انقاذ ، فلا يصح لهم التباكي ، بل ينبغي ان يصارعوا حتى النهاية . وروسوماخا هذا يجب ان يكون احسن من الآخرين فهما لهذا .

وبصوت خافت غير مالوف اردف رئيس النوتية يقول :

– اذا اخذت «داغو» تنغمر بالمـــاء من سطحها ، فسنهوي معها الى القاع . واذا صمدت

«داغو» ساعتين فستُطرح بنا على الصخور قبيل الساحل ، فسنهوي الى القاع ايضاً . وثمة برد ، ايها القبطان ...

وبعد ذلك سُمع روسوماخا يضحك ببطء وبصوت اجش .

فيما مضى كان غاستيف يقتصر على الدهشة والاستغراب . امــا الآن فقد اغضبته ضحكة رئيس النوتية .

ولكن غضب غاستيف ، وقد غضب حقــاً وصدقاً ، هو بالضبط الذي اعانه على اصدار امر شديد الوطأة . لقد كان امام الاربعة في «داغو» ان يعانوا الكثير . ولزام عليهم ان يتصرفوا التصرف اللائق ، اُفٍ لهم !

وشد غاستيف على قبضتيه وقــال ببطء مخرجاً كلماته من بين اسنانه :

— انت ، يــا رفيق روسوماخــا ، بحار انقاذ ! وقد وافقت بمحض ارادتك على السير في مواجهة الاعصار ورفضت الذهاب الى الميناء الملجــأ ، والآن ... ليس لــديّ الوقت ولا الامكانية لانتشالكم . فهذا يتطلب ساعات . ان

«اوديســا» سترتمي على الصخور لدى رأس كانين اذا لم تطلقوا الحبل وتفسحوا ل «كولا» مجال الانطلاق . انت نفسك تدرك هذا . واني لاسألك الست تفهم هذا ؟

وصمت الميكروفــون . ثم قــال غاستيف بلهجة صارمة :

ـ هكذا . عليك ، بالدرجة الاولى ، ان تبلغ رجالك عــن كل هذا . لديكــم حظ في الخلاص بنسبة خمسة بالمائة . فالسفينة فارغة خفيفة ، واذا حُشرتم بين الصخور بشكل موفق خفيفة ، فستصمدون حتى عودتنا ...

فقال رئيس النوتية باقتضاب :

ـ فهمت .

وسمع تكتكة في الميكروفون . فقد اغلق روسوماخا الراديو .

وتمتم عامل اللاسلكي وهو يمسح العرق من وجهه :

ـ انه مشفق على الفتيان . اما زوسيمــا نفسه فلا يخاف شيئاً حتى ولا الشيطان ...

فقال غاستيف :

– كلا . ليس الامر هنا هكذا ... ولكن ليس لدينا مخرج آخر .

كانت «كولا» تتوثب مندفعة من موجة الى موجة . والنترات العنيفة ترج هيكلها الثقيل . والسكون مخيّم في جميع اقسامها . سكون ناجم من كون الرجال صامتين . فقد كانوا يسمعون هذه النترات وينتظرون لحظة توقفها . وكانوا في خوف من هذا . كانوا يعلمون ان حبل الجر سينقطع عاجلاً ام آجلا . والنترات ستتوقف عاجلاً ام آجلاً .

وقد كان السكون في قمرة القبطان ثقيلاً بوجه خاص .

– لبست جاكيت تشيبين ! – قال ملاح الدفة بصوت عال . – الجاكيت هدية لتشيبين من فتاة ! في جزيرة ديكسون ! واما الآن فهو ...

فقال غاستيف بغضب :

– بدّل ملاح الدفة !

– منذ قليل بدأ عمله ... والرجال متعبون ! – قال المساعد الاول .

فصرخ غاستيف :
– بدّل ملاح الدفة !
وتم تبديل ملاح الدفة .
كان قبطان «كولا» على معرفة قديمة بروسوماخا . وقد كان على الدوام يبعث برئيس النوتية الى اخطر الاماكن ولم يخب فيه ظنه ولا مرة . وانه الآن ايضا ليعتقد اعتقاد الواثق كل الثقة بان زوسيما سيفهم كل شيء على الفور . ولن يطيل زوسيما الكلام ، ولسوف يأخذ على عاتقه قسماً من مشقة اتخاذ القرار . فليس ثمة من سبيل آخر . كلا لا يوجد ! وهو لذلك قد زاد سرعة المسير ...
واطل رأس عامل اللاسلكي من باب القمرة .
– ايها الرفيق القبطان ! ضوء منارة كانين بات مرئياً من السفينة «اوديسا» . يطلبون منك مزيداً من السرعة . من جراء التمايل تعطل عندهم المرجل الاول ... الماء عندهم في مكان ما لا يصل . غير مفهوم الى اين ...
– يطلبون ! ابلغهم اني مربوط بعمل الجر ! ولست استطيع انتشال الرجال من

«داغو» ! ولست استطيع زيادة السرعة اكثر مما هي ! ليرخوا سلاسل المراسي ولينتظروا ! انصرف !

– ماذا يقول روسوماخا ؟ – سأل المساعد الاول .

– ضاع صوابه ، – اجاب غاستيف والتفت معرضاً عنه .

اجل ، ما كان روسوماخا اقل معرفة من غاستيف برأس كانين كيف يكون في مثل هذه الاحوال الجوية ، اذ تكون الرياح شمالية غربية من الدرجة التاسعة : الصخور المشققة غير العالية ، والمباني المنفردة الصغيرة حول المنارة ، وبرج المنارة الاحمر ، والصخور المحدودبة المسطحة ، المنثورة على بعد ميل ونصف من الرأس ، والزبد من فوقها : ذلك ان الامواج المحطمة بالصخور تتطاير جانبيا بسرعة عاصفة . ان في انتظار اولئك الثمانية والثلاثين لمصيراً سيئاً هناك .

ولكن ربما لا يزال لديهم امل ، هو المراسي ؟ ولكن كم تستطيع المراسي الثبات في قاع صخري ، حين تلطم السفينة امواج متحفزة من الجانب الآخر من المحيط ؟

ايه ، ماريا ، ماريا ! .. ومن هي بالنسبة له حسب القانون ومن هو بالنسبة لها ؟ ليس لها اية صفة . ولن تنال شيئاً من تقاعده ! والابن ... ليته يراه ولو مرة ، فيجس كتفيه ويشد على يده ...

«اذا لم تطلقوا الحبل وتفسحوا ل«كولا» مجال الانطلاق ...» يا له من امر مبهج فعلاً !

ـ ماذا كانت تقول «كولا» ؟ ـ سأل باردوكوف . وهو يغص بالهواء . ـ ليعجلوا بتخفيف السرعة ! يا رئيس ! ماذا يقولون هناك ؟ !

ـ طيب ، زادوا السرعة ، فليكن ! ولماذا تصرخ ؟ ـ قال روسوماخا لملاح الدفة ولوح بيده تعبيراً عن النفور منه : انه لن يبلغ البحارة كل شيء ! فليس ينقصه الا هذا !

وانه لحسن جدا ان كان البحر في مثل هذا الصخب والضجيج : فالمرء يسمع صوته سماعاً سيئاً . فكيف سماع الراديو ... ولكن باردوكوف الطويل هذا يتطلع بنظرات تنطوي على الكثير من الشك ... وقد يتصلون هم انفسهم بـ«كولا» ، واذ ذاك ...

واما ما سيحدث اذ ذاك ، فلم يمض رئيس النوتية الى التفكير فيه . وقبل ان يذهب على عجل من العلّية للقيام بجولة تفتيشية في السفينة ، سحب قاطعة التيار من الراديو خفية ودسها في فمه ، بين اسنانه وخده . فقد كان هذا ، لأمرما ، ادعى الى الطمأنينة .

كان النهار القصير قد انتهى . وتكاثف سريعاً الضباب النديّ الذي كان يرتفع فوق البحر المصطخب . واختفى الشاطئ من خلفه ، فلم يعد المرء يرى من حوله شيئاً خلف حلقة السحب . لم يكن ثمة غير سفينتين مربوطتين احداهما بالاخرى بخيط حبل الجر ، تتأرجحان على الامواج وتخترقانها ، طارحتين عن متنيهما عبء الامواج المتلاحقة .

نزل روسوماخا الى تحت ، وراح يقيس مستوى المياه في قعر السفينة . وكان يفعل هذا بدقة وبغير استعجال . وسأل فانفانيتش لماذا اشتدت النترات . فما اوضح له رئيس النوتية شيئاً .

ـ آن وقت العشاء ،ـ قال فانفانيتش .

وما قال هذا الا ليظهر اي بحار مقدام هو ، وكيف لا يؤثر عليه الارتجاج .

ـ سنتمكن من العشاء ،ـ اجاب روسوماخا ، ومضى الى قسم المحركات لتفحص المساند في المكان الذي كانت قد انفجرت فيه القنبلة . ثم صعد الى متن السفينة واستلقى طويلاً تحت طنف مقدمها ، مراقباً حبل الجر . كان مقدم السفينة يتطاير الى السماء ويهوي الى تحت ، تماماً مثلما كانت الحال لاربعين عاماً خلت ، حين نزل زوسيما البحر للمرة الاولى وعض فخذ القبطان السويدي . ان كل شيء يتكرر في الحياة ... سوى ان ثمة اليوم قبطان غير ذلك تماماً ينتظر منه ، هو رئيس النوتية البسيط ، العون والنصح ،واما هو ؟

اليوم ، تصرف هو ، روسوماخا ، غير التصرف المطلوب دائماً في البحر . اذن ، لقد استسلم اليوم للبحر وافسح له مجالاً لتعكير روحه ؟ وها هو الآن مستلق تحت طنف مقدم السفينة ، ينظر الى حبل الجر . ولا يريد لهذا الحبل ان ينقطع . وتذكر قبطانا آخر ... ذاك الذي سلمه الوسام : «ولكنك كسبت هذا بشرف ...»

لم يكن يظهر على الحبل اذ ذاك ما ينذر بقرب الانقطاع ، فقد كانت جميع خيوطه الحديدية المجدولة صامدة . وقرر رئيس النوتية ان الحبل سيصمد ما لا يقل عن ساعة حتى في هذه السرعة من المسير . فليس عبثاً كان هو نفسه يرغم بحارة «كولا» من شهر لآخر على تلويث انفسهم من القدم حتى الرأس ، وهم ينظفون الحبل ويشحمونه بالدهان الذي اعده بنفسه من الشحم والغرافيت . فما كان يمكن ان يعثر المرء على اي خيط حديدي صدئ في حبل الجر البالغ مئات الامتار . والآن تؤدي هذه الخيوط واجبها ...

وعاد روسوماخا الى القمرة يصم اذنيه صخب الامواج في تلاطمها على مقدمة «داغو» وقرقعة اوعية الاوكسجين المدعَّمة لرباط حبل الجر على سطح السفينة .

كل شيء يمكن ان يتغير . فاذا ما صمد الحبل الى ان ترتمي ناقلة الاخشاب على الصخور ، واذ كانت «كولا» سيفوتها الوقت في الاسراع الى اولئك الثمانية والثلاثين فتخفف من سرعتها ، فلسوف يجلس مع ابنه بعد بضعة ايام حول طاولة واحدة . الراجح انه قد تعب من كل هذا البحر . والله انه قد تعب . اكيد ان العادة قوية : فالبحر جذاب . ولكن لا بد للمرء ان يعرف الحد الذي يقف عنده . ولو انه قال لغاستيف ، في الليلة الماضية ، كلمة صغيرة واحدة لكانوا الآن واقفين في بوغرينو ولكان كل شيء في هدوء وسلام . ولكنه كان مستعجلاً . كان للمرة الاولى في حياته مستعجلاً الى البر ، الى المرسى الخرساني ، الى البيت الصغير قرب علامة

الاشارة الساحلية ، وها هو من جراء هذا قد وقع في مثل هذه المعضلة التي منها ...

– وماذا حدث ، مع ذلك ، يا رئيس ؟

– صاح باردوكوف .

كان وجهه قد عراه النحول ، وعيناه قد غارتا . وكان شديد الانطواء على دولاب الدفة . فقد كان من المرهق جداً المحافظة على اتجاه «داغو» فوق مثل تلك الموجة .

ولاذ رئيس النوتية بالصمت . الا فقل لهم الحقيقة ترهم ما ان يسمعوا عن «اوديسا» حتى يهرعوا جميعاً الى مقدمة السفينة فيقطعوا الحبل . فهم حريون بالانقضاض على الفرصة المتاحة لدق اعناقهم . ولكن الديهم الجرأة الكافية للانقضاض ليلاً فرادى من السفينة والسباحة في الليل الفاحم – بدون نجوم ولا قمر – مسافة عشرة اميال الى الشاطئ ، كما فعل هو هذا ذات مرة ؟ بل لقد كان ينتظر ايضاً ان يلتهمه كلب البحر او يضعونه في الحبس على الشاطئ لأن السفينة التي تركها

قد بقي فيها «الشيف» ـ المساعد الاول لقبطان السفينة التجارية الاميركية ، الذي ضربه حتى اوشك على الموت . لقد ظل روسوماخا طول حياته يتذكر السفينة ـ البرادة الاميركيـة ، وفنطيسة «الشيف» ، وتلك الرحـلات من استراليا الى سيبتل ، وقول «الشيف» له : «انت وسخ روسي مقرف !» وهـذا مـا لا ينبغي نسيان الحديث عنه لاندريه . فقد اظهر اذ ذاك للجميع ما يحدث حين يهان الروسي . ولقد فعل هذا من اجل صحابه جميعاً ، من اجل الروس والسوفييتيين جميعاً . اي نعم . لا بد ان هذا سيطيب لاندريـه . وانـه ليعرف هذا جيداً ، فما كان عبثاً تأمله طول هذه الرحلـة لفانفانيتش وتشيبين ولباردوكـوف الطويـل . انه الآن يعرف هؤلاء الفتيان تمام المعرفة ... فصبراً ، يا زوسيما ، صبراً ... صبراً ، ايها الاحمق العجوز ... ولكن اذا عرف ابنه بهذا ... بهذا الذي الآن ...

واحس روسوماخا بالحموضة في فمـه من قاطع التيار الذي يمصه طول المدة الاخيرة ،

مثلما تمص قطعة كاراميل ، ناسياً سبب نزعه اياه من الراديو قبل عشرين دقيقة ، اثر محادثته مع غاستيف . في مكان ما ، قدّام ، في الظلمة والضباب الثلجي ، سيهلك عما قريب ثمانية وثلاثون من جماعته ، من الرجال الروس . فماذا سيقول ابنه حين سيعلم بنبأ قاطع التيار اللعين هذا ، ويعرف كيف كان ابوه على خوف من عزيمة ورجولة بحارته الشبان ؟ واخذت روسوماخا الرعدة .

ما كان الثمانية والثلاثون بحاراً على السفينة «اوديسا» بمرئيين ولا مسموعين من قبل روسوماخا . حتى طقطقة اشارات مورس التي اكدت ل«كولا» حقيقة وجود هؤلاء الثمانية والثلاثين وقربت مصيبتهم وجعلتها مفهومة ، لم يتمكن رئيس النوتية من سماعها وهو جالس على برميله في قمرة مؤخرة «داغو» .

ولكن روسوماخا بالذات ما كان براغب قبل وقت قريب جدا في ان يسمعها ، ولا كان راغباً في تصور هؤلاء الثمانية والثلاثين من الرجال الاحياء الدافئين ، وتصور طباخهم او

قبطانهم او رئيس نوتيتهم . واذ تذكر ابنه خطر له فجأة ان رئيس نوتية «اوديسا» هو في الاغلب اشقر مثله . اغلب الظن ان رئيس نوتيتهم يتنقل الآن ايضاً على سفينته الناقلة للاخشاب ، ويجس الجانبين ، ويعدّ المضخات والسدّات ، ويتفحص التدعيمات لحبل الجر .

وربما يكونان قد التقيا مراراً في مكان ما في رصيف ميناء نوفوروسيسك او كورساكوف ، بل ربما يكونان قد صفعا احدهما الآخر في وقت ما . فكل شيء ممكن في الحياة . كل شيء ممكن في البحر . «رئيس نوتيتهم رجل رائع !» ـ هكذا قرر روسوماخا بغتة ، ونتيجة لهذه الفكرة اتضح شيء ما فجأة في ذهنه .

ـ اليكسي ! ـ صاح روسوماخا منادياً باردوكوف . ـ عند رأس كالين فتيان معرضون للهلاك ! اوديسّيون !.. ثمانية وثلاثون رأساً !.. غاستيف يسرع اليهم . فاهم ؟ اي نعم ... رئيس نوتيتهم اشقر مثلي ... وانا اعرفه ، هذا الملعون ، من زمن بعيد !

ـ ماذا !

– اقول ان رئيس النوتية عندهم اشقر ، فاهم ؟
– اشقر ؟ واذا القطع حبل الجر ؟ آ ؟ – وفي الحال طارت الاحلام والذكريات من رأس باردوكوف .
– كل شيء ممكن ... – اجاب روسوماخا .
– ينبغي تنبيه الشباب ، يا ريّس !
– ماذا ، هل تعبت ؟ هل تود النزول الى تحت ؟ طيب ، رح لتحت ، دخّن .
ودفع رئيس النوتية بملاح الدفة دفعة خفيفة صوب الباب ووقف هو نفسه قرب دولاب الدفة . ايه ، يا لحماقة الشباب ! لا يفهم حتى مثل هذا الامر البسيط : ليس يمكن لـ«كولا» ان تنجد احداً ما داموا مربوطين بذيلها ...
كانت «داغو» تستعصى على الدفة وتترنح . فانذرها رئيس النوتية وهو يصر باسنانه :
– اصطبري ، فما انا من الجبناء !
وما لبث ان نسي كل شيء . فالاحساس المتولّد لدى المرء وقت يصارع البحر

بساعديه ، شاعراً عن طريق مقابض دولاب الدفة بكل نفس من انفاس البحر وكل ضربة من ضرباته ، قد استيقظ في نفسه وسيطر عليها منذ ان حطت يداه على هذه المقابض .

وعاد باردوكوف فابلغ رئيس النوتية وهو يستلم منه دولاب الدفة :

– فانفانيتش يعاني دوار البحر . رائحة البنزين تفوح في قعر السفينة . هذا سبب ما حدث له ! ..

فلم يرد عليه روسوماخا : ان مقدمة «داغو» قد بلغت من شدة الارتفاع فوق الموجة التالية بحيث غطت «كولا» والبحر كله قدامها . وشد رئيس النوتية على فكيه بعنف : فاذا ما توتر الحبل الآن ، فسينقطع في الارجح !

ولكن «داغو» تخطت الموجة .

وابصر روسوماخا «كولا» لحظة ، والامواج تنحسر خلف مؤخرتها العريضة ، وسحابة من دخان مائلة قرب مدخنتها ، ثم هوت «كولا»

خلف ذروة الموجة التالية ، وغابت عن العين من جديد . وبناء على الخفة النسبية التي تخطت بها «داغو» جبل الماء الجسيم ، وعلى حجم الامواج المنحسرة خلف مؤخرة «كولا» ، خيّل لروسوماخا ان «كولا» قد خففت من سرعة مسيرها . وكذلك اصبحت النترات اخف ، واما حبل الجر فكان لا يكاد يظهر من تحت الماء . لقد خففوا سرعة المسير . فماذا جرى لديهم ؟ هل ترى توجد حمولة على متن ناقلة الاخشاب ؟ ان ناقلات الاخشاب تحمل عليها دائماً اكوام من الخشب على متنها مباشرة . ومن جراء ارتطام السفينة على الصخور ، ومن جراء الرجّة ، ستتطاير الاخشاب من هذه الاكوام اول الامر مسقطة في طريقها كل شيء . وبين الصخور القريبة من الشاطئ يكوّم البحر جبالاً من القرم والالواح المبعثرة بفعل الامواج ...

وادخل روسوماخا يده الى صندوق الراديو ... لم تكن «كولا» تدعو للمخابرة ، ولكنه كان راغباً في معرفة سبب تخفيفها سرعة

مسيرها وماذا جرى لاولئك الثمانية والثلاثين .
فوضع قاطع التيار في مكانه وامسك بزر الادارة .

ودخل فانفانيتش قمرة المؤخرة بعد ان فتح الباب المنتفخ بالماء بصعوبة . كان وجهه قد اصبح رمادي اللون بفعل دوار البحر ، وشعره المتلاصق من اثر الشحم معلق فوق عينيه .

ـ عندي ماغنيتو لاشعال المحرك ، يا زوسيما سيميونوفيتش ، في المضخة الثانية ... ينبغي تبديلها ، ولكني نسيتها ... والذنب يقع عليّ في ان المضخة قد تعطلت ... لا ادري ماذا عليّ ان اعمل ...

وكان فانفانيتش يعترف بذنبه بصوت خافت ، ومن جراء صخب البحر لم يفهم رئيس النوتية شيئاً . فسأل بغضب :

ـ ماذا ؟ ! ماذا ؟ !

فلوح ملاح المحركات بيده ثم مسح وجهه بخرقة ، وانطلق خارجاً من القمرة .

نزل فانفانيتش الى المضخة واخذ يشتغل بها من جديد . ومن حين لآخــر كان يحــس بالغثيان . وكانت المفاتيح اللولبية والادوات تتدحــرج مبتعدة عنه لدى ميلان السفينــة الشديد . وكان نور المصباح الكهربائي يضعف ويحمرّ : فقد اوشكت البطارية على النفاد . وكانت الظلمة تزحف اكثر فاكثر على فانفانيتش ، والسائل الاسود يرتفع من اعماق قعر السفينة باستمرار . ولكن فانفانيتش كان يحاول عدم الانتباه لكل هذا ، بل وعدم الانتباه لسحب الدخان الخانق التي كان المحرك ينفثها في انفه مباشرة . انه ملزم باصلاح المضخة . ملزم . فهو بحار انقاذ ، وقد تقدم هو نفسه لممارسة هذا العمل .

لم يكن تخيلاً ما شعر به روسوماخا : فقد خففت «كولا» سرعة مسيرها فعلاً . وغاستيف هو الذي فعل هذا على كل حال . فمــا كان بوسع «كولا» ان تنقل «داغو» الى مكان مأمون وترتد بعد ذلك نحو ناقلة الاخشاب . فلماذا

المجازفة ، وزيادة السرعة ، والمخاطرة بانقطاع حبل الجر ؟

ليس يمكن لقبطان سفينة الانقاذ المخاطرة برجاله من غير موافقتهم . ومـا كانت لدى غاستيف هذه المرة القوة المعنوية الكافية لكي يقرر هذا بالنيابة عنهم . لاسيمـا وقبطـان «اوديسـا» قد اعلن على الموجة العامـة «للجميع ، للجميع ، للجميع» ، باسم بحارته ، انه لا يستطيع قبول مساعدة سفينة الانقاذ «كولا» لان في ذلك خطرا على حيـاة بحارة «داغو» . لقد كان قبطان ناقلة الاخشاب رجلاً شهماً . وبهذه البرقية رفع عن كاهل غاستيف اية مسؤولية عن مصير رجاله ، وسفينته . وقد استلم الجميع البرقية . وسجلوها في العشرات من ضبوط الاتصـالات اللاسلكيـة في مختلف الموانئ ، وفي العشرات من ضبوط النوبات في السفن البعيدة .

خفف غاستيف سرعة المسير ، لاعناً اليوم والساعة اللذين وافق فيهما على قطر «داغو» .

انهم الآن ، على ناقلة الخشب «اوديسا»

منساقون مع التيـــار ، بعد ان ارخو سلاسل المراسي حتى نهايتها ، ينتظرون وقت تمس المراسي قاع البحر ...

لم يعد غاستيف ينزل الى حجرة الراديو للمخابرة مع روسوماخا بنفسه . فكان عامل اللاسلكي يرد على نداءات رئيس النوتية وقد صاح قائلاً :

ـ اعلنوا رفضهـــم ، على الموجة العامة ! وكيف الحال عندكم ؟ ابلغوا عن مستوى الماء في قعر السفينة ! قدّم ، قدّم النشرة ، يا رفيق روسوماخا ! النشرة ...

فاغلق روسوماخا الراديو .

لقد طالما سمع باردوكوف في حياته كيف يطلق الروس الشتائم في بعض الاحيان ، وعلى الاخص رؤساء النوتية ، اما الكيفية التي كان رئيس النوتية يطلق فيهـــا الآن شتائمه فقــد اخافته . اذ ادرك من ذلك ان ثمة شيئاً رهيباً يوشك ان يحدث .

وخرج روسوماخا من القمرة . فقد شعر بان الجو فيها خانق .

وصعـــد رئيس النوتيـــة الى اعلى مكان في « داغو » – الى الجناح المحطم من قمرة القيادة – وكان واقفا هناك لوحده ، متشبثا بالدرابزين الصدئ ، مرخياً عليه كل ثقل جسمه ، وقد اوغل البرد حتى عظامه .

وتحت ذلك المكان كان البحر . انه يتخبط وينقلب عاليه على سافله .

وقدّام ، فوق الامـــواج ، كانت صواري « كولا » تظهر تارة وتهبط تارة اخرى ، مصلبة كل شيء حولها بمشابكها السريعة الخفقان . وحبل الجر يشق الامواج شقاً . وفوق مقدم السفينة يرتفع رشاش المـــاء كانه منطلق من نوافير .

وتقدم فانفانيتش ببطء من رئيس النوتية ، وهو يتزحلق ويحجب عينيه بيده . وصاح في اذن روسوماخا :

– تشتغل ! تشتغل ! اصلحتها ! المضخة في القعر الثاني اصبحت تشتغل ، ايها الرفيق رئيس النوتية !

– ليأخذها الشيطان ! رح ايقظ تشيبين ،

وتعال معه الى القمرة . في ناقلة الخشب رفضوا النجدة ... بسببي رفضوا ...— كان رئيس النوتية يتكلم بصوت خافت ، والريح وصخب البحر يطمسان كلماته . فما فهم فانفانيتش عمّ كان يتكلم رئيس النوتية .

فظل واقفا لا يبارح الجسر الضيق . كان راغباً في ان يمتدحه رئيس النوتية . فقد اصلح تلك المضخة العنيدة في القعر الثاني .

واشتعلت على «كولا» الانوار المنبئة بالمسير . ومن جديد شع الضوء الاحمر في مؤخرتها .

— فاسيا ! — صاح روسوماخا وعانق فانفانيتش . — اسرع بالنزول الى تحت ، وايقظ تشيبين ... وتشاوروا فيما بينكم : «اوديسا» رفضت النجدة ! بسببنا ! يجب قطع حبل الجر ! افهمت ؟! حبل الجر ! كما تقررون سنفعل ... وقل لباردوكوف : فليشعل الانوار الكاشفة ...

فهز ملاح المحركات رأسه موافقاً بصمت واخذ ينزل الى تحت على عجل .

واخيرا بقي رئيس النوتية لوحده من جديد . فتناول لفافة تبغ ، ولكن علبة الكبريت كانت قد تبللت . واذ ذاك اخرج روسوماخا من بطانة ثوبه ذخيرة الوقود التي لا تمس ، وهي حفنة من عيدان الكبريت موضوعة في غلاف من مطاط . وشرع يدخن . ما كان يشك فيما سيقرره الآن هؤلاء الفتيان . وهل ترى كان يمكن لابنه ان يقرر امراً آخر ؟ ولكن ليس هذا ما كان يعذبه الآن ...

على بعد عشرة امتار ، تحته ، كانت الامواج الهائجة تارةً تتلاطم على «داغو» ، وتارة تحدودب فتغطس تحت جانبيها . ولم يكن من عادة روسوماخا الوقوف مرتفعاً عنها الى هذا الحد . فالقباطنة والربابنة هم المعتادون على الوقوف عالياً فوق البحر ، على جسر القيادة الضيق ، اما رئيس النوتية فيبقى دائماً قربها تماماً ، بحيث يمكن ان يلامس الامواج بيده . ان مكان عمل رئيس النوتية هو سطح السفينة ، فليس له شأن في التسلق الى فوق .

... في وسع البحر ان يغرق السفن ، وان يخرب المراسي ، وان يقتل الناس . وقد فعل هذا دائماً . وانه ليفعله الآن ايضاً ، ولكن ارهب شيء واشده تنغيصاً انما يكون حين يعكر البحر نفوس الناس . انه هو نفسه الذي قدم نفسه للذهاب على هذا الماعون المخرّق في مواجهة الاعصار ، ولكنه افسح للبحر فيما بعد مجال تعكير نفسه . فكم اضاعت «كولا» من الوقت حين خففت من سرعة مسيرها بسبب من تقلبه وتردده ؟ فهل تراها تتمكن الآن من نجدة «اوديسا» ؟ وهل سيغفر له الفتيان الذين باسمهم رفض منذ وقت قريب اطلاق حبل الجر من «داغو» ؟ وهل سيغفر له ابنه حين سيعلم عن كل هذا ؟

اشعلت «كولا» البروجيكتور .ففتح الشعاع الزرقاوي الباهر ثغرة في ظلمة المساء وراح يلطم عيني روسوماخا محدقاً فيهما كانما يمعن النظر تحت حاجبيهما الاشقرين المبللين ، متسائلاً منذراً . فاسدل روسوماخا قبعته على

عينيه . ومن قمــرة «داغو» المخربة كانت
تتحرك على سطح السفينة ظلال زرقاء .
كانت الدقائق تمر . وكل واحدة منها تثقل
القلب وتمزقه . بمثل هذا الثقل تحط المرساة
على قاع البحر فتمزقه بمخالبها . وما كان ينبغي
بعد اضاعة هذه الدقائق . ولكن روسوماخـــا
كان ما يزال يتوانى .
كان واقفـــا قرب الدرابزين ، غير مكترث
بالريح وبرشاش الماء ، وبالبرد والوجع في خده
المسلوخ . وابتلت لفافة التبغ فانطفأت . فقذف
بها الى النور الزرقاوي الذي كان لوحده محتفظا
بالجمود والهدوء في عالم الميـــاه والريـــاح
المصطخب .
«كلا ، لن يغفر ...»
ومضى رئيس النوتيـــة ينـــزل الى تحت ،
دافعاً الشعاع الزرقاوي باحدى يديه : لا لزوم !
لا لزوم !
وظل الشعـــاع مشتعلاً ، يتغبش بالثلـــج
حينا ، ويتوهج حيناً . كان يخترق الزبد على
رؤوس الامواج ، واما انف «داغو» فكان مرئياً

بوضوح بحيث كان في الوسع تعداد الحلقات ، المثبتة لحبل الجر ، من هناك ، من بعيد .

وسار رئيس النوتية على سطح السفينة الاعلى المتمايل ، فما ترنح ولا مرة . وفي كل خطوة كان يحس هو نفســـه بتلك القوة الصلبة التي تتشبث بها قدماه على خشبات السطح الزلجة . وقد كان في هذا كل الاربعين عاما من حياته البحرية . لقد احس بهذه القـــوة من جديد ، ولكنها ما كانت قط تلك الشيطنة المتمردة ، التي طواها النسيان في السنوات الاخيرة ، والتي بدأ بها طريقه في البحر ذات يوم ، وبها انبت ابنه منذ ثمانية عشر عاما .

– مـــاذا قررتم ، يـــا اخوان ؟! – صـــاح روسوماخـــا ، وهو يشق لنفســـه الطريق الى القمرة . – لماذا لم تشعلوا الانوار الكاشفة ، آ ؟ لقد قلت : اشعلوها . ولكنكم لم تشعلوها ! آه منكم ! بالتنويـــر تكون الحـــال ابهج ، اليس كذلك ؟

وقدم فانفانيتش تقريره بمرح وبصـــوت رنان ، غير مدرك سبب انتعاش رئيس النوتية

المفاجئ ، ولكن عدوى هذا الانتعاش انتقلت اليه بغير ارادته :

– زيت الكاز في المصابيح نفد ! اما البنزين فلم اسمح بصبه : يمكن ان ينفجر ! ..

كان تشيبين الناعس يقف قرب الباب ويبتسم بسخرية وهو ينظر الى وجه باردوكوف الحائر وقامته الطويلة الخرقاء . جليّ ان باردوكوف لوحده كان اذ ذاك غير موافق لامرما الى النهاية .

– تمت جلسة المشاورة ، – قال تشيبين لروسوماخا . – كل شيء يدل على ان الحالة على ناقلة الاخشاب في منتهى السوء ... يجب قطع حبل الجر ، يا ريّس !

فقال روسوماخا :

كلّ يتكلم عن نفسه ! ملاح المحركات ؟

– لازم يعني لازم . ما العمل بالمضخات ؟

– اصطبر على المضخات ! باردوكوف ؟

غص باردوكوف بريقه وما استطاع ابتلاعه .

– لقد رفضـــوا النجـــدة ، اولئك ، في «اوديسا» ، – قال روسوماخا . – واما نحن فلدينا امل ... فالسفينة فارغة ، خفيفة ...

وقد نوفق بالجنوح الى الشاطئ ، اذا كان ثمة مكان طري ، او شيء آخر ...

وتمتم فانفانيتش قائلاً :

– هناك في الواقع سفينة جديدة تماماً ، والف متر مكعب من الاخشاب للبناء .

فدمدم باردوكوف قائلاً :

– وانا ماذا ؟ انا لا اعارض ! مثل الجميع ! ايه ، فلنغرق نحن برؤوسنا ، يا شباب !

وادار «داغو» على خط سيرها وترك دولاب الدفة .

فقال تشيبين :

– التصويت انتهى .

– ايـه ، امـا النـورس الابيض فيخفق جناحـاه ! وثمة شخص آخر يبحـر في الجو العاصف ! – صاح رئيس النوتية ونزع قبعته عن رأسه فالقى بها على قدمي تشيبين . كان طول الوقت يشعر بضرورة الصراخ بصوت اعلى مما كان ينبغي .

فسأل تشيبين الرابط الجأش وقد استولت عليه الدهشة :

ـ اين شربت الخمرة ؟ اما بقي لي شيء هناك ؟

وما كان مفهوماً امازحاً كان في كلامه ام جادّاً .

وعبس روسوماخا . ثم اصدر امره قائلاً :

ـ ليرتد الجميع ملابس النجاة ! ولا ينفخ كل لباسه بنفسه ، بل لينفخ كلّ لباس الآخر ! انفخوها قليلاً اول الامر ، وحين سنكون قرب الشاطئ ساقول لكم انفخوها الى الحد الاقصى . يا تشيبين ! هيا سر الى القعر الاول وافحص المساند ! يا فاسيا ، اذهب الى المضخات حتى اسمح بمغادرة الاماكن السفلى ! باردوكوف ! افتح الراديو واطلق الاغاني ! ايوه ؟!

وانحدر عامل اللاسلكي في «كولا» الى قمرة القيادة يعد درجات السلّم على مؤخرته .

ـ قبطان ! انهم يقطعون الحبل . لم يعودوا يجيبون ، ايها الرفيق القبطان !

كان غاستيف واقفاً ، مسنداً مرفقيه على زاويتي اطار الشباك . فلم يلتفت . ما كان

قد فقد الامل في ان كل شيء سيكون بالضبط مثلما كان الآن . كان ملزماً بان يعرف رجاله اكثر من معرفتهم بانفسهم . ولقد كان يعرفهم . وطـول الوقت الذي مضى بعد حديثـه مـع روسوماخا كان يفكر فيهم ، مستجمعاً ذكرياته الواحدة اثر الاخرى . وقد تمكن من تذكر كيف قبلـوا فاسيلي بوبـوف ـ فانفانيتش ـ الى الكومسومول ، وكيف راوح هذا قرب طاولة الرئاسة الحمـراء ، ومسح العرق عن جبينه الانمش ، وقال ما هو من هذا القبيل : «وفي هذه اللحظة الهامة بالنسبة لي ، لا بد لي ان اقول للرفيق القبطان غاستيف وجها لوجه هذه الكلمات الاتهامية ، وهي لا تخص عملي المباشر الآن ، وهـي : ان المضخـة «مب ـ ١٠٠» ، وهي ملك للشعب ، قد تقرر اخراجها من العمل لاعادة صهرها ، وذلك قبل المهلة المعينة ، وقد وقع الوثيقة المتعلقة باخراجها من العمل الرفيق القبطـان نفسه ، وهذا امـر غير صحيح على الاطلاق ، اذ ان المضخة كان لا يزال في الوسع اصلاحها . . .» وما كان خائفاً ، هذا الشاب الغر ،

آ ؟ ها هي القبيلة الفدائية ! والآن ؟ ايمكن ان يكون قد ضل السبيل وما فهم ذلك ؟

واستطاع قبطان «كولا» ان يتذكر ايضاً ان والد تشيبين قد قتل في الحرب الفنلندية ، وامه ماتت جوعاً في لينينغراد اثناء الحرب الوطنية . ولكن تشيبين هذا كان من شدة اعتياده على العيش مع الناس بحيث ما كان يستطيع البقاء خمس دقائق لوحده . انه لرفيق رائع يستعمل امتعته جميع البحـارة حين يأخذون الاجـازة للذهاب الى الشاطئ . وقلب متحمس مقدام في صدر قوي ذي مراس . وهل يمكن ان يكون هو ايضاً قد اخطأ ظني فيه ؟ وباردوكوف الحالم ؟ العنبر الاول كله اضطرب لحبه طالبة من مدينة فولوغدا . واذا كان الانسان قادراً على ان يحب حبا حقيقياً ، فلا بد ان يكون قادراً على ان يصبح بطلاً ...

وها هو تقرير عامل اللاسلكي : «قطعوا الحبل . ولم يعودوا يجيبون» .

لم يلتفت القبطان . وقد كان فرحاً لعدم خيبة ظنه في احد .

– ايها المساعد الاول ! انتبه لكي لا يقع الحبل على المروحة ! – صاح غاستيف وادار بنفسه مقابض جهاز اللاسلكي الى الحد الاقصى ادارها مرتين متواليتين . وكان هذا امرأ للسير «الى امام باقصى السرعة الممكنة !»

– انهم لا يجيبون ... – تمتم عامل اللاسلكي . – ادعوهم ، فلا يجيبون ...

– ابلغ «اوديسا» : نحن ذاهبون اليهم . سنكون عندهم بعد ساعة . بعد ساعة واحدة ، – امر غاستيف وادار جهاز مسح الثلج . ومن خلال الزجاج الدائر في هذا الجهاز ظهر له الق خافت لاسهم نارية حمراء تتطاير في مكان ما قرب الافق ، ووهج ضياء المنارة على رأس كالين . واجاب عامل اللاسلكي :

– حاضر !

كان روسوماخا يقطع حبل الجر بفأس حريق عادية . وكانت عملية القطع شاقة . فمن الصعب قطع الفولاذ اذ يكون من اللازم الى جانب هذا

الامساك بشيء ما على سطح السفينة المتوثب الى السماء السوداء .

واخيراً ، تطايرت شرارات بفعل ضربات الفأس : فقد انقطع اول سلك حديدي . وجرت على الحبل حلقة صافرة الى امام نحو نور حاد ، هو الضوء الاحمر في مؤخرة «كولا» . وانحل السلك الحديدي . وكان من الممكن ان يتوقف العذاب عند هذا الحد . فقذف روسوماخا بالفأس الى البحر . ووثبت موجة على رئيس النوتية ، فلطمته في صدره . فخاطبها محشرجاً ، وهو يبصق :

— طز ! خذي ! طز ! وتوتر الحبل . وكان روسوماخا يعلم ان هذا آخر توتر له : فالحبل ينقطع حين يتوتر .

انقطع الحبل في وقت ابكـر . وفي المكان الاوسط بين السفينتين ، تطاير الطرف المنقطع وانفتل في الهواء . وكان مرئياً جيداً في ضوء البروجيكتور السماوي اللون . وسارت «داغو» بعض الوقت ايضـا وراء «كولا» متباطئـة ، متمايلة على نحو اخرق ثقيل من مقدمتها الى

مؤخرتها ، ومن جانب الى آخر ، وبعد ذلك اخذت تتهاوى بشدة تحت عصف الريـاح ، وغابت عن شعاع البروجيكتور واطبق عليها الظلام من كل جانب .

٥

بعد نصف ساعة اجتمع من جديد شمل رئيس النوتية وملاحي الدفة وملاح المحركات في قمرة مؤخرة «داغو» . ومن حولهم تتراقص الامواج المكللة بالزبد ، وترج السفينة رجاً .

كانت انوار «كولا» قد طوتها الظلمات منذ وقت بعيد .

وبقي الاربعـة لوحدهم في مواجهـة البحر العاصف والليل .

وانفتلت «داغو» بمؤخرتها بفعل الرياح ، وهكذا اندفعت صوب الشاطئ الذي لم يكن مرئياً ولا مسموعاً ، الا انه كان ينتظرهم في مكان ما غير بعيد ، مكشراً بانيـاب الصخور الساحلية الصوانية .

– سر مع الامواج ، يا مركبنا ، – هكذا كان يدمدم تشيبين وهو يسفح من جزمته الماء الجليدي : فقد لطمه الماء هو ايضاً وهو يفحص المساند وسقوف الكوى في القعر الاول . وسأل فانفانيتش رئيس النوتية بمرح :

– اننا نقوم بمأثرة ، يا ريّس ، اليس كذلك ؟

فامره روسوماخا بان يترك المضَخات ويصعد لفوق . وقد كان فانفانيتش شديد الارتياح لوجوده برفقة الجميع ، وكان يزخر فرحاً لهذا السبب .

وصاح باردوكوف من زاوية القمرة :

– اجلسوا على الارض ، يا شباب ! رشاش الماء لا يتطاير الى هناك .

كانت الظلمة حولهم من الشدة بحيث لم يكن روسوماخا يرى وجوه رجاله ، ولكن اصواتهم كانت اذ تمر عبر زئير الرياح وصفيرها ترن رنيناً هادئاً مطمئناً . وقد كان الثلاثة جميعاً متلاحمين على الارض في زاوية محمية من الريح .

ــ اننــا نقوم بمأثرة ، اليس كذلك يــا شباب ؟ ــ سأل فانفانيتش من جديد متشبثاً بفكرته ، وقد وجه سؤاله هذه المرة الى تشيبين وباردوكوف ، ولف ساعديه على كتفيهما . لقد كان شديد الشوق الى صاحبيــه وقت جلوسه لوحده مع مضخاته !

ــ مأثرة ؟ أهذه مأثرة ؟ وهل نحن رجال سوفييتيون ام لا ؟ رئيس النوتية هو وحده بيننا الذي حقق مأثرة ، ــ قال تشيبين . ــ لقد صعد لوحده الى جسر القبطان وهو واقف هناك وقفة نابوليون على جبل الجلجلــة ، يتخــذ قراراً ... وما لك انت في مثل هذه اللحظة تصعد الى الجسر مبتعداً عنــا ؟ ــ هكذا ختــم تشيبين كلامه بكل جدية .

ولبث رئيس النوتية صامتــاً . لقد كانوا جميعاً اذ ذاك متساوين امام ذلك المجهول الذي كان مقبلاً عليهــم من الظلام ، ولكــن روسوماخا لم يكن ينطوي في نفسه على طمأنينة الضمير النقي التي كان جلياً انها متوفرة لدى جميع هؤلاء الفتيان حوله .

وفجأة سأل روسوماخا تشيبين :

ـ هل لديك ام ؟

ـ كلا ، ولماذا ؟ ـ قال تشيبين وقد ادهشه السؤال غير المنتظر .

ـ يتيم ، اذن ؟

ـ رباني الناس في ملجأ الاطفال ... اتذكر العمة كلافا عندنا ... ـ ورفع تشيبين اصبعه منذراً ، وهو يتسمع الى صخب البحر . ـ أليس هذا موج الساحل ، يا اخوان ؟

فقال روسوماخا :

ـ كلا ، ليس موج الساحل ... وماذا جرى للعمة كلافا ؟

ـ انها مربيتنا ، ـ تابع تشيبين كلامه . ـ كانت قد سجنت في عهد القيصر . بسبب الثورة ... ـ ثم تذكر فجأة : ـ ولكن لماذا تسألني ؟ اجب على سؤالي انت اولاً !

ـ حذار ، لا تتطاول ! ـ صاح روسوماخا بغضب . ـ ما تزال صغيراً ، يا جرو ! رح الى القعر الاول ، وقس مستوى الماء ! لا لزوم للكلام الفارغ !

– وما لك في الحقيقة تلح عليه ؟ – قال فانفانيتش لتشيببين موبخاً : – قد يحل بنا جميعا الهلاك الآن ، وانت ...

– هلاك ! هلاك ! – قال تشيببين محنقاً . – ومن سيستلم عني شارة المرتبة بالملاكمة ؟ اهي غاليا ، يا ترى ؟

– افحص مستوى المـاء في القعر الاول ، يا تشيببين ! – امر روسوماخا ، وكاد يسقط عن برميله بفعل ميلان مفاجئ من «داغو» .

فقال تشيببين مطاوعاً :

– حاضر !

ومضى الى الباب على الاربع وهوى من جديد في الظلمة المبللة الصاخبة . وصمت الباقون جميعا مصغين باعصاب متوترة الى هدير البحر وصخبه .

واخيراً قال فانفانيتش :

– انه لفتى طيب ، ميشكا تشيببين .

ثم قال باردوكوف وهو يسدل طرفي قبعته على اذنيه :

– يا رّيس ! لو تعلم مـاذا جرى لناقلة

الاخشاب ... الراجح ان طرف حبل الجر يقدم لهـم ...

فقال فانفانيتش بلهجة المفكر الحكيم :

ـ عامل اللاسلكي في «كولا» مشغـول بدوننـا ، شغلاً كثيراً . اليس صحيحـاً ، يا ريّس ؟اما «داغو» هذه فلا تنقلب ! تدور ، وتحرك ، ولكنها لا تنقلب !

ـ نعم ! ـ قال روسوماخا . كان الراديو قد طار من رأسه كليا ، بل لقد ادهشه الآن ان في الوسع الاتصال بـ «كولا» ، ومحادثة عامل اللاسلكي ، ومعرفة اخبار «اوديسا» ، والابلاغ عن الاحوال في سفينته .

وعاد تشيبين يلهث وينفخ ، ومضى زحفا الى الزاوية . ومن جديد اخذ يخلع جزمته وهو يشتم الشيطان .

فسأله باردوكوف :

ـ ايوه ، ماذا في الخارج ؟ زفتٌ ؟

ـ لا يمكن الوصول الى القعر الاول . المياه تقتحم الحاجـر بعنف ... يبدو ان المقدمة تغطس . ولهذا يعبث عليه الموج .

فقال روسوماخا :

ـ الاقسام الامامية من القعر مغمورة بالمياه . ولهذا استدارت المؤخرة باتجاه الرياح ... اعطوني عود كبريت .

وسأل فانفانيتش :

ـ ميشا ، امن وقت بعيد تعرف تلك البنت التي اهدتك الجاكيت في جزيرة ديكسون ؟

فابطأ تشيبين كثيراً في الجواب ، ثم قال وهو يلف على قدمه قماطاً معصورا :

ـ كلا ، لست اعرفها من وقت بعيد . انها طيبة ... مرحة وصارمة الخلق . لم اتمكن من فعل شيء معها ، يا شباب ، اذا كان الكلام كلام شرف ... كذبت عليكم حين قلت ان كل شيء بيني وبينها يجري على ما يرام ... ليست هي من هذا القبيل ... انها تشتغل في مستودع للنفط في الجزيرة .

ولبس تشيبين حذاءه ، وتناول عود كبريت لرئيس النوتية . وما كان روسوماخا قد تمكن من التدخين بعد .

فقد راح رئيس النوتية ينظر امامه مباشرة الى الظلام المطبق خلف الزجاج . وفجأة تذكر صباحاً مشمساً بهيجاً ، وجمهوراً من الناس على مرسى حوض باروتشني في ميناء لينينغراد ... وكان ذلك يوم عودته الى الوطن . اناس غير معروفين ، غرباء تماماً ، فرحون بعودته ، ولعل فرحتهم كانت اشد من فرحته . الاسنان تشع بالبسمة في وجوه حمالي الميناء الوسخة . وعلى ظهره وكتفيه كانت تنحط اكف ثقيلة بعنف وشدة .

– مرحبا بك ، يا اخ ! ..

دخّن ، يا رفيق ! ..

وبالقرب من ذلك المكان كانت الرافعات تقرقع ، منتشلة شباكاً ضخمة تحتوي على صناديق برتقال من باطن احدى سفن النقل . وبالقرب من مستودع الحبوب تصفر احدى القاطرات بمرح . كان كل شيء حلواً وبهيجاً ... وبعد ذلك سألوا روسوماخا عما حمله على العودة . فاجاب بانه كان طول السنة الاخيرة يتسكع في الموانئ بطالاً ... بحاراً عاطلاً عن

العمل . وها هو قد عاد ... ثم ان الوطن دائما وطن ... ايوه ...

وقال واحد من الجمهور :

– ولماذا لم تعد قبل هذا ؟ عشرون عاما مدة طويلة ... اما سمحوا لك ، يا ترى ؟

فسأل روسوماخا بغير اكتراث :

– وما شأنك انت في هذا ؟

فقال عامل على الرافعة متقدم في العمر :

– نعم ، له شأن !

– كل انســان يربط عقدة اقداره كمــا يشاء ... فلماذا اخذتم على الفور تتسللون الى اعماق نفسي ؟ – قال روسوماخا وهو يبحث في الوجوه عن الابتسامات السابقة . ولكنهــا كانت قد تلاشت . وما كان ثمة غير الفضول والحذر .

وسألت فتاة تعمل في التسجيل :

– اذا كانت للانسان نفس صافية ، فلماذا لا يظهرها ؟

فلم يجد روسوماخا ما يجيب به على هذا .

واكتفى بان لوّح بيده مستهترا ، واخذ يصفرّ وهو يرد قبعته على قذاله .

فقال عامل الرافعة مدمدما :

– ايه ، يا اخ ، سيكون امامك كثير من العقد التي تحتاج الى اعادة ربط ! ولكن اعادة ربط العقد اصعب كثيراً من إحكام عقدها منذ البداية ...

وفرك روسوماخا جبينه على زجاج النافذة البارد . كانت الذكريات جلية كما لو ان هذا كله انما جرى بالامس . وكم مرة ود الناس ان يتوغلوا الى نفسه ، كم مرة ودوا ان يساعدوه على ازالة ما فيها من صدأ . فما فسح لهم المجال ، بل القبض على نفسه ... وها هو قد ربط عقدته الاخيرة رباطاً غير صحيح . هذا امر سيئ . واذا هلك الرجال الآن على «اوديسا» ، فانما يكون هو المذنب في هذا . واذ ذاك لن يغفر له احد . ابدا . اربعون دقيقة وربما ساعة كاملة ضاعت بسببه . الا لو تكون «كولا» قد وصلت دون تأخر ! الا لو تكون قد وصلت دون تأخر !

كانت «داغو» ما تزال عائمة على الماء رغم انه كان يطوّح بها عالياً وسافلاً وعلى الجنبين .

ولدى كل ميلان شديد العنف كان فانفانيتش يستند بظهره الى البرميل الذي كان يجلس عليه روسوماخا ، ويلف ساعديه بشدة على كتفي تشيبين وباردوكوف .

وكانوا جميعاً اذ ذاك يشعرون شعوراً حاداً جداً بوحدتهم في تلك السفينة المقفرة الباردة التي لا تتأجج مواقدها باللهب الحار ، ولا تدور الدافعات في قسم المحركات فيهـا . وقد كان الجميع يشعرون بتزايد الارهاق النفسي .

وفجأة قال روسوماخا بصوت عال ونزل بحذر عن برميله :

— انفخوا لباس النجاة الى الحد الاقصى ! الشاطئ قريب .

فسأل تشيبين :

— ولكن لم لا يُسمع الموج الساحلي ؟

فما كان راغباً في النهوض ومواجهة الريح ورشاش الماء من جديد .

ـ الريح تهب من البحر مباشرة ، ولهذا لا يُسمع . هو ذا سواد فوق السحب ، ولا بد ان يكون هذا رأس فيسوكي . ودعوا بعضكم بعضاً ، يا شباب .

فما اخذ احد يودع الآخر ، اذ كانوا لا يعرفون كيف يفعلون هذا . ومضى باردوكوف الى الراديو وراح يحاول تشغيله بسرعة ، ولكن النور الاخضر في الزر ظل منطفئاً لا يشتعل . فقد ضعفت المدّخرات المبللة ضعفاً شديداً .

وقــال فالفانيتش بصوت متفخم كانمــا ينطق بشيء كبير الاهمية لديه :

ـ ومع ذلك فقد قمنا بمأثرة ، يا رفاق !

فصاح تشيبين بملاح المحركات :

ـ رح للقرد ! تردد الكلام كالببغاء ... ولكنهم لن يسمحوا لنــا بالاقتراب من المرسى لو اننا ...

ووشوش الراديو بصوت بالكاد يسمع . كان صوت متعب رتيب يكرر بعناد :

ـ «داغــو» ، «داغــو» ... لمــاذا لا تجيبون ؟ انا «كولا» ! انا «كولا» !

وفجأة اغرورقت عينا باردوكوف بالدمع . وقد كان دائماً يتميز برقة العاطفة .

وصاح روسوماخا في الميكروفون :

— انا روسوماخا ! انا «داغو» !

وجأر باردوكوف :

— نحن «داغو» !

فلم يسمعوهم . إما ان يكون قد طرأ عطل على جهاز الارسال ، وإما ان تكون الاشارات الضعيفة الصادرة من راديو «داغو» القابل للحمل لم تصل الى «كولا» . وحين فتح رئيس النوتية الراديو للالتقاط انطلق من جديد الصوت الرتيب : «لماذا لا تجيبون ؟ لماذا لا تجيبون؟»

وسكن كل شيء . ومـــا كان يسمع غير وشوشة البارازيت في الراديو .

فقال تشيبين :

— لقد ترحموا علينا ، يا اخوان . كان ينبغـــي التحقق مـــن الهوائـــي ، اليس كذلك يا ريّس ؟

وما اتسع لروسوماخا المجال للجواب . فقد نفذ صوت قبطان «كولا» المكتئب من خلال البارازيت :

ـ «داغو» ، لقد سلمت حبل الجر للسفينة المنكوبة ، وانا اسير جنوباً بشرق . «كولا» سلمت حبل الجر للسفينة المنكوبة وهي تسير جنوبا بشرق . هل تسمعونني ؟ هل تسمعونني ؟ «داغو» ! «داغو» ! بعد ساعتين او ثلاث سنرجع اليكم . اصمدوا ! اصمدوا ! انا «كولا» ...

فقال فانفانيتش :

ـ لم يتأخر جماعتنا .

وقال باردوكوف :

ـ انهم لا يسمعوننا .

وبزغ الفجر .

وكانت «داغو» تقترب ببطء من اول انحسار عنيف للموج اثر الاصطدام بالصخور ، ومقدمتها غاطسة في الماء وجانبها يتعرض للامواج من حين الى آخر . وخلف هذا الصف

من الصخور المتلاصقة التي كانت ترتطم بها وتتكسر عليها صفوف متساوية من الامواج المتدحرجة من المحيط ، ظهرت من قلب الظلام صخور الشاطئ الصوانية العالية . وقد كانت تنتصب شاقولية ثقيلة فوق كتلة الامواج الخضراء الرمادية المنحسرة . وخلف الخط الاسود من الرؤوس الساحلية كانت تبدو التوندرا الصهباء ، وفوقها على رؤوس الجبال البعيدة يبدو الثلج الرمادي . وفوق ذرى الجبال الثلجية تندفع سحب واطئة سريعة فتغطيها كليا بعض الوقت . وكان صخب الامواج المنحسرة يزداد باطراد . فكان يبدو كأن عشرات من قطارات الشحن مندفعة للقاء «داغو» تقرقع وتهز الهواء المبلل . وفوق صف الصخور كانت تتصاعد الى العلاء ببطء واتساق شلالات بيضاء من رشاش الماء ، مقاومة الرياح ومتغلبة عليها .

كان الاربعة ينظرون الى صخور الشاطئ الشاقولية الناتئة .

وكان الراديو ما يزال يذيع : «اصمدوا ! اصمدوا ! نحن قادمون اليكم ...»

وكانت الرياح تطلق زئيرها . وتحت ضرباتها كانت ترتعد جدران القمـــرة وتهتـــز المساند الفولاذية .

ورفع روسوماخا نظره بجهد عن الامواج المرتدة قرب الشاطئ والتفت الى البحر حامياً عينيه بكوعه من الرياح . كان الافق المعتكر يترنح مع «داغو» . والرياح السطحية تتخبط بين الامواج مثيرة نوافير من الزبد . وبعيداً ، حيث لا يفرّق النظر بين الامواج العالية ، كان البحر مقفرا ، كالحاً ، غير مكترث ولا مبال ، كعين الميت .

وارتطمت مؤخـــرة «داغو» بالصخـــور . الفا طن من الفولاذ اصطدمت بالصوان بعنف وشدة . وانطلقت من فانفانيتش صرخة لا ارادية غطت عليها قرقعة المعدن المتمزق ، وصخب المضخات المنخلعة من مساندهـــا ، والهديـــر المصم للآذان الذي صدر عن كل هيكل «داغو» الفارغ اثـــر هذه الضربة . ولبث الآخـــرون

صامتين ، متشبثين في حالة من التشنج كل بما وقع تحت يده .

وعقبت الصدمة الاولى ثانية ، فثالثة ... ومن جراء الميلانات الحادة ، وارتجاجات السطح ، ومن جراء دفقات المياه التي كانت تغمر السفينة العاجزة من كل جانب ، فقد الرجال قابلية التوجه ، وما كان في مستطاع احد من الاربعة ان يعرف اين البحر ، واين الشاطىء ، واين السماء . وعندما اخذت مؤخرة «داغو» تغوص سريعاً في الماء ، ومقدمتها ترتفع ، — عند ذلك فقط ادرك روسوماخا ان الصف الاول من صخور ما قبل الشاطىء قد بات خلفهم ، ومضى نحو باب القمرة .

كانت السفينة مستلقية على جانبها الايسر تقريباً ، ونتيجة لذلك كان الايمن خارجاً من الماء ، رغم ان الامواج كانت تغمره من حين لآخر .

وصاح رئيس النوتية ، مشيراً بيده الى امام :

– انتقلوا الى المقدمة ! هيا الى المقدمة ! الى المقدمة !

كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي كان ما يزال في وسعهم القيام به لتأخير النهاية : فبعد ان اجتازت المؤخرة صف صخور ما قبل الشاطئ ، كانت اذ ذاك قد اخذت تنزلق عنها ، والماء يتدفق فيها من عشرات الخروق ، وراحت تغوص بسرعة وبدون مبالاة . اما المقدمة المرتفعة فكان كل شيء يدل على انها لا بد ان تكون آخر ما ستبتلعه المياه .

وكانوا يزحفون الواحد اثر الآخر على طول الجانب الايمن . كان الاول روسوماخا ، يدل على الطريق ، والثاني تشيبين ، ثم باردوكوف وفانفانيتش . كانت السواعد وقد ضعفت ، كأنما هي منقوعة في الماء ، تعمل بصورة سيئة وبتردد ، واما على يسار البحارة ومن خلفهم فقد كان سطح السفينة يغوص في الماء بصورة تكاد تكون شاقولية ، وعلى هذا السطح كانت الامواج تصعد راكضة ، توشوش وتتمزق ارباً . وكان البحر يلتهم «داغو» متراً فمتراً .

وتوقف روسوماخا غير بعيد عن رأس السفينة . وكانت الرياح تلطم بعنف وشراسة ، كانما تحاول ان تقذف بالمرء الى المياه التي كانت تصطخب من اليسار ومن الخلف . فشعر رئيس النوتية بوجود تشيبين الى جانبه . فقد وصل هذا اليه واستلقى ، وراح ينظر ببلاهة الى امامه بعينين منتفختين . وكان قد سقط في مكان ما فاصطدم وجهه بالحديد ، والدم يسيل الآن من فمه .

وصاح روسوماخا :

– علينا ان نقفز !

فاومأ تشيبين موافقاً ثم اسدل رأسه ، واستند بخده على سطح السفينة مرتاحاً بانتظار ان يجيء دوره في القفز . وكان ينبغي ان يكون روسوماخا اول من يقفز . فهو الآن يقود وراءه ثلاثة من الملاحين الشبان وعليه ان يكون لهم عونا بمثاله . وبكونه يسير في المقدمة ، استحق لنفسه المغفرة على كل شيء . وقد كان ينبغي له ان يقفز قفزة ناجحة ، كان ينبغي له ! فجمع رئيس النوتية كل قواه وتحفز متكمشاً على

نفسه ثم وثب الى فوق والى امام ، نحو رأس السفينة . وفي الجزء الاخير من الثانية ، اذ هو ينأى عن السطح ، احس بـان رجله قد ارتعشت ، فاستطاع ان يدرك انه يسقط الى تحت .

ـ آ ـ آ ـ آ ـ ! . . . ـ هكذا صاح متوجعاً وراح يتدهور غير مستطيع التشبث بدرابزين السلم المنصوب على رأس السفينة . فقد اصيب بضربة من الرافعة الصغيرة قرب القعر الاول ، وانحشر هناك ، والامواج تلطم من فوقه ، واما الثلاثة الباقون فوق فما كانوا يرون غير فردتي جزمة رئيس النوتية الضخمتين ، وقد برزتا فوق فتحة القعر الاول .

وتعلق تشيبين متمسكا بيديه فقط واغمض عينيه ثم ارخى راحتيه . وانزلق بسرعة متزايدة متقلباً شاتما ومتشبثاً بكل ما يصادف في طريقه ، منطلقاً الى ذلك المكان الذي كانت تبرز منه جزمة رئيس النوتية . فما كان في وسعه ان يترك رئيس النوتية .

كان روسوماخا حياً صاحياً ، رغم ان الرافعة

كانت قد صدمتـــه في رأسه . فساعد تشيبين رئيس النوتية على الانقلاب بحيث اصبحت رجلاه تحته . فقال روسوماخا بصوت ابح :

ــ ها انا قد انزلقت ...

واقبلت موجة فغمرتهما معاً ، وحين انحسرت رأيا قرب اعينهما كومة متشابكة من حبال الصـــواري المقطعـــة . وفي الاعلى ، فوق رأس السفينة ، كان باردوكوف وفانفانيتش يربطان بالدرابزين الطرف الآخر من الحبل .

ــ تسلّق ، يـــا ريّس ! ــ صاح تشيبين وهو يبصق الماء الذي كان قد تجرع كميات كبيرة منه . ــ تسلق ، سلّم احتفالي يقدم لك ...

واخذ روسوماخا يتسلق ، وكل حركة من حركاته ابطأ واكثر تردداً . كان رأسه يدوي ، ونور النهار الرمادي يبدو له بنفسجياً . كان يدرك انـــه يفقد وعيه ، ومع ذلك فقد كان يسحب ويسحب الى فـــوق جسده المتراخـــي الثقيل .

وتلقاه باردوكوف وفانفانيتش وجراه نحو الشراع الاعلى . وجاء تشيبين ايضاً الى هناك .

كان الوجع يشد على رأس روسوماخا كأنه طوق حديدي مشدود على برميل . وبسبب هذا الوجع لم يعد يميز وجوه رجاله . وقد كان يلوح لعينيه في المكان الذي هم فيه بصيص نور ساطع جلي . فقال في نفسه : «انه ضوء المنارة يشتعل على رأس ميشوكوف ... ماريا ، هل ترين ، لقد انزلقت ...» واخلى الوجع المكان للسلام والهدوء .

كانت «داغو» تنحشر بين الصخور على نحو ارسخ فارسخ ، واخذت اذ ذاك تغوص ببطء اشد . ولم يتغير الميلان ، وظلت المقدمة ناتئة بعناد وسط الامواج المتوثبة ، يغلفها دثار ابيض من الزبد ورشاش الماء .

وكان باردوكوف وتشيبين وفالفانيتش جالسين في الطرف الاقصى من هذه المقدمة حاجبين روسوماخا بظهورهم عن الرياح ورشاش الماء ، وهم يرتعدون برداً . ومن تحتهم كانت مدخنة «داغو» تتجرع الامواج ، وكان منظر المدخنة ، والماء يغمرها ، على درجة من الغرابة والشؤم بحيث كانوا يحاولون عدم النظر الى تلك الجهة .

ولكن الشاطئ والصخور السوداء الخالية من الاحساس كانت تنتصب فوق المياه المصطخبة ، على بعد مئتي متر من «داغو» . وكذلك كان النظر الى تلك الجهة مما لا تشتهيه النفس ، فقد كان ثمة الموت ، كان ثمة — كما عبر تشيبين — «سحق العظام» .

كان البحارة ينظرون الى البحر . فمن هناك فقط كان يمكن ان تجيء اليهم النجدة ، وفي مكان ما هناك كانت «كولا» الحبيبة تستعجل المسير مبعثرة الامواج العاتية . وفي قمرتها يمضغ القبطان غاستيف السيكارة اثر السيكارة ، وبالقرب من المضخة في قسم المراجل يقف جماعتهم مشعلو النار ، واما امام دولاب الدفة فيقف فيتكا ميليشين الذي كان قد خلع منذ وقت بعيد جاكيت تشيبين وظل بالمايوه فقط لكي يكون عمله اسهل ويعجل «كولا» لنجدة اصحابه وانقاذ «داغو» .

وقد كان باردوكوف وتشيبين وفانفاليتش ، وهم يرتجفون برداً تحت وطأة الرياح ، ينتظرون النجدة من «كولا» ويثقون بها لانهم كانوا على

ثقة من سفينتهم «كولا» ومن خبرة غاستيف وحذقه ، وبالسواعد المتينة ، سواعد الاصدقاء لدى المواقد وامام دولاب الدفة . وقد كان كل منهم يفكر بشؤونه . فكان باردوكوف يردد في نفسه اسم غاليا فيشعر لدى ذكر هذا الاسم بمزيد من الدفء . واجبر تشيبين نفسه على عدم التفكير الا في كيف سيقص على الجميع حكاية «داغو» واي صمت سيحل حين سيصل الحديث الى الوثبة التي قام بها وراء رئيس النوتية . وكان فانفانيتش يفكر بامه : اذا هو ظل حياً ، فلن يلمح امامها مجرد تلميح الى هذه الحكاية ابداً . فما الداعي لاخافة العجوز كثيراً ؟ ولقد كان يرثي لمضخاته التي هيهات ان يقدر لها ذات يوم ان تضخ الماء من قعر السفن المنكوبة .

واما روسوماخا فكان في غيبوبة عن الوعي ، لا يحس شيئاً ولا يدرك شيئاً ، وما كان من رابط بينه وبين الحياة غير النور المشعّ الباهر الذي كان يتراءى له .

كان البحارة ينظرون الى البحر بعيون دامعة متجلدة : فقد كان لا بد ان تظهر «كولا» بين دقيقة واخرى . كانت «داغو» ما تزال تغوص ببطء ولكن بثبات . وما عادت المدخنة اذ ذاك تخيف بمنظرها غير المالوف ، فقد غمرتها الامواج كلياً ، فبات لا يذكر بها غير ارتداد الامواج بعنف في ذلك المكان .

– ولكننا لسنا راغبين فى الموت اليس كذلك ، يا شباب ؟ –صدر هذا السؤال عن فانفانيتش . وقد وجهه بصوت خافت ، الا ان الجميع سمعوه . فقال له تشيبين :

– انفخ لي قميص النجاة ، يا سخيف ! حين يكون منفوخاً بشدة ، لا يتغلغل البرد الى الجسم بهذه الشدة .

– وانت انفخ لي ، –التمس باردوكوف محركا شفتيه المتجلدتين بصعوبة .

وكان روسوماخا ما يزال فاقد الوعي ، الا ان جسده المتراخي الفاقد الارادة تصلب فجأة ، واخذت يداه المعقوفتان تتشبثان بمسند الرافعة بقوة هائلة . وانقلب على قفاه وراح

يتخبط بحركات تشنجية . وبالكاد استطاع البحارة الثلاثة منع رئيس النوتية من تحطيم رأسه على الفولاذ والحديد الصب !

وصاح تشيبين بفم مغمور بالدم :

ـ امسكه بشدة اكثر ، يا ليوشكا !

ـ وانا ماذا افعل ؟! ـ قال باردوكوف بفظاظة واضعاً ركبتيه الطويلتين تحت رأس روسوماخا المرتعش ، وممسكا يديه المسطحتين المتحجرتين .

فقال فانفانيتش المسالم ملتمساً :

ـ لا ينبغي الجدال الآن ، لا ينبغي !

فانفجر تشيبين وهو يصيح بغضب :

ـ اسكت ، يا غبي !

ولكونه قد صاح وشتم بمثل هذه الشدة بات باردوكوف وفانفانيتش نفسه ، لامرما ، لا يشعران بكثير من الهول والخوف .

وفجأة ايضاً توقفت تشنجات رئيس النوتية كما ابتدأت . وهدأ وهو ينظر الى امامه بعينين محملقتين فارغتين . وعلى وجهه الرمادي شعر

كثيف اصهب لم يحلق منذ وقت بعيد . تبعثر شعر رأسه المبلل على جبينه والتصق به .

— ايه ، يا ريّس ، يا ريّس . . . — قال تشيبين بلهجة عاطفية متفجعة ، وهو يستعيد انفاسه بعد الصراع .

— له ولد في مكان ما . . . — قال باردوكوف ، وهو يعقد على ذقن روسوماخا رباط قبعته .

وقال فانفانيتش :

— شبع الريّس كفاحاً . وقد آن له الآن ان يمضي الى المرسى .

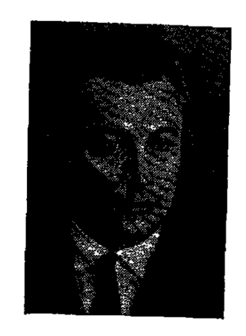
وقال تشيبين بصوت خافت غير مألوف لديه :

— نعم ، الى المرسى .

ولزموا الصمت ، وهم ينظرون الى البحر المصطخب بغضب وحنق ، والرياح تلطم وجوههم .

واما روسوماخا فكان ما يزال يتراءى النور لعينيه . وانه لنور ساطع ، كانما يضيء له الآن جميع ما رأى في حياته من المنارات ، والاشارات الضوئية المتقطعة ، والعائمة على وجه المـاء .

يوري ناغيبين



يــوري ناغيبين ـ مولــود سنة ١٩٢٠ ، مؤلف اكثر من عشرين مجموعة قصصية ، واسع الشهرة بوصفه واحداً من اشهر كتــاب القصــة السوفييتيين . وكثير من قصص ناغيبين مشهور لدى القراء الاجانب . ومن بينها تتمتع قصة «العريس» بشهرة خاصة بوصفها صورة للنثر العاطفي لدى الكاتب .

العريس

عرف فورونوف من العجوز التي كانت تنقله عبر نهــر برا ان العثور على صيادين في قرية بودسفياتيه ليس بالامر اليسير . وكانت العجوز طويلة رشيقة القامة ، متينة الساقين تحتذي جزمة قصيرة من الجلد الاصطناعي ، وتلبــس

سترة خاكية اللون تلــف كتفيهــا العريضين المدورين ، وعلى رأسها ، برغم ان الوقت كان صيفاً ، قبعة عسكرية سميكة تغطي شعرها الاشيب ، وقد كان من الممتع النظر اليها حين تدير العصا الطويلة فتحوّل عن فورونوف وجهها الصغير الممتلئ بالتجاعيد . كان الزمن قد ابقى عليها نعمة الرشاقة ، الا انه شوه يديها ، فهما يابستان ، معقوفتان ، مبقعتان ، واما وجهها المشدود بالتجاعيد فكان يحتفظ بعينين قاتمتين براقتين زرقاويتي البياض . واخذت العجوز توضح بكلام مسهب ، لاعبة بعينيها النشيطتين غير المنطفئتين :

ـ تأخــرت انت قليلاً . قبل يومين مــن الموسم عندنا لا تجد للصيادين اثراً ، اما في إبّان موسم الصيد ، فلا يمكن حتى التفكير بالعثور عليهم ! .. صحيح ان الامر ، فيما مضى ، كان ابسط بعض الشيء . اما الآن فمنهم من اقلع عن هذا الشغل ، لأن العمل في الكولخــوز اصبح رابحاً . وذلك ، مثلاً ، كابني الاصغر فاسكا ، ـ ومنهم من ذهب للخدمة في وظائف الدولة . وخيرة

هؤلاء الصيادين يشتغلون الآن بحراسة البحيرة .
خذ ولو ابني الاكبر ، اناطولي ايفانوفيتش .
ولكني ما اظن انكم في موسكو تعرفون بهذا ...
ـ وكانت نبرة الازدراء الخفيفة التي رنت في كلماتها الاخيرة تتصل لا بشهرة ابنها الضئيلة التي لم تبلغ العاصمة ، بل بقلة اطلاع فورونوف .

ـ كلا ، ليس كذلك ، ـ قال فورونوف معترضاً ، ـ لقد سمعت غير مرة عن اناطولي ايفانوفيتش بوصفه اوثق رجل في مجال الصيد .

فقالت العجوز بلهجة لوم واستنكار :

ـ معلوماتكم في موسكو ضئيلة بشأن منطقة ميشيرا ! ترى اليس لدى اناطولي ايفانوفيتش من شغل غير مرافقة الضيوف من ابناء العاصمة ؟ انه يحمي ثرواتنا الطبيعية .

فسألها فورونوف :

ـ طيب ، وبماذا تشيرين علي ؟

كان فورونوف مولعاً بالصيد ، يتمتع بالصبر وبعين بصيرة صائبة ويد صلبة ، الا انه لم يكن صياداً حقيقياً ، يضاف الى ذلك ان تلك كانت اول مرة يجيء فيها الى ميشيرا .

ـ لست استطيع الاشارة بشيء ،ـ اجابت العجوز ، وهي تحكم ببراعة مسـار الزورق المتقلقل على جوانب الامواج .ـ انما اقول لك شيئاً واحداً : حاول اغراء احد الشيوخ ، فهم فارغون من العمل ، وانهم ليحبون هذا الشغل . ولكني اشك في انك ستجد احـداً .ـ واحتك الزورق بالقاع وتوقف وقفة حادة . وكان الشاطئ يبعد ثلاثة الى اربعة امتار . فرفعت العجوز طرف ثوبها ، والقت فوق طرف الزورق باحدى رجليها ثم بالاخرى واستندت بصدرها الى مؤخرة الزورق واخذت تدفعه على رمل الشاطئ .

واهتز فورونوف على الزورق لدى اصطدامه بالشاطئ . فتناول ورقـة من ذوات العشرة روبلات ، فقدمها للعجوز .

ـ خذ البقية ،ـ قالت ثم اضافت جواباً على حركته الاحتجاجية :ـ عندنا هذا النظام . النقل خمسة روبلات ، المنامة ثلاثة ، للصياد خمسة وعشرون في اليوم ... اسمع ، حاول ان تضرب باب ذلك المنـزل . واطلب الشيخ ، فلعلك تقنعه ...

فشكرها فورونوف ومضى بمحاذاة الشاطئ ذي الروابي الصغيرة ، صوب البيت الذي دلته عليه .

فتحت الباب له عجوز شديدة الشبه بتلك التي نقلته على الزورق . قامة رشيقة ، ووجه صغير متغضن فيه عينان قاتمتان نشيطتان وخرزيتان . وكذلك كان لباسها شبيها بلباس تلك العجوز : سترة خاكية ، وجزمة من الجلد الاصطناعي ، وقبعة من الفراء ذات اطراف تنسدل على الاذنين ، عليها آثار نجمة منزوعة مما يدل على انها كانت سابقاً لعسكري . فقال فورونوف في نفسه مبتسماً : «كأن العجائز هنا ما زلن يخضن حرباً لهن» .

– كلا ، يا حبيبي ، لن يذهب الشيخ ، فهو مريض ، – قالت له العجوز . – بالامس جاء من بحيرة فيليكويه عليل القدمين .

ومع ذلك فقد سمحت لفورونوف بالدخول الى المنزل ، وهناك كان رب البيت المعتل الصحة مستلقيا على سرير ذي وسائد عالية ، تحت كومة من فراء الغنم . وما كانت العين تقع على

الشيخ نفسه ، انمـا كانت تبرز فقط لحية شائبة ، مائلة الى الصفرة من اثر الدخان .

فقال فورونوف :

– واذا كنت ادفع كثيرا ؟

فسمع من اعمـاق السرير صـوت ضعيف يقول ، واللحية الشائبة ترتعش :

– اتسمعين ؟ آ ، يا ام ؟

فصاحت الزوجة :

– اسكت ! تنفث البخار من فمك ، وتريد الذهاب الى الصيد !

ثم قالت لفورونوف بصرامة :

– لا فائدة لدينا لك ، ايها الرفيق العزيز .

فالح عليها فورونوف بالسؤال :

– وانّى لي ان اجد صيادا ؟

فقالت ربة البيت مغضبة :

– واين تجد ، اذا كان لا وجود لهم ، انهم غير موجودين ، وكفى !

لو ان فورونوف كان قد سمع مثل هذا الجواب لبضع سنوات خلت لكانت انتهت هنا ، دون ان تبدأ ، رحلة صيده في ميشيرا . فقد

كان فيما مضى ميالاً الى المبالغة في تقدير القوى المناهضة المعارضة في الحياة ، وكانت كل عقبة من العقبات ، حتى التافهة منها ، تبدو له كأداء لا يمكن تخطيها . الا انه ، مع مر السنين ، تكونت لديه ثقة سعيدة بأن ليس في الحياة من معضلة لا حل لها ، وان الاصرار الهادئ البصير من شأنه ان يزيل اية عقبة .

ولقد رن في صوته شيء من المرح ، حين سأل قائلاً :

– ايوه ، ومع ذلك اين يتسنى لي ان اجد صياداً ؟

فرفعت العجوز بخوف اهدابا خفيفة الشعر . ثم قالت ولكن بغير غضب ، بل بحيرة وارتباك :

– بلى ، انى لك ، يا حبيبي ، ان تجده ؟

فقال فورونوف :

– وهذا ما اسألك .

فاخذت العجوز تدور بعينيها يمينا ويساراً ، كأنما الصياد مختبئ حقاً في مكان قريب ، وهذا الرجل الموسكوفي عارف به حق المعرفة .

– لست ادري ماذا اقول لك ... لعلك تقنع العريس .

وسمع صوت من تحت الفراء يقول :

– يا سلام عليك ، العريس يذهب !

فاجاب فورونوف نيابة عن العجوز :

– سيذهب . واين هو موجود ؟

فاوضحت العجوز :

– البيت الاخير على اليد اليسرى من جهتنا . اذهب لعنده ، يا حبيبي ، فلعلك تقنعه . ولكنه ترك شغل الصيد منذ ان تزوج .

ومن جديد سمع الصوت يقول من تحت الفراء :

– لن يذهب . انه لا يترك زوجته !

وسأل فورونوف :

– وبماذا يدعى العريس هذا ؟

– فاسكا ، – اجابت العجوز . – وبماذا يجب ان يدعى ايضاً ؟

– لن يذهب .

وصل هذا الصوت الى فورونوف وقد بات في مدخل البيت . وقد اعتقد ان صلابة العريس

امام اغراء ربح يسير المنال من الصيد تدخل في عداد طرائف ميشيرا ، التي يعتز بها اهل تلك الانحاء .

وقد نسي فورونوف ان يسأل في اي جانب من الشارع يقوم منزل فاسكا . فاختار من البيتين الاخيرين البيت الذي يبدو عليه مزيد من النظافة ، وقد كان مزيناً بديك حديدي على رأس سطحه ، ولـه على نوافذه مصاريع منقوشة حديثة التكليس . فمن اللائق بالعريسين ان يعيشا في هذا المسكن النظيف الانيق بعض الشيء . ودفع فورونوف الباب فولج دهليزاً واسعاً معتماً تفوح فيه رائحة عجل وتين متعفن وروث دجاج . وقد كانت رائحة المدخل المألوفة هذه تفوح بشكل واخز مثير للاعصاب بفعل لحم بط يوشك ان يفسد . فقد كانت معلقة على حبل وسط الدهليز حزمة لا بأس بها من البط البري الذي نزعت احشاؤه ووضع مكانها حشيش . فلاحظ فورونوف قائلا في نفسه : «اذن ، فهو لم يترك الصيد نهائياً» . ونهض عن ركبتيه شاب اجعد الشعر عريض المنكبين يرتدي سروالاً عريضاً

وقميصاً ابيض مشمر الكمين – فقد كان يقطع بالساطور قرمة من الخشب ، – فسأل فورونوف من يريد . فاجابه فورونوف :

– انت الذي اريد .

فغرز الشاب الساطور في قرمـة الخشـب وتقدمه الى البيت . ودخل فورونوف على اثره . وتنحى في الباب مفسحاً الطريق لامرأة قصيرة تحمل بيديها سطلاً مملوءاً . وقد كان مسكن العريسين حسن المنظر في داخله ، كما هو في خارجه . مدفأة مكلسة حديثاً ، وكسوة للجدران مرقشة ، وعلى مصاطب النوافذ اصص فيهـا ازهار ابرة الراعي ، وعلى الجدران صور كثيرة من مجلـة «اوغنيوك» . وفي الزاوية خزانة للأواني عليها غطاء من الدنتلة وفوقها قدح من زجاج رخيص ملون ، واثنتان من الاصداف الكبيرة الثقيلة ، من تلك التى «يضج البحر» فيها ، واطار صغير للصور في وسطه ، حسب العادة المألوفة ، صورة فوتوغرافية للعريسين .

وعلى دكة قرب الباب كانت تجلس عجوز تلبس سترة وجزمة من الجلـد الاصطناعـي ،

يبدو ، كما اعتقد فورونوف ، ان لا بد منها في بيوت ميشيرا . ولكنه ما لبث ان عرف في العجوز تلك التي نقلته في النهر ، فادرك انها ام العريس فاسكا . وعلى دكة اخرى ، قرب النافذة ، كانت تجلس صبية على كتفيها شال . وصدرها الواسع المتين يشد بلوزها شداً قوياً ثقيلاً . وقد خاطبها فورونوف قائلاً :

— اني اتوجه اليك راجياً السماح لزوجك بالذهاب معي .

فرمقت المرأة فورونوف بنظرة تنم عن الدهشة ، ثم اسبلت طرفها . كانت لها عينان جميلتان . بياضهما زرقاوي لوزي . فلاحظ فاسكا قائلاً بابتسامة خفيفة :

— ليس لها زوج بعد ! انها اختي الصغيرة .

فعض فورونوف على شفتيه آسفاً ؛ لقد كان عليه ان يحزر انها ليست الزوجة . فهي جالسة جلسة مترسمة ، على طريقة الضيوف القرويين ، وعدا ذلك فقد كانت شبيهة شبهاً صارخاً باخيها : الشعر الكستنائي الاجعد نفسه ، ولون

الوجه المتورد البرونزي ذاتـــه ، والعينـــان الطريتان ، الزرقاويتا البياض ، اياهما .

وسأل فورونوف فاسكا :

– وانت ما قولك باقتراحي ؟

– لا داعي لذهابه !.. لا شيء الا اللهو واللعب !..

صدر هذا القول عن المرأة القصيرة التي قابلهـا فورونوف في البـاب . كانت واقفة في العتبة ، ورأسهـا بعيد عن ساكف البـاب المنخفض ، شادة السطل الفارغ على ردفها . وقد لاحظ فورونوف بخيبـة امل ان زوجة فاسكا الجميل الشابة ليس فيها ما يلفت النظر . فهي قصيرة القامة ووجهها ليس بالجميل : انه صغير انمش وعيناها بلون زجاج القوارير . يضاف الى هذا ان العروس لم تكن بالصبية ، فقد تجاوزت الخامسة والعشرين ، بل واكثر من هذا . وكانت ترتدي فستاناً عتيقـاً ضيقاً قصيراً ، وتنتعل حذاءً مخرّقاً . ولكنها كانت صارمة الخلق ، فما اعترت الدهشة فورونوف حين رأى فاسكا لا يصدر عنه من جواب على

ملاحظة زوجته العنيفة غير الابتسام في صمت وبسط يديه تعبيراً عن العجز عن فعل اي شيء .

والتفت فورونوف الى العجوز فقال لها :

ـ لو انك ، يا جدّة ، تؤيدينني على الاقل بناء على ما بيننا من سابق المعرفة .

فاجابت ام فاسكا :

ـ لست ربة البيت هنا .

وما كان في قولها هذا رنة من استياء او تعبير عن التحدي ، انما كان مجرد تأكيد لواقع حقيقي معروف لدى الجميع .

واذ ذاك بات فورونوف عارفاً بما ينبغي له ان يعمل . وقد خاطب زوجة فاسكا قائلاً لهـا :

ـ هل يمكن ان اقول لك كلمتين على حدة .

وولجا مدخل البيت . واوضح فورونوف للمرأة القصيرة بتمهل وتفصيل بانه لن يأخذ زوجهـا الا لمدة ثلاثة او اربعة ايام ، وان الاصول في ميشيرا معروفة لديه ، وانه سيدفع ضعف المبلغ المعتاد تماماً ، وذلك لأنه رجل لديه مشاغله ومن النادر جداً ان يسمح لنفسه

بالصيد فيبخل في هذا المجال . واخيرا ، انه على خلاف غيره من الصيادين الموسكوفيين لن يحظر على فاسكا نفسه ان يصطاد ...

كانت المرأة القصيرة تصغي اليه وهي تحرك شفتيها . وكان جليا انها كانت تحسب بينها وبين نفسها ماذا سيدر عليهم هذا . وقد ارتاحت للحساب : فابتسمت وبرقت عيناها الزجاجيتا اللون ومدت يدها الى فورونوف بحركة نشيطة غير خالية من اللطف والرشاقة .

– اتفقنا !

ولاح في كمها المنفتح رسغ يدها المبروم الجميل الشكل وكوعها المدور ، فقال فورونوف في نفسه ، وقد واتاه الحظ بالنجاح : ان فيها لشيئا .

وبصوت حازم صاحت الزوجة قائلة :

– فاسيلي ، جهز نفسك ! ستذهب مع الرفيق الى الصيد .

فتحركت شفتا فاسكا الطريتان الشبيهتان بشفتي فتاة مبتسمتين .

– لعله ينبغي الاستئذان من الرئيسة ...

– انا سأقول لها بنفسي . منذ بضعة ايام كانت تقول لي ان جميع الرجال يلتمسون الاذن بالذهــاب الى الصيد ، وانك وحدك لا تذهب وكانك مربوط بي . ولا بد لي انــا من ترتيب البيت ، ومسح الارض ، فثمة وسخ منك !..

فتطلع فاسكا الى زوجته وتنهد واخذ يتجهز بعد ان تغلب على شيء ما في داخل نفسه .

لم يطل امد استعداد الصياد . فقد وضع قشاً في حذائه المطاطي ولف على قدميه شرائط سميكة من الفانيلا وشد حذاءه شداً قوياً على رجليــه المتينتين ؛ وعبّـأ في جيوب الجعبة خراطيش عتيقة معتمة اللون وتمنطق بها ، ووضع في كيس منكبه طيوراً اصطناعية من الخشب والمطاط . وقد طاب لفورونوف تتبع حركاته الرحبة غير الحذرة ، والدقيقة الى جانب هذا الى درجة بعيدة . وكان فاسكا ، وهو يفعل ذلك ، يصفر من بين اسنانه ، وكان جلياً انه هو نفسه ما كان يشعر قط باناقته الرائعة .

ولاحظت زوجته قائلة له بشعور من الغيرة ، وهي تغسل خلف المدفأة :

- فرحان لخروجك من البيت !

فرد عليها فاسكا قائلاً بلهجة تنم عن الاستعداد :

- اتريدين ان لا اذهب ؟

- لا اذهب ! يا لك من غني لا تحتاج الى مال !

افرغ فورونوف حقيبة ظهره ، ولم يبق فيها غير الضروري اشد الضرورة : الخبز ، والزبدة ، والمحفوظات ، وترمساً فيه شاي ثقيل ، ومؤونة من الجرابات ، ولحافاً . وجاء فاسكا من فسحة بيته بسلة كانت توقوق فيها بطة تستعمل لاجتلاب غيرها .

وذهبت زوجة فاسكا لمرافقتهما . كانت ترتدي جاكيتاً من المخمل يلف جسمها لفاً شديداً ، وجزمة عالية من المطاط ، وكان في ذلك ما زادها صباً على الفور . وقالت لزوجها ، وهي تتناول منه بندقية الصيد :

- هات . هل ستذهبان الى فيليكويه ؟

فاجاب فاسكا :

- الى اوزيركو .

فكوّرت حاجبيها دهشة، وخيل لفورونوف ان في هذا ما ليس على ما يرام . وقد سبق له ان سمع وهو في موسكو ان الصيد ينبغي ان يكون في بحيرة فيليكويه ، وانه الآن ليشعر بالارتياب من ان فاسكا غير راغب في الابتعاد كثيرا عن البيت . فقال :

– ربما كان في فيليكويه احسن ؟

فاجاب فاسكا وهو لا ينظر الى فورونوف بل الى زوجته :

– في فيليكويه زحام شديد من الناس .

ونظر فورونوف ايضا الى زوجة فاسكا ، آملاً بمساندتها . ولكن هذه رفعت كتفيها النحيلين ، ومضت بسرعة الى امام نحو زورق ظاهر من وراء شجر السعادى . اغلب الظن ان سيطرتها في البيت لم تكن تمس سلطة زوجها في شؤون الصيد .

ومس فاسكا فورونوف بكوعه ، واشار برأسه نحو زوجته مبتسماً : فقد كان جذع البندقية الخشبي يدق على كعبها .

– ليس غيري وغير اخي اناطولي من تشيعهم زوجاتهم الى الصيد .

قال فاسكا هذا بشيء من الاعتزاز ثم اضاف مفكراً :

– ويجب القول ان اخي ، وهو من مشوهي الحرب ، لا يستطيع بدون ذلك تدبير اموره ...»

وحين اقتربوا من فرع النهر ، كان الزورق قد حل من رباطه وفرشت ارضه باعشاب رطبة كانت زوجـــة فاسكا قد قطفتهـــا من الشاطئ مباشرة . ووضـــع فاسكا الحقيبتين الظهريتين والسلة والبندقيتين ، وغطاها بعناية بمشمعه ، وتناول من تحت القش مجدافاً اشبه بالمجرفة .

– تفضل ، ايها الرفيق الصياد ، فاننا لا نعرف بم تدعى !

– سيرغي ايفانوفيتش ...

ونزل فورونوف الى قاع الزورق بصورة خرقاء ، وانسكب من فوق حاجز الزورق المدور ماء مستنقعي اسود ، كأنه القطران . وقال فاسكا لزوجته :

– مع السلامة والعافية !

وبحركة سريعة قصيرة شدت زوجهـا من كمه ، وهي تنظر الى فورونوف عابسة ، ومالت اليه لحظة بجانب منهـا ، ثم دفعته ضاحكة بارتباك ، ومضت الى البيت ، غير ملتفتة ، سائرة بين اعشاب اعلى من خصرها .

واستنـد فاسكا بالمجداف على الشاطـئ وضغط عليه ، فانساب الزورق في ممر مائي ضيق ، مرتطماً ارتطاماً خفيفا بنواتئ الارض ، مبعداً بخشيش جاف لاوراق شجيرات السعادى الحادة كالنصل المتدلية فوق القناة الصغيرة .

وفك فورونوف ياقة قميصه . فقد انطوت خلفه الهموم والانفعالات الشديدة جميعها ، وانه الآن لماض كالسهم نحو هدفه . وكم ذا حدثوه في موسكو عن الصعوبات في ميشيرا ، والعادات الخاصة لدى ابنائهـا الذين ينبغي للمرء ان يفهمهم ، لكي يتحولوا الى الجانب اللطيف المرن من طباعهم ، اذ انهم يمكن ان يكونوا في الجانب الآخر متصلبين وعلى درجة قاسية من الجفاء ، فكم كان يسيراً عليه تدبير اموره في هذه الحال ، وبلوغه كل ما كان ينبغي !

كان يلذ له تتبع البراعة والقوة اللتين كان فاسكا يستعمل بهما المجداف . وقد كان جلياً ان جسم الشاب المتين ، وقد تكاسل بعض الشيء ، منشرح للتمرينات الرياضية التي يقوم بهـا . وكان بادياً كيف تتلاعب عضلاته الممتلئة تحت قميصه ، وكيف كان يتنفس بانتعاش وارتياح .

وبعد قليل بات الممر المائي شديد التعرجات والانعطافات ، واذا كان قد ظل لدى فورونوف قليل من الريبة في ان فاسكا قد اختار بحيرة اوزيركو لسهولة الدرب اليها ، فان هذه الريبة قد زالت الآن ولم يبق لها اثر . فقد كان الزورق الطويل يعجـــز عن الدوران في المنعطفـــات الشديدة . وقبيل الانعطاف التالي كان فاسكا يندفع بكل قواه بالمجداف ، وقد كان يستعمله بدلاً من عصـــا طويلة . فينقذف الزورق الى الشاطئ ويثب فاسكا الى الماء ويرفع مؤخرة الزورق ويحوّله الى منعطف آخر ، وبعد ذلك يدفع مقدمة الزورق الى الماء ، لقد كان الزورق ثقيلاً جداً ، ولكن فاسكا لم يكن يسمح لفورونوف بمساعدته حين كان هذا يبدي رغبته في ذلك .

ـ امرتني زوجتي ان ابذل جهدي في سبيلك . وقد قالت لي : انتبه ، اذا كان الضيف لن يكون راضيـــاً مرتاحـــاً ، فلن اسمح لك بدخول البيت ! ..

ومع ذلك ، فقبيل الدخول الى نهر برا ، حيث كان الفـــرع الضيق ينتشر على الشاطئ المستنقعي غامراً اياه ، ارتطم الزورق بالقاع الرملي واستقر عليه بثبات اضطر معه فورونوف للنزول واستخدام قوته .

ـ ربما كان في وسعي تدبير الامر لوحدي ، ـ هكذا قال فاسكا بارتباك وهو يساعد فورولوف على العودة الى الزورق .

فقال له فورونوف مؤكداً ، وهو يبتسم :

ـ لا بأس ، لا بأس ، لن اقول لزوجتك .

فضحك فاسكا ، وسأله فورولوف :

ـ هل تحبها ؟

ـ وكيف لا احبها ؟ ـ قال فاسكا بابتهاج ودهشة . ـ لقد رأيت انت اية امرأة هي ! .. ومن انا ازاءها ؟ ـ قال هذا وبسط ساعديه .

كان واقفاً في الماء البالغ ركبتيه ، شاباً عليه قميص بحري مشمر الكمين ؛ والعرق الساخن يسيل على وجهه البرونزي وعنقه المسودّ من لفحة الشمس وساعديه العبلين ؛ وكانت بشرته تلمع كانها مطلية باللاك . وقد كان فاسكا من الجمال ومن الصفاء والسذاجة في مشاعره بحيث قال فورونوف في نفسه : «ايه ، ايها الفتى ، انك لأعلى قيمة بكثير !» على انه لم يقل هذا لفاسكا ، طبعاً ، ومضيا بمحاذاة شاطئ برا الممتلئ بالغابات .

لم يكن برا هنا ليشبه النهر اطلاقاً . فقد كان فائضا مشكلاً بحيرة جد واسعة ذات فسحات ينمو فيها القصب وتزدحم زوارق صيادي السمك ، وجزر صغيرة خضراء مسطحة . والنوارس تحوّم فوق الماء ، والبط يطير في العلاء اسراباً وفرادى . وبالقرب من السحب تحلق حدأة باسطة جناحيها ثم تنقض على الماء باندفاع وانسياب ، فتلامسه ببراثنها العقفاء ،وتنطلق حاملة بمخالبها سمكة . وفي الحال ينتقض غراب من رأس صنوبرة فيلاحق الحدأة

ويدركها سريعاً فينتزع منها صيدها . ويعود الى مركز حراسته ، فيلتهم السمكة ، ويروح ينتظر الحدأة الكادحة متى تختطف لـه سمكة اخرى .

ومن جديد انعطفا الى فرع للنهر يمتاز عن الاول بكونه مستقيمـا كالسهم . وكان الممر الضيق يتسع احياناً ، ويتوزع الماء الى بقاع . فقد كان الممـر ينتقل من بحيرة مستنقعيـة صغيرة الى اخرى . وكانت الشطئان هنا ايضاً منخفضة ، ولكن شجيرات السعادى التي يزيد طولها عن قامة الانسان ، والمتقدمة مع الدغل الى حافة الماء ، كانت تشكل فوق الممر نفقاً معتماً اخضر . فكان يخيل للمرء ان الظلام قد حل دفعة واحدة ، وقد عبر فورونوف عن القلق من التأخر عن الغروب . فقال له فاسكا بلهجة الواثق :

– سنصل في الوقت اللازم .

واحيانـاً كان البط يحلق دون خوف فوق رؤوسهما بالذات ، ويطير شرشير من بين العشب ، ومن تحت اوراق النيلوفر السوداء المسطحة

ينط فرخ بط جد صغير ، اكبر بقليل من فرخ العصفور ، فيجري مبتعداً عنهما بكل قواه .
وقد كان الفرخ المسكين لا يعلم انه ، وقد تأخر كثيراً بالخروج من البيضة ، غير مقدر له ان يصبح بطة كبيرة ، فراح يجهد بكل قواه لانقاذ حياته القصيرة . فكان يجري هارباً في الممر المائي يزقزق ويرفرف بجناحين ازغبين هزيلين ، وكان انف الزورق يدركه من حين لآخر ، واخيراً اختبأ بين اعشاب الشاطئ . وما ان اختفى حتى طار شيء من بين الاعشاب محدثاً ضجيجاً ، وظهر لحظة من بين الشجيرات شبح اسود لبطة برية ، وفي الحال لمع في وجه فورونوف نور وردي من طلق ناري . وقبل ان ينعدم صدى صوت الطلق انقلبت البطة وسقطت بين الشجيرات .

وما كانت دهشة فورونوف من اطلاق النار المفاجئ وقد دوّى قرب اذنه ، باشد من دهشته لسرعة فاسكا وبراعته الخارقتين ، اذ تمكن من طرح المجداف وتناول البندقية وتصويبها بهذه الدقة الفائقة . ولامر ما تصور فورونوف ان

فاسكا انما كان في ذلك الوقت ايضاً يجهد في اطلاق النار على شرف زوجته ، فشعر بالغيظ من هذا الرجل المبتهج . فبهذه الانطلاقة النفسية سيصطاد جميع البط ، واما هو ، فورونوف ، فلن يبقى له شيء .

— اسمع يا فاسيلي ، تعال نتفق : على الطائر ، نضرب معاً ، اما القاعد فاضربه لوحدي .

— حاضر ، يا سيرغي ايفانوفيتش !

ووقف فاسكا بالزورق قرب الشاطئ ، ومضى منه رأساً يسير بين العشب العالي . وانغلق العشب من ورائه ، وحين انفتح من جديد كان فاسكا يمسك بيديه بطة ضخمة زمردية العنق .

— استفتاحة ، يا سيرغي ايفانوفيتش !

فاقر فورونوف بلهجة جافة بعض الشيء :

— نعم .

وانكشفت بحيرة اوزيركو فجأة . وكانت تسبح في مرآة الماء المدورة سحب صبغها الغروب بلون وردي . وعلى الاطراف كان الماء معتماً ، قاتماً . فهناك كان ينعكس صف متماسك من اشجار الشوح الجسيمة ، المحيطة بالبحيرة

الصغيرة . ولم يرح فاسكا يقدّر بنظرتـــه الى البحيرة المكان الانسب ، بل دفع بالزورق رأساً الى جزيرة صغيرة نصف مغمورة ، قرب الشاطىٔ الايسر من البحيرة ، مواجهة لمغرب الشمس . وهناك وزع البطات الاصطناعية ، واطلق بطة الاغراء الى الماء فراحت ترفرف بجناحيها ، وعلى اثر ذلك دفع بالزورق الى داخل الدغل . ثم سأل فورونوف :

— اترى جيداً ، يا سيرغي ايفانوفيتش ؟

فاجاب فورونوف بشيء من الامتعاض :

— ارى جيداً ، ولكننا مرئيان جيداً ايضاً من فوق .

فطمأنه فاسكا قائلاً :

— لا بأس .

واعد فورونوف نفسه للانتظار الطويل الذي يبدأ به عادة كل صيد ، ولكن صوت فاسكا الهادىٔ المطمئن انطلق في الحال تقريباً :

— بطـــة صغيرة ألى اليمين ، يـــا سيرغي ايفانوفيتش .

فارتعش فورونوف ودار بناظره سريعاً على وجه الماء . ولكنه لم ير غير البطات الاصطناعية الخادعة وبينهـــا بطة اغراء كبيرة كانهـــا غير حقيقية .

وبهدوء ايضاً همس فاسكا قائلاً :

ــ الى اليمين ، قـــرب البطة الاصطناعية الاخيرة .

فاطلق فورونوف النار وهو يشعر انه انما يرمي البطة الاصطناعية . ولطم الخردق الماء كالمكنسة ، واهتزت مجرد اهتزاز احدى البطتين اللتين كانتا على درجة واحدة من الجمود ودارت على غير عجل بخاصرتها الخشبية غير القابلة للعطب ، واما الاخرى فقد بسطت جناحيها على الماء ومطت رقبتها ، كاشفة بموتها عما كان فيها من حياة خفاقة .

وحين مضيا لأخذها كان قد طار في الجو ذكر بط كان مقبلاً على بطة الاغراء . فاطلق فورونوف النار عليه فسقط نكساً في الماء . وبعد ان غطس ، انبثق من جديد على بعد ثلاثين متراً منهما ، وتمكن فورونوف خلال هذا الوقت

من اعادة تعبئة بندقيته ، واجهز عليه . فقال فاسكا مستحسناً :

— تمام !

ولكن تلك كانت البداية فقط . لقد ندر ان وفق فورونوف بمثل هذا الصيد السعيد . بطلقة واحدة اصاب ثلاث بطات ، ثم بطتين كبيرتين على التعاقب ، وشرشير ضخم كأوز التم . وكذلك لم يبق فاسكا عاطل اليدين . فقد اصاب على الطائر ثلاث بطات ، ولكن واحدة منها هربت وهي جريحة ، واختفت اخرى بين القصب ، فلم يستطع ان يجدها في عتمة دغل القصب .

كان الحوض المائي صغيراً ، فنفّر اطلاق النار البط ، ولكن فورونوف لم يتخل عنه ، في الهدأة التي حلت ، توتر المشاعر السعيد الذي ينسى فيه نفسه والذي من اجله كان مولعاً بالصيد كل هذا الولع . وما عاد الى نفسه الا حين بدت في السماء اول نجمة . وقد كانت نجمة صغيرة صافية ساطعة تنعكس في ماء البحيرة المعتم انعكاساً جلياً حاداً .

ـ ايوه ، يا فاسيلي ، يكفي ما اصطدناه اليوم ، يا اخ !

واتجها الى الممر المائي للمبيت . وفي الحال وجدا المكان اللازم لقضاء الليل : فبالقرب من الماء مباشرة ، غير بعيد عن المصب ، كانت تقوم كومة كبيرة من قش السعادى السميك . فجرى فاسكا بمقدمة الزورق الى الشاطئ ، وانـزل منه الحقيبتين الظهريتين واخذ يعـد الفراش مكوماً بقوة العشب الطري الذي تفوح منه رائحة المستنقع الواخزة .

وبعد ذلك تعشيا وشربا الشاي من الترمس . وكان الظلام قد بات مطبقاً . وامتلأت السماء بالنجوم : وفوق سياج اشجار الشوح النائية برز جانب اصفر من القمر . كان الجو ما يزال دافئاً ، وان كان احياناً يبدو بارداً بعض الشيء متأثـراً برطوبة الممـر المائـي . وقد كان فورونوف ، وهو يلتهم السمك المحفوظ ويشرب الشاي الحلو ، يتذكر تفاصيل صيد اليوم . وكان فاسكا يجيب بكلمـات مقتضبة ، ويضحك في الاكثر ضحكة مبتورة ، فاعتقد فورونوف ان

من سمات المهنة ان لا يتكلم المرء عن الصيد الماضي قبيل الصيد الآتي . وشيئاً فشيئاً يتناقص في نفسه الشعور المندفع ، ولم يعد التوفيق الذي حالفه يثير مشاعره ، فهو تابع لاحداث مضت وانقضت ، واستنفدت نفسها بنفسها ، وما كان في وسعها التأثير على ما سوف يكون .

وانهك جسده تعب مستطاب ، وكان يحس في نفسه بالطمأنينة والسلام .

وسمع صوت فاسكا يسأل :

– هل انت متزوج ، يا سيرغي ايفانوفيتش؟

– طبعاً ، متزوج ، – اجاب فورونوف وفي الوقت نفسه وجد انه قد تكلم بلهجة تنم عن شيء من عدم الارتياح .

فسأل فاسكا باحتراس :

– وزوجتك في موسكو ؟

– كلا ، بل هي في المصح .

– لوحدها ام مع الاولاد !

– ليس لدينا اولاد .

ونهض فاسيلي على كوعــه ، وتطلــع الى فورونوف بعض الوقت ، ثم قال بكثير من الجدية :

– كيف لا تخاف ... من ارسالها لوحدها ؟

فتضاحك فورونوف . لم يشعر بالاستياء من عبارة التعجب الساذجة التي صدرت عن الصياد . انمــا شعر ، على العكس ، شعورا مستطابا بانه محمي من هذه الناحية : فقد كان واثقاً بزوجته كل الثقة ، يضاف الى هذا انه لم يكن قط ليشغل باله بشأن سلوكها . وقد قال وعليه سيماء التعالي :

– ايه ، يــا حبيبي ! وهل ثمة سبيل لاتقاء هذا ؟

فلزم الصياد الصمت . وما كان فورونوف يرى وجهه في العتمة ، الا انه كان يحس بان هذا يفكر بقلق واكتئاب .

وفرغ فورونوف من شرب الشاي ، فاستلقى على الفراش الجاهز . وصحا فاسكا من افكاره ، فدنــا من فورونوف وغطاه بعناية بمشمعه ، مدخلا اطرافه تحت القش . وقال فورونوف :

– تصبح على خير !

فدمدم فاسكا مترددا :

– سيرغي ايفانوفيتش ... الا تخشى من المبيت هنا لوحدك ؟

فاجاب فورونوف ، وهــو يحبس ضحكة توشك ان تنفجر :

– كلا ، وما الداعي للخوف ؟

كان يدرك ان ما يدفع فاسكا ليس الغيرة انما هو حنين مفاجئ حاد الى المرأة الحبيبة يستطيع الاستيلاء على القلب حتى في اقصر فراق . ومع ذلك فقد كان فاسكا الآن في نظره مضحكاً بعض الشيء وفي حال تدعو الى الرثاء .

– انا ذاهب بسرعة الى البيت . وساعود قبيل الفجر . لا تكن في شك من هذا .

– هيــا اذهب ، اذهب . – قال فورونوف هذا وادار ظهره ، ليدرك فاسكا ان الحديث قد انتهى ، وشد قبة المشمع على رأسه .

وقــد سمع كيف يدفع فاسكا الزورق في الماء ؛ كان اسفل الزورق ينجرّ على شجيرات السعادى محدثاً صريراً ؛ وعلى مقطع الشاطئ ،

خشخش الرمل خشخشة جافة حادة ، ثم انطلقت بقبقة الماء الرنانة وهبت تحت المشمع نفحة باردة ندية . واصطخب المـاء تحت مقدمة الزورق بصـوت متخافت . ومضى فاسكا الى زوجته . وراح فورونوف يتصور الدرب الذي ينبغي لفاسكا ان يجتازه في الممرين المائيين وفي النهر ، وتذكر جميع المنعطفات التي سيكون عليه ان يقتحمها ، ساحباً الزورق الى الشاطئ ومحولا اياه الى عطفة اخرى ، وبعد ذلك القاع الرملي ايضاً الذي كان من الصعب عليهما التغلب عليه وهما معاً . وكل هذا في الظلام ، وفي برد الليل الرطب . والدرب يأخذ اربع ساعـات كاملات . اربع ذهاباً ، واربع اياباً . ولكي يتمكن فاسكا من العودة قبيل الفجر ، فليس يتيسر له ان يقضي مع زوجته ولا ساعة واحدة . فاية عاطفة قوية هذه التي تحدوه في هذه السفرة الجهنمية ؟ . .

وتنهد فورونوف ودفع عنه طرف المشمع . فقد كانت له في حياته هو ايضاً ايام كهذه كان قادراً فيها على الانطلاق الى اي مكان في اية ساعة

من النهار والليل ، لدى اول دعوة ، وبدون دعوة احيانا . وكان زاخرا بهذا الاندفاع وبالقلق الصعب الذي يحدو الآن الصياد الشاب في جوف الليل على الممر المائي . ولكنه خاف بعد ذلك ، فجأة ، على نفسه وعلى راحة باله ، والله يعلم على اي شيء خاف ايضاً ! لقد كان الى ما قبل الانفصال يعلم ان كل شيء يمكن تسويته — وما كان الامر يكلف غير اطلاق العنان لنكران الذات الذي كان مفعماً به . ولكنه قال لنفسه : هكذا سيكون الامر افضل ، واهدأ ، وابسط . ولكي يقطع على نفسه سبيل الرجعة ، تزوج امرأته الحالية التي كان يعرفها منذ وقت بعيد ذكية طيبة مخلصة . واذا لم تكن ثمة سعادة ، فما كان ثمة الم ايضاً ، ولكن هذا ايضاً يعني شيئاً ما ...

وها ان الالتقاء الآن بهذا الشاب قد اقلق فورونوف ، وحمله على تذكر ما لم يكن يحب تذكره . ولكن هذا الشعور سيزول لدى فاسكا ايضاً فيرى زوجته مثلما يراها هو فورونوف : غير ذات بهاء ، نمشاء ، متبرمة ، كثيرة

المتطلبات ، غارقة في الاعمال المنزلية . لعل صحوته من السكر ستبدو له مريرة ... فقال في نفسه مكتئباً : «ما لي هكذا ؟ هل اقارن مصيره بمصيري ؟»

كانت السماء منخفضة جداً ، وقد ازدحمت بالنجوم ازدحامـاً يخيل للمرء معه انها لن تستطيع الامساك بها وان النجوم ستنتثر . وقد كانت تتناثر حقاً . فهنا وهناك كانت تتساقط على الارض ، مخضوضرة بوهج الكريستال وهي متطايرة تارة بصورة عمودية ، وباقواس حادة حيناً ، وواسعة حيناً آخر . ومن الارض الدافئة بفعل حرارة الشمس خلال النهار ، كانت تنداح في الهواء موجـات دافئة من التبخر . وكانت السماء بجميع ما فيهـا من النجوم تتغبش حيناً ، كانما تبتعد ، وحيناً تنخفض وقد امتلأت ألقاً وسطوعاً ؛ وكأنما كانت تتنفس .

وايقظ برد الفجـر القارص فورونوف . ففي لحظة واحدة لم تعد ملابسه الخاصة والمشمع الذي كان متدثراً به والقش الكثيف المتكدس تحت جنبه والقبعة على رأسه ـ لم تعد هذه كلها ،

وكأنما تآمرت على ذلك ، لتحفظ الدفء المنبثق من جسده . وفجأة بدت الملابس والقش ، وقد كانت تدفئه جيداً طول الليل ، باردة رطبة ثقيلة مزعجة . فرفع كتفيه ونجمت عن هذه الحركة رعدة قصيرة بعثت شحنة قليلة من الدفء والنشاط . وهب واقفاً بالتفاضة حادة ، عارفاً بان شعوره التالي سيكون الامتعاض من غياب فاسيلي . وقد رأى السماء كالحة ، كأنما هي غائمة ولكنها كانت في الواقع خالية من السحب ، الا انها لم تكتسب بعد زرقة كافية ، وخطاً من نور الفجر متوهجاً خلف الغابـة ، وشجيرات السعادى مكللة بشيب من الندى ، ومقدمة زورق سوداء مبللة ، ناتئة فوق طرف الشاطئ .

اقبل فورونوف على الزورق . فاذا بفاسيلي قاعد على المؤخرة يفرغ احشـاء البط الذي اصطيد بالامس . وصاح به فورونوف :

ـ مرحباً ، يا عريس !

فرفع فاسكا نحو فورونوف وجهاً شاحباً بعض الشيء تحت السمرة البرونزية . وشرع

يقول له مبتسماً ابتسامة مبتهجة غير منسجمة وكلماته :

– وكم شتمتني ، يا سيرغي ايفانوفيتش ، لأني تركتك ! قلت لها انك انت نفسك قد ارسلتني . من فضلك لا تبح بسري ...

– نعم ، لن ابوح بسرك .

فنظر فاسكا الى فورونوف بحذر نظرة تكاد تكون شزراء .

– لا تحسب اني غير واثق بها . كل ما في الامر ان الحنين قد استولى علي فجاة ... وخطر لي لامر ما ان كان في وسعها ان تختار رجلاً سواي ، وان تكون الآن مع آخر . وشعرت من جراء هذه الافكار بانزعاج شديد! ... – قال فاسكا هذا وبسط ساعديه بحركة مألوفة مرتبكة . ثم نفض رأسه الاجعد ، وضحك ضحكة ساخرة من شعوره ثم اضاف :

– اف ، يا لي من غبي ...

وتجمد في عيني فاسكا القاتمتين ، ببياضهما الزرقاوي اللوزي ، الق اغبش مخمور .

فلاحظ فورونوف قائلاً :

– لعلك الآن لن تستطيع الصيد ايضاً . استنفدت قواك كلها !

– ماذا تقول ، يا سيرغي ايفانوفيتش ! في وسعي الآن ان اعمل اشياء كثيرة ! في وسعي ...

قال فاسكا هذا بصدق وبساطة لم يبق معهما شك في انه كان يستمد القوة وفرحة الحياة من حب زوجته القصيرة المنصرفة الى مشاغلها .

ومن جديد تحركت في نفس فورونوف النقمة على فاسكا ، فقد كانت هذه السعادة منغصة له ، كانت تضغط عليه وكأنما تهينه . وقد كان يريد ان يقول للشاب ان سيأتي وقت عما قريب تتلاشى فيه عاطفته الفتية الظمأى وتشحب ، الا انه ، بدلاً من هذا ، سأل بلهجة تكاد تكون كئيبة :

– وما الداعي لحبك اياها هكذا ؟

– وهل يمكن قول هذا ؟ – اجاب فاسكا بدهشة ، كأنما لم تخطر له هذه الفكرة ابدا . – وماذا كنت انا بدونها ؟ فاسكا ، وبس ! اما

الآن فانا رجل ، انـــا زوج . يمكن القول اني رب عائلة . ولكن ليس الامر في هذا ...

– كفى ، كفى ، – قال فوروفوف متضاحكا .

– لم يحن الوقت لتسميتك رب عائلة . لا بد لهذا من اولاد .

فقال فاسكا ضاحكاً بسعادة :

– يوجد اولاد ! كاتكا وفاسكا ، التوأمان ! ويوجد ايضاً سينكا ، ولكنه ما يزال يزحف ، وهو بضيافة جدته ...

فقال له فورونوف بشعور غير مستطاب :

– لست افهم شيئاً ... فمنذ كم سنة انت متزوج ؟

– لقد شخنا ، عما قريب سينقضي العام السادس ! ..

فسأله فورونوف بخشونة :

– فاي عريس انت اذن ، بحق الشيطان ؟

ومن جديد بسنط فاسكا ساعديه :

هكذا يدعونني ، لست ادري ...

«امـــا انـــا فاعرف !» – قـــال فورونوف لنفسه ، واخذ الشعور المستكره المهيمن عليه

صورة جلية دقيقـة . كان ذلك حسـداً حاداً كئيباً ثقيلاً كالغضب . وقد كان هو ، فورونوف ، فقيراً معدماً ازاء هذا الشاب . كان محروماً من اهم شيء . كان في وسعه هو ايضا ان يعرف المسرة والالم والانفعـال والغيرة ، ولتكـن حتى الهزيمة ــ ففي الهزيمة ايضا رعشة الحياة ، ــ ولكنه فضل على هذا كله ادقـاع الطمأنينة وفقرها .

يوري كازاكوف



يــوري كازاكوف ـ مولــود سنــة ١٩٢٧ ، ناثــر موهوب ، يمــارس كتابة القصة القصيرة . ظهر نتاجه في السنوات الاخيرة فاثار في الحال انتباه القراء بعمق المضمون ورهافة التحليل النفسي . يتميز ابداع هذا الكاتب بضبط الانفعالات ورهافة الذوق والشاعرية والزخم الغنائي . وقصة «الكلب السلوقي اركتور» هي من احسن قصص كازاكوف .

الكلب السلوقي اركتور

١

ظل تاريخ ظهوره في المدينــة مجهــولا . فقد جاء في الربيع من مكان ما وراح يعيش . لم يكن يزعج احدا ، ولا كان يفرض نفسه على احد ، ولا كان تابعا لاحد ـ انما كان حرا طليقا .

قيل ان غجرا راحلين قد تركوه .

انهم لناس غرباء ، هؤلاء الغجر ! في اوائل الربيع يشدون رحالهم ويسيرون .

وقال آخرون انه جاء عوما على قطعة من الجليد وقت فيضان الربيع . كان واقفا ، اسود ، وسط هشيم الجليد البيضاوي المائل الى الزرقة جامداً لوحده وسط الحركة الشاملة . ومن فوقه كانت طيور التم تطير مزقزقة : «كلينك ـ كلانك !»

الناس ينظرون التم بانفعال دائماً . وحين تطير اسرابه مقبلة ، وحين تحلق عند الفجر منطلقة من مياه الفيضان مطلقة زقزقتها الربيعية الفخمة «كلينك ـ كلانك» ، يشيعها الناس بانظارهم ، ويأخذ الدم بالرنين في قلوبهم ، فيعرفون اذ ذاك ان الربيع قد اقبل .

كان الجليد يجري في النهر مخشخشاً ويتكسر بصوت اجش ، واسراب التم تزقزق ، وهو واقف على قطعة من الجليد ، ضاماً ذنبه ، متيقظاً ، متردداً متشمماً ومتسمعاً الى ما يجري

حوله . وحين دنت قطعة الجليد من الشاطئ ، اضطرب ووثب وثبة غير بارعة ، فسقط في الماء ، ولكنه نشل نفسه سريعا ووصل الى الشاطئ ، فنفض عنه الماء وتوارى وسط اكوام الاخشاب .

هكذا او بصورة اخرى ، ولكنه ظل يعيش في المدينة ، بعد ان ظهر مع الربيع ، اذ النهار زاخر بألق الشمس وخرير الجداول ورائحة قشور الشجر .

اما ماضيه فقد كان يخمن مجرد تخمين . واغلب الظن انه قد ولد في مكان ما تحت السلّم ، على القش . امه كلبة اصيلة من نوع كلاب الصيد الكوسترومية ، قصيرة القوائم ، طويلة الجذع ، حين جاءها المخاض توارت تحت السلّم لتنجز عملها العظيم طي الخفاء . كانوا ينادونها فلا تجيب ، وما اكلت شيئاً ، اذ هي منطوية على نفسها كل الانطواء ، شاعرة بوشك حدوث ما هو اهم شيء في الدنيا ، واهم حتى من الصيد والناس - سادتها وآلهتها .

وقد ولد اعمى ، مثل جميع الجراء ،

فلحسته امه في الحال وحطته قربهـا ، لصق
بطنها الدافئ ، وقد كان ما يزال متوتراً من اثر
المخاض . وفيمـا كان مستلقيـاً ، يعتاد على
التنفس ، ظل ينضاف اليـه اخوة واخوات .
فكانوا يتحركون ويندسون مختبئين ويحاولون
ان يصؤوا ... انها جراء مثله رمادية اللون ،
عارية البطون ، ذات اذناب قصيرة راجفـة .
وبعد قليل ، انتهى كل شيء ، ووجد كل واحد
حلمة ثدي يمصها ، وهدأوا . وما كان يُسمع
غير لهائهم ومصمصة افواههم ، وانفاس امهم
الثقيلة . وهكذا بدأت حياتهم .

وانشقت عيون جميع الجراء في اوانها ،
فعرفوا بسرور وابتهاج ان ثمة عالمـاً آخر
اعظم من ذاك الذي كانوا يعيشون فيـه حتى
ذلك الحين . وانفتحت عيناه هو ايضاً ، ولكنه
لم يقدر له قط ان يرى النور . فقد كان اعمى ،
يغطي بؤبؤيـه غشـاءان سميكان رماديـان .
واقبلت عليه ، هو الاعمى ، حياة مريرة عسيرة .
ولقد كان من شأنها ان تكون اشد هولاً ورهبة
لو كان بوسعه ان يدرك عماوته . ولكنه مـا

كان يعلم انه اعمى ، وما قدر له ان يعلم . فاخذ الحياة كما تلقاها .

وقد صادف ، الى حد ما ، ان النـاس لم يغرقوه ولم يقتلوه ،ولو انهم فعلوا ذلك لكان في هذا بالطبع ، رحمة لجرو عاجز ، لا حاجة لهم اليه . فظل يعيش ويحتمل العذابات الجسام التي اكسبته قبل الاوان قوة وصلابة في جسده وروحه .

لم يكن له صاحب من شأنه ان يعطيه مأوى ، ويطعمه ويعتني به اعتناءه بصديق له . فاصبح كلباً شارداً لا مأوى له ، عابس الوجه ، اخرق ، غير اليف ـ ما ان انتهت امه من رضاعه حتى فقدت سريعاً كل اهتمام به ، وكذلك باخوته . وتعلم العواء كالذئب ، بـل بصوت مديـد ، كئيب ، حزين . كان وسخاً ، وغالباً ما ينتابه المرض ، وحين كان ينبش القمامـات قـرب المطاعم ، كانت تنهال عليه الرفسات ودوشات الماء القذر شأنه شأن الكلاب الشاردة الجائعة الاخرى .

لم يكن يستطيع الجري السريع ، فما كان في

الواقع بحاجة الى قوائمه المتينة الصلبة . كان يبدو له طول الوقت انه يجري لملاقاة ما هو حاد وقاس . وحين كان يصطرع مع الكلاب الاخرى – وقد اصطرع مراراً كثيرة في حياته – لم يكن يبصر اعداءه ، فكان يعض ويهجم ، مسترشداً بضجة التنفس ، وبالزمجرة والنباح ، وحفيف الارض تحت قوائم الاعداء ، وغالباً ما كان يهجم ويعض في الفراغ .

وغير معروف الاسم الذي اطلقته عليه امه عند ولادته ، فالام ، حتى الكلبة ، تعرف اولادها دائماً باسمائهم . وما كان له عند الناس اسم . وغير معروف ايضاً اكان بقي يعيش في المدينة ، ام كان ينصرف عنها او يفطس في مكان ما من الوادي ، لو لم يتدخل انسان في مصيره ، فتغير كل شيء .

٢

كنت في ذلك الصيف اسكن مدينة صغيرة من مدن الشمال ، قائمة على ضفاف احد الانهر . وكانت تمخر النهر بواخر بيض ، وصنادل

قاتمة اللون ، واطواف طويلة ، وزوارق عريضة الانوف ، ملطخة الجوانب بالقطران ، وكان يقوم على الشاطئ مرسى للسفن ، تفوح منه رائحة الخيش والحبال والعفونة الرطبة والسمك . ونادراً ما كان ينزل احد في هذا المرسى ، اللهم ألا الكولخوزيون من ضواحي المدينة يوم السوق ، وكذلك المبعوثون في مهمات القادمون من المنطقة الى مصنع الخشب .

وحول المدينة كانت تنبسط على هضاب منخفضة ، خفيفة المنحدرات ، غابات ضخمة عذراء : وقد كانت الاخشاب للتعويم تقطع في اعالي النهر . وفي الغابات كانت تصادف مروج واسعة وبحيرات ضائعة على شواطئها اشجار صنوبر قديمة جسيمة . وطول الوقت كانت اشجار الصنوبر تضج ضجيجاً هادئاً خفيفاً . وحين كانت الرياح المبتردة الرطبة تهب من المحيط المتجمد مطاردة السحب ، كانت اشجار الصنوبر تهمهم وتسقط جوزاتها ، فترتطم هذه بالارض ارتطاماً شديداً .

وكنت مستأجراً غرفة في طرف المدينة ، قائمة في الطابق العلوي من بيت عتيق . وكان مؤجري ، وهو طبيب ، رجلاً صامتا منشغلاً على الدوام . فيما مضى كان يعيش مع اسرة كبيرة . ولكن ابنيه قتلا في الجبهة ، وماتت زوجته ، وذهبت ابنته الى موسكو ، فبات الدكتور اذ ذاك يعيش لوحده ويداوي الاطفال . وكانت له صفة غريبة : انه مولع بالغناء . فكان يمد صوته الرفيع بكل ما تيسر من الالحان متوقفاً وقفات حلوة على النغمات العالية . كان لديه في الطابق الارضي ثلاث غرف ، ولكنه نادراً ما كان يدخلها ، فقد كان يتغدى وينـام على الشرفة ، وكانت الغرف مظلمة تفوح فيها روائح الغبار والادوية واكسية الجدران الورقيـة العتيقة .

وكانت نافذة غرفتي تطل على حديقة مهملة تنبت على طول سياجهـا عنب الثعلب وتوت العليق والارقطيون والقراص . وفي الاصبحة كانت العصافير تزقزق خلـف النافذة ، واسراب مـن الشحارير تتطاير وتنقر عنـب الثعلب ـ ومـا

كان الدكتور يطردها ولا كان يجمع الثمار .
واحياناً ، كانت تقفز على السياج دجاجات الجيران مع الديك . فيصيح هذا بصوت عال ، ماطاً رقبته الى العلاء ، هازاً ذيله ، وينظر الى الحديقة بفضول . ولا يستطيع اخيراً كبح جماح نفسه ، فيهبط اليها وتطير الدجاجات هابطة وراءه ويأخذن بالنبش سريعاً قرب شجيرات عنب الثعلب . وكذلك كانت القطط تدخل الى الحديقة ، فتختفي قرب الارقطيون مترصدة للعصافير .

وكان قد مضى على سكناي في المدينة قرابة اسبوعين ، ومع ذلك فما كنت بقادر باية حال على الفة الشوارع الهادئة ذات الارصفة الخشبية والعشب النابت بين الواحها ، وصرير درجات السلم ، وصفير البواخر النادر في الليالي .

كانت تلك مدينة غير عادية . الليالي البيض تكاد تملأ صيفها . واما رصيفها وشوارعها فكانت هادئة حالمة . في الليالي ينطلق قرب البيوت وقع اقدام جلي — انهم عمال عائدون من نوبتهم الليلية . وطول الليل يسمع النائمون

خطوات العشاق وضحكاتهم . فيخيل للمرء ان للبيوت جدراناً حسّاسة وان المدينة لاطية تسترق السمع الى خطوات سكانها .

وفي الليل كانت حديقتنا تعبق بعنب الثعلب والندى ، ومن الشرفة كان يصل الى سمعي شخير الدكتور الخفيف . واما على النهر فيغني زورق بخاري بصوت اخنّ : «دو — دو — او ...»

وذات مرة ظهر في البيت ساكن جديد . واليكم كيف حدث هذا . كان الدكتور عائداً من نوبته ، فرأى كلباً اعمى . كان مقعياً وعلى رقبته قطعة حبل ، منحشراً يرتجف بين قرم الاشجار . وقد سبق للدكتور ان رآه من قبل ايضاً بضع مرات . فتوقف الآن ، فتأمله بجميع تفاصيله ، وقرع بشفتيه وصفر ، ثم امسك بالحبل وجر الاعمى الى بيته .

وفي البيت غسل الدكتور جسمه بالماء والصابون واطعمه . فكان الكلب ، على جري عادته ، يرتعش ويتقبض وقت الاكل . وقد كان يأكل بنهم ويسرع ويغص بطعامه . وكانت جبهته واذناه مغمورة بآثار جراح مبيضّة .

ـ ايوه ، رح الآن ! ـ قال الدكتور بعد ان فرغ الكلب من طعامه ، ودفع به مبعداً اياه عن الشرفة . فتشبث الكلب بمكانه واخذ يرتعد .

ـ هم ... ـ قال الدكتور وجلس في المقعد الهزاز . وحل المساء ، واظلمت السماء ، ولكنها لم تنطفئ كل الانطفاء . واشتعل اكبر النجوم . وكان كلب الصيد مستلقياً على الشرفة وقد استولى عليه النعاس . كان شديد الهزال ، ناتئ الاضلاع ، ذو ظهر حاد بارز اللوحتين . وكان احياناً يفتح عينيه الميتتين قليلاً ، وينصب اذنيه متيقظاً ، ويحرك رأسه متشمماً . ثم يحط بوزه على قائمتيه من جديد ويغمض عينيه .

واما الدكتور فكان يتأمله في حيرة ، ويتأرجح في المقعد الهزاز ، ويفكر في مشقة باحثاً عن اسم يطلقه عليه . كيف يدعوه ؟ ام من الافضل التخلص منه قبل فوات الاوان ؟ فما حاجته الى الكلب ! ورفع الدكتور عينيه مفكراً ، فاذا

بنجمة كبيرة تلمع ببريق ازرق في مكان منخفض فوق الافق . فتمتم قائلاً :

– اركتور .

فحرك الكلب اذنيه وفتح عينيه .

– اركتور ! – قال الدكتور من جديد وقلبه يخفق .

رفع الكلب رأسه واخذ يهز ذنبه بغير اطمئنان .

– اركتور ! تعال الى هنا ، اركتور ! – نادى الدكتور هذه المرة ببهجة ولهجة ذات سطوة . فنهض الكلب ، ودنا منه ومس بانفه ركبة صاحبه مساً حذراً . فضحك الدكتور وحط يده على رأس الكلب . وهكذا زال بالنسبة للكلب الاعمى الاسم الذي لم يلفظ قط ، والذي سمته به امه ، وظهر له اسم جديد اطلقه عليه انسان .

الكلاب متنوعة ، شأنها شأن الناس . فثمة كلاب فقيرة متسولة ، وثمة كلاب شاردة طليقة عبوسة ، وثمة كلاب نبّاحة حمقاء في اندفاعها . وهناك كلاب مهانة مرذولة ، ملتمسة

للصدقات ، زاحفة وراء كل من يصفر لهـا .
تتلوى وتهز اذيالها ، في استخذاء العبيـد ،
وتنطلق هاربة عاوية بهلع اذا هي تلقت ضربة ،
او رفعت عليها اليد مجرد رفع .

وقد رأيت كثيراً من الكلاب الامينة الوفية ،
والكلاب المطواعة ، والمتدلعة العنيـدة ،
والمتكبرة ، والصامدة ، والمتملقة ، والمستهترة ،
والخبيثة ، والتافهة . وما كان اركتور ليشبه
ولا واحداً منها . كانت عاطفته نحو صاحبـه
خارقة للعادة وسامية . كان يحبه حباً متأججاً
وشاعرياً ، بل لعله كان يحبه اكثر من محبته
للحياة . الا انه كان خجولاً ونادراً مـا كان
يسمح لنفسه بالكشف عن طويته كشفاً تاماً .

وكانت لصاحبه دقائق يكون فيهـا معتكـر
المزاج ، وكان في بعض الاحيـان يتصـف
باللامبالاة ، وغالباً ما كانت تعبق منه رائحة
الكولونيـا ، هذه الرائحة التي لا تصـادف في
الطبيعة قط . الا انه كان طيباً في اغلب الاحيان ،
واذ ذاك كان اركتور يعـاني تباريـح الهوى ،

فيغدو وبره ناعماً ، واما جسده ، فيبدو وكأنه يحس وخز الابر . يود لو يقفز ويطلق ساقيه للريح وينبح بانطلاق وفرح . ولكنه يكبح جماح نفسه . فتنسدل اذناه ، ويتوقف ذنبه عن الحركة ، ويتراخى جسده ويسكن ، اما قلبه فيخفق لوحده خفقات عالية النبرات سريعة . وحين كان صاحبه يأخذ بدفعه ودغدغته ومداعبته ويضحك ضحكته المتقطعة المقرقرة ، فيا لها اذ ذاك من متعة ! كانت رنات صوت صاحبه اذ ذاك مديدة وقصيرة ، مبقبقة وموشوشة ، فهي شبيهة في وقت واحد بخرير الماء وحفيف الاشجار وليست شبيهة بشيء . وكانت كل رنة تلد شرارات وروائح غامضة مثلما تلد القطرة رعشة في الماء ، اما اركتور فكان يبدو له ان هذا كله قد جرى له ، جرى منذ وقت بعيد ، بعيد بحيث ما كان يستطيع تذكر اين ومتى . اغلب الظن ان مثل هذا الاحساس بالسعادة قد تمتع به حين كان يرضع ثدي امه ، وهو جرو اعمى .

٣

بعد قليل من الوقت اتيحت لي امكانية التعرف عن كثب على حياة اركتور ، فعرفت كثيرا من الطرائف .

ويبدو لي الآن انه كان يحس الى حد ما بما فيه من عيب يحط من شأنه . كان من حيث مظهره كلباً مترعرعاً ، متين القوائم ، اسود الظهر ، ذا بقع صهباء على بطنه وبوزه . وكان قوياً وجسيماً بالنسبة لسنه ، ولكن حركاته جميعاً كانت تنم عن انعدام الثقة بالنفس وعن التوتر . وعدا ذلك ، كان يستحوذ على بوزه وجسده كله تساؤل مرتبك مضطرب . كان يعرف حق المعرفة ان جميع الكائنات الحية المحيطة به اكثر منه حرية واندفاعاً . فقد كانت تركض بسرعة وثقة ، وتمشي مشية خفيفة صامدة ، غير متعثرة ولا مصطدمة بشيء . وخطواتها متميزة برنتها عن خطواته . فقد كان هو نفسه يتحرك دائماً بحذر وبطء وبشيء من الانحراف — اذ كانت تعترض طريقه كثرة

من الاشياء . في حين ان الدجاجات والحمائم والكلاب والعصافير والقطط والناس وكثير من الحيوانات الاخرى تعدو على السلالم بجرأة ، وتقفز فوق الحفر والسواقي ، وتدور في الازقة ، وتطير وتختفي في اماكن لم يكن لديه مفهوم عنها . اما هو فكان نصيبه الحذر وانعدام الثقة بالنفس . لم اره قط ماشياً او راكضاً بانطلاق وطمأنينة وسرعة . اللهم الا في الدرب العريض ، وفي البرية ، وعلى شرفة بيتنا ... ولكن اذا كان الحيوانات والناس مفهومين لديه ، وكان على الارجح قد وجد شيئاً من التماثل بينه وبينهم ، فقد كانت السيارات والجرارات والموتوسيكلات والدراجات غير مفهومة لديه اطلاقاً ومخيفة له . في الايام الاولى كانت البواخر والزوارق البخارية تثير في نفسه فضولاً هائلاً . وما كف عن الاهتمام بها الا حين ادرك ان هذا السر لن يكشف له ابداً . ولهذا بالذات لم يهتم ابداً بالطائرات .

ولكنه اذا كان عاجزاً عن رؤية اي شيء ، فقد كان ، بالمقابل ، لا يباريه في الشم اي كلب .

فقد تعلم شيئاً فشيئاً جميع روائح المدينة ، وبات بارعا في اتخاذ وجهته فيها . ولم يصادف ان تاه فما عرف دربه الى البيت . فلكل شيء رائحته ! وقد كانت الروائح كثيرة ، وكانت كلها تعلن عن نفسها بصوت عال . وكل شيء ينشر رائحة على شاكلته – هذا له رائحة كريهة ، وذاك غير ذات صفة ، والآخر حلوة . فكان على اركتور ان يرفع رأسه ويتشمم ، فيحس على الفور بالقمامات وحفرها ، والبيوت الحجرية والخشبية ، والاسيجة والعنابر والناس والخيل والطيور – يحس بها احساساً جلياً واضحاً كأنما كان يرى كل هذا .

وكان على ضفة النهر ، خلف المستودعات ، صخرة كبيرة رمادية تكاد تكون منغرسة في الارض ، كان اركتور مولعا بشمها ولعاً خاصاً . ففي شقوقها ومسامها كانت تكمن اروع الروائح واعجبها . وكانت تبقى احيانا اسابيع ، وما كان يستطيع ازالتها غير الريح الشديدة . وكلما كان اركتور يركض ماراً بالقرب من هذه الصخرة ، كان ينعطف نحوها ويظل وقتا طويلاً

منشغلاً بتحرياته . فكان يستنشـق ويأخذه الاضطراب فيهرب ثم يعود من جديد ليستوضح عنصراً اضافياً .

وبالاضافة الى هذا ، كان يسمع الاصوات الدقيقة التي لا نسمعهـا نحن ابداً . يستيقظ ليلاً ، فيفتح عينيه ، ويرفع اذنيه ويتسمع . وقد كان يسمع جيداً كل النشيـش على بعـد فراسخ كثيرة من حوله . ويسمع طنين البرغش والازيز في عش الزنابير على العلية . يسمع حفيف الفأرة في الحديقة ومشية القط الخفيفـة على سطح العنبر . فما كان البيت بالنسبة له صامتاً لا حياة فيه ، كما هو بالنسبة لنا . كان البيت ايضاً يعيش : فهو يطلق الصرير والحفيـف ، ويطقطق ويرتعش من البرد ارتعاشـاً بالكاد يلحظ . وفي انبوب المزراب يسيـل النـدى ويتسرب الى تحت فيتساقط قطرات قليلـة على حجر املس . ومن تحت كانت تصـل الى السمع وسوسة الماء الخفيفة في النهر . وتحركت طبقة سميكة من الاخشاب في الخليج ، قرب مصنع الخشب . وسمع صرير خفيف لمساند

المجاذيف – ثمة من يمر في النهر على زورق . وبعيداً جداً ، في القرية ، تصيح الديكة صياحاً ضعيفاً في الافنية . تلك كانت حياة مجهولة لا نسمعها قط ، الا انها معروفة ومفهومة لديه .

وكانت له ايضا خاصة اخرى : ما كان ابداً يعوي عواءً صارخاً ولا نائحاً ، استدراراً للشفقة ، رغم ان الحياة كانت شديدة الوطأة عليه .

كنت ذات مرة امشي في الطريق خارجاً من المدينة . وكان المساء يهبط . وثمة دفء وسكينة ، كما لا يصادف ان يحدث عندنا الا في امسيات الصيف الهادئة . وارتفع غبار على الدرب من بعيد ، وسمع خوار بقر وصرخات مديدة حادة ولسع سياط : كانوا يسوقون قطيعاً من البرية .

وفجأة لمحت عيني كلبا يركض على الطريق منهمكاً لملاقاة القطيع . فعرفت اركتور في الحال من ركضه الخاص المتوتر غير الواثق . فيما مضى لم يكن يبارح تخوم المدينة ابداً .

«الى اين يركض ؟» ـ قلت هذا في نفسي ولاحظت فجأة في القطيع المقترب تهيجاً غير مألوف .

الابقار لا تحب الكلاب . وقد بات الهلع من الكلاب الشبيهة بالذئاب والكراهية لها غريزيين لدى الابقار . وها هي الصفوف الاولى منها قد توقفت منذ ان رأت كلباً قاتماً راكضاً مقبلاً عليها . وفي الحال شق الطريق الى امام ثور قصير القوائم اصفر في خيشومه حلقة . وباعد بين قوائمه وصوب قرنيه الى الارض وانطلق يخور شاهقاً ، موتراً جلده ، محملقاً بعينين محتقنتي البياض بالدم .

وصاح احدهم من خلف :

ـ غريشكا ! عجل الى امام ، الابقار ... وا ... قفة !

وكان اركتور ، من غير ان يشتبه بشيء ، يجري على الدرب جريه الاخرق ، وقد بات على مقربة مباشرة من القطيع . واعتراني الخوف فناديته . فتابع جريه بضع خطوات اخرى بفعل اندفاعه السابق وتوقف دفعة واحدة

واستدار نحوي . وفي تلك اللحظة اخذ الثور يشهق وانقض على اركتور بسرعة خارقة ونطحه بقرنيه . وعلى مهاد ضياء الفجر لاح شبح الكلب الاسود وانطرح وسط زحمة الابقار . وكان لسقوطه وقع انفجار قنبلة . فتراكضت الابقار متنحية عنه ، مطلقة خوارها متلاطمة بقرونها . وتدافعت المتخلفات الى امام ، واختلط كل شيء ، وثارت زوبعة من الغبار . ورحت انتظر بتوتر والم سماع صرخة ما قبل الموت ، ولكنها لم تنطلق .

واذ ذاك اقبل الرعاة راكضين ، فاخذوا يضربون بالسياط ، ويصيحون بمختلف الاصوات ، واقفرت الطريق فرأيت اركتور . كان يتمرغ في التراب ، ويبدو هو نفسه كأنه كومة من تراب او خرقة عتيقة ملقاة على الطريق . ثم اخذ يتحرك ، ونهض ومضى يعرج مترنحاً الى حافة الدرب . ورآه كبير الرعاة ، فصاح بخبث :

— آه ، كلب !

واطلق شتيمة ولسع اركتور بالسوط

بكثير من الشدة والمهارة . فلم يعو اركتور ، بل انقبض على نفسه فقط ، والتفت الى الراعي لحظة بعينين عمياوين ، ومضى الى الحفرة ، وعثر فوقع .

كان الثور واقفاً على عرض الطريق يحفر الارض بقوائمه ويخور . فانهال الراعي عليه ايضاً بلسعة سوط شديدة بارعة ، هدأ الثور على اثرها في الحال . وكذلك هدأت الابقار ، وتابع القطيع دربه مثيراً غباراً مشوباً برائحة الحليب ، مخلفة الزبل على الدرب .

واقبلت على اركتور . كان متسخاً ، ثقيل الانفاس ، مندلع اللسان ، تتحرك اضلاعه تحت جلده . على خاصرتيه خطوط ندية . قائمته الخلفية منسحقة ، راجفة . وضعت يدي على رأسه ، وشرعت اكلمه ، فما كان يجيب . كان كل كيانه يعبر عن الالم والحيرة والاستياء ، فما كان يدرك لماذا ديس عليه وضرب . من عادة الكلاب ان تعوي في مثل هذه الحالات نائحة متشكية ، اما اركتور فما كان يعوي هذا العواء .

٤

ومع ذلك فقد كان من شـأن اركتور ان يظل كلباً بيتياً ، وربما كان من شأنه ايضاً ان يسمن ويتكاسل ، لو لم تقع المصادفة السعيدة التي اسبغت على كل حياته المقبلـة معنى من الرفعة والبطولة .

وقد حدث الامر على هذا النحـو . كنت ذاهباً الى الغابة صباحـاً لاتفرج على توهجـات اواخر الصيف التي كنت اعلم ان الذبول يبدأ بعدها بقليل . وكان اركتور يتبعني . طردته عدة مرات . فكان يقعـد بعيـداً عني ويصبر قليلاً ثم يركض خلفي من جديد . وسريعا ما اضجرني عناده غير المفهوم ، فكففت عن الانتباه له .

كانت الغابة تذهل اركتور . ففي المدينة كان كل شيء معروفاً لديه . هناك ارصفة خشبية ، وجادات عريضة ، وعوارض من خشـب على شاطئ النهر ، وممرات ملساء . اما هنا فكانت تواجهه فجأة من جميع الجهات اشيـاء غير

معروفة لديه : اعشاب عالية باتت قاسية بعض الشيء ، شجيرات واخزة ، قرم متفسخـة ، اشجار منهارة ، شجيرات شوح فتية طرية ، اوراق ساقطة مخشخشة . ومن جميع الجهات ثمة ما يلامسه ويخزه ويضغط عليه ، كأنما هي متآمرة لطرده من الغابة . وثمة ايضاً روائح وروائح ! وما اكثرها روائح غير معروفـة ، رهيبة ، ضعيفة وقوية ، ما كان يعرف مدلولها ! وقد كان اركتور اذ يصطدم بجميع هذه الاشياء العابقة ، الموشوشة ، المخشخشة ، الواخزة ، ينفخ بانفه ، مرتعشاً ، ويشد نفسه على ساقيّ . كان في ارتباك وخوف . فرحت اكلمـه بصوت خفيض :

– ايه ، يا اركتور ! انك لكلب مسكين ! لست تدري ان في الدنيا شمساً ساطعة ، لست تدري كم تكون الاشجار والادغال خضراء في الصباح وكم يبرق الندى بريقـاً شديـداً على العشب ؟ لست تدري ان مـا حولنـا زاخر بالازهار : بيضاء وصفراء وزرقاوية وحمراء ، وان وسط اشجـار الشوح الشائبـة والاوراق

المصفرّة تحمرّ بحنان عناقيد الغبيراء وثمار شجرة موسى . ولو انك كنت ترى القمر والنجوم في الليالي فلربما كنت تبحث عليها مرتاح النفس مسروراً . وانىّ لك ان تعرف ان للخيل والكلاب والقطط جميعا الوانا متنوعة ، وان الاسيجة يصادف ان تكـون سمـراء وخضراء ومجـرد رمادية ، وان زجاج النوافذ يلمـع بكل هذه الشدة وقت الغروب واي بحر من الانوار يغمر النهر اذ ذاك ! ولو انك كنت كلباً عادياً معافى لكان صاحبك صياداً . ولكنت سمعت في الصباح اذ ذاك صوت النفير العنيف والاصوات الوحشية التي لا يطلقها الناس العاديون ابداً . ولكنت طاردت الوحوش ، وانت تَشْرق بنباحـك ، ناسياً نفسك ، ولكنت خدمت صاحبك الصياد بهذا الطراد المحموم خلف الاثر ، ولما كان لديك ما هو اعلى من هذه الخدمة . ايه ، يا لك من كلب مسكين يا اركتور !

وظللت امضي قدما في الغابة وانا اتحدث معه هكذا بصوت خفيض لكي لا يشعر بكثير من الرهبة . وقد تجاسر اركتور شيئاً فشيئاً

واخذ يتفحص الشجيرات والقرم بمزيد من الجرأة . فكم كان يجد من جديد وغير مألوف ، واية غبطة كانت تستولي عليه ! لم يعد الآن يلصق بي وهو منهمك بعمله الهام . ومن حين لآخر فقط ، كان يتوقف ، فيتطلع صوبي بعينين بيضاوين ميتتين ، ويرهف اذنيه متسمعاً راغباً في ان يتأكد من سلوكه هل هو صحيح ، وهل تراني امشي وراءه . ثم يستأنف الدوران في الغابة من جديد .

وبعد قليل وصلنا الى مرج . فاستولى على اركتور انفعال رهيب . فقد راح ينط بين الادغال ، عاضاً العشب ، متعثراً بالتلاع . كان يتنفس بصوت عال ، ويزحف قدماً ، وما عاد ينتبه الي ولا الى الاغصان الشائكة . واخيراً فلت زمامه من يده ، فاطبق اجفانه واندس في الدغل بضجيج ، واختفى هناك ، وراح يتخبط ... فقلت في نفسي : «سمع احداً ما» . وتوقفت .

وانطلق بين الادغال صوت رنان غير واثق :

— عو ! عو ، عو !

فناديته بقلق :

ـ اركتور !

ولكن حدث في تلك اللحظة شيء ما ، فقد اطلق اركتور صيحة حادة ، واخذ يعوي ويقتحم اعماق الدغل بصخب . وسرعان ما تحول عواؤه الى نبـــاح ، وتجلى لي من ارتعـــاش رؤوس الشجيرات في الدغل كيف كان يشق لنفســـه الطريق هناك .

وخفت عليه فهرعت اعترض سبيله ، مناديا اياه بصوت عال . ولكن صياحي ، على ما يبدو ، لم يكن يؤدي الا الى زيادة اندفاعه . كنت اجتاز راكضاً فسحة من الغابة ، ثم فسحـــة اخرى ، متعثراً ، متورطا في الادغال الكثيفة المتماسكة ، لاهثاً ، وانحدرت في واد صغير ، وبكل ما في من قوة القيت بنفسي في الوادي مقاطعاً الطريق ، وهرعت الى مكان خال من الاشجـــار فرأيـــت اركتور في الحال . كان ينحدر من الادغـــال ويجري نحوي مباشرة . كان في حالة لا يعرف معها ، يعدو عدواً مضحكاً ، قافزاً قفزات عالية لا مثلما تركض الكلاب العادية ، الا انـــه كان

مع ذلك يعدو عدواً واثقاً مندفعاً ، وينبح بدون انقطاع ، شاهقاً ، منقطعاً بصوت رفيع كصوت الجرو . فصحت به :ـ اركتور !

فتوقف عن الجـري ، وتمكنت من القفـز والامساك به من طوقه . فراح يتملص ويزمجر ، وقد كاد ان يعضني ، وكانت عيناه محتقنتين بالدم ، وقد كلفتني تهدئتـه وتسليتـه جهداً عظيماً . كان مصابا برضوض وخدوش شديدة ، واذنه اليسرى متدلية الى الارض : جليّ انه قد ارتطم مع ذلك في مكان ما عدة مرات ، ولكن اندفاعه كان من الشدة وتهيجه كان من العنف بحيث ما كان يحس بهذه الكدمات والرضوض .

٥

منذ ذلك اليوم اتخذت حياته وجهة اخرى . فقد كان يختفي في الغابة منذ الصباح ، ويفلت هناك لوحده ويعود احيانا قبيل المساء ، واحيانا في اليوم التالي ، وهو في كل مرة مرهق منهوك ، محتقن العينين بالـدم . وخلال هـذه المدة ،

ترعرع كثيراً ، واتسع صدره واشتد صوته . وباتت قوائمه ضامرة قوية كأنها نوابض من فولاذ .

اما كيف كان يعدو هنـــاك وكيف لم يكن يتحطم ، فأمر ما كنت استطيع له فهماً . اغلب الظن انه كان ، مع ذلك ، يشعر بان ثمة ما ينقصه في صيده الانفرادي . ربما كان ينتظر الاستحسان والدعم من جانب الانســـان ، وهو امر ضروري جداً لكل كلب صيد .

ما رأيته مرة عائداً شبعان من الغابة . فمن المؤكد ان ركضه ، ركض كلب اعمى اخرق ، كان متباطئاً غير واثق . كلا ، انه لم يكن ابداً ليدرك اعداءه في طراده لهم ، ولا كان ينشب فيهم انيابه . وقد كانت الغابة عدواً صامتاً له ، كانت تخزه في بوزه وعينيه ، تعيقه عن الركض وتسد عليه الطريق .

وما كان يتوفر له غير الرائحة ، الوحشية منها ، والمثيرة ابدا ، والداعية ، والطيبة الى حد لا يحتمل ، والعدائية ، ـ ماكان يتوفر له غير

اثر من بين الوف الآثار الاخرى يظل يمضي به الى امام فالى امام .

فكيف كان يجد طريقه الى البيت بعد صحوته من الركض المحموم ومن الاحلام العظيمة ؟ واي احساس بالمسافة والطوبوغرافيا ، اية غريزة عظمى كان يحتاج اليهما لكي يصل البيت بعد صحوته ، وهو خائر القوى تماماً ، منهوك ، منقطع الانفاس ، منبحّ الصوت ، في مكان ناء من الغابة على بعد فراسخ عديدة حيث يخشخش العشب وتعبق رائحة الوهاد الرطبة .

لا بد لكل كلب صيد من تقدير واستحسان من جانب الانسان . فالكلب يطارد الوحش وينسى كل شيء ، ولكنه يعلم حتى وهو في عنفوان حماسته ان صاحبه الصياد موجود في مكان ما ، قدّام ، يركض في الممرات ، مأخوذاً بمثل هذه الحماسة ، وان الطلق الناري الذي سيصوبه لحظة يحين الوقت سيقرر كل شيء . وفي مثل هذه الدقائق يستوحش الكلب بفعل صوت صاحبه ، وتنتقل اليه العدوى منه : فهذا ايضاً يتسلل في الادغال ، ويعدو ويستنفر

صائحاً بصوت اجش ، ويساعد الكلب على تعقب الاثر . وحين ينتهي كل شيء ، يلقي الصياد الى الكلب باطراف قوائم الارنب ، وينظر اليه بعينين وحشيتين مخمورتين مبتهجتين ، ويصيح باغتباط : «أه يا حباب !» ويربت له خلف اذنيه .

اما اركتور فكان مفرداً من هذه الناحية وكان يعاني الضنى والعذاب . فقد كان حبه لصاحبه يصطرع في نفسه مع حماسته للصيد . وقد رأيته عدة مرات في ساعة مبكرة من الصباح ، يتسلل من تحت الشرفة ، حيث كان يحب ان ينام ، فيركض قليلاً في الحديقة ، ويقعد تحت نافذة صاحبه ويروح ينتظر استيقاظه . كان من قبل يفعل هذا على الدوام ، فاذا ما استيقظ الدكتور في حالة نفسية منشرحة وتطلع من النافذة ، فنادى : «اركتور !» - فكم كانت تصدر اذ ذاك من حركات من هذا الكلب ! كان يقبل على النافذة بأبهة وخيلاء ، فيمط رأسه لفوق بعنق مشدود ، ويتمايل ويتنقل من قائمة لاخرى . وبعد ذلك ينفذ الى البيت ، فتبدأ هناك هوشة

وايّ هوشة ، وتسمع اصوات فرحة سعيدة ، والحان الدكتور ، ووقع اقدام في الغرف .

انه الآن ايضاً ينتظر استيقاظ الدكتور . ولكن ثمة الآن شيئاً آخر يقلقه شديد القلق . فهو يرتعد بعصبية من حين لآخر ، وينتفض ، ويتحكك ، ويتطلع لفوق ، وينهض ، ثم يعود فيقعد ويروح يهر متباكياً بصوت خافت . وبعد ذلك يأخذ بالركض قرب الشرفة موسعاً دائرة ركضه باطراد ، ويعود فيقعد من جديد تحت النافذة ، بل انه ليعوي عواء قصيراً بدافع من فراغ صبره ، ويرهف اذنيه ويصيخ سمعه طويلاً مائلاً برأسه على التوالي تارة الى هذه الناحية وتارة الى تلك . وينهض اخيراً ، فيتمطط بعصبية ويتثاءب ، ويتجه صوب السياج وينفذ بحزم من خلال الشق . وبعد وقت قليل كنت اراه بعيداً في البرية ، يتقلقل بجريه المنتظم المشوب بشيء من التوتر وعدم الثقة . انــه ماض الى الغابة .

٦

كنت ذات مرة سائراً ، ومعي البندقية ، على ضفة مرتفعة من بحيرة ضيقة .

وكان البط في ذلك العام سميناً فوق العادة وكثيرا ، وغالباً ما كانت تصادف دجاجات الارض في المنخفضات ، فكان الصيد هيّناً بهيجاً .

اخترت قرمة ملائمة بعض الشيء وجلست استريح ، فاذا بي ، اذ هدأت الريح الخفيفة التي كانت تهب منذ قليل وحلت لحظة هدوء حقيقي ، اسمع اصواتاً غريبة جد بعيدة . وكان ذلك اشبه بقرع رتيب على جرس من فضة ؛ وهذا الصوت الدافئ يتخلل اشجار الشوح ويشتد في الاحراش فيتسرب الى الغابة كلها ، منسقاً كل شيء في لحن مهيب . وشيئاً فشيئاً اخذت الاصوات تتمايز فادركت ، وقد جمعت انتباهي ، ان ثمة كلباً يعوي في مكان ما . وقد كان العواء صافياً ضعيفاً بعيداً ، مقبلاً من شاطئ البحيرة المقابل من اعماق احراش الصنوبر ؛ وكان يضيع احياناً فلا يبقى له اثر ،

ثم يستأنف من جديد بعناد وقد بات اقرب واعلى بعض الشيء .

وكنت جالساً على القرمة اتطلع حولي الى اشجار البتولا الصفراء التي قلت اوراقها ، والى الطحلب المغبرّ واوراق شجر الحور الرجراج الارجوانية المرئية عليه من بعيد ، فسمعت العواء الفضي وبدا لي ان السناجب وديكة الاحراش واشجار البتولا واشجار الشوح الخضراء المتراصة والبحيرة تحت تسمعه معي ، وترتعش شباك العنكبوت . وسرعان ما بدا لي في هذا العواء الموسيقي شيء معروف لدي ، وادركت في الحال ان اركتور يطارد .

اذ ذاك اذن اتفق لي ان اسمعه ! لقد كان الصدى الفضي الضعيف يرن منعكساً على اشجار الصنوبر ، فكان يخيل للسامع ان ثمة عدة كلاب تعوي . وحدث مرة لاركتور ، على ما يبدو ، ان عثر فصمت . واستمر هذا الصمت دقائق طوالاً ، فاذا بالغابة تغدو على الفور مقفرة ميتة . وكأنما كنت ارى كيف يدور الكلب رامشاً بعينين بيضاوين ، معتمداً على حاسة الشم

وحدها . ولكن لعله قد ارتطم بشجرة ؟ ولعله الآن طريح محطم الصدر عاجز عن النهوض ينزف دماً ويتعذب ؟

ولكن الطّراد استؤنف بقوة جديدة ، وبات على مقربة ملحوظة من البحيرة . وقد كانت تلك البحيرة قائمة بحيث تؤدي اليها جميع الممرات والمنافذ ، فلا يحيد عنها واحد منها . وقد كنت ارى قرب هذه البحيرة الكثير من الامور الطريفة . وقد اخذت الآن ايضاً اهبتي ولبثت انتظر . وما هو الا قليل حتى قفز ثعلب على مرج صغير قائم من البقلة على الشاطئ الآخر . وقد كان رماديا اغبر ذا ذيل رفيع كلحاء القنب . وقد توقف لحظة رافعاً قائمته الامامية ، ناصباً اذنيه ، مرهفا سمعه الى وقع خطوات المطارد المقترب . ثم اجتاز المرج غير مستعجل ومضى الى طرف الغابة ، فغاص في الوهدة وتوارى في الحرش . وفي تلك اللحظة انقض اركتور ايضاً على المرج . كان يجري متنحيا بعض الشيء عن الاثر الذي يتعقبه ، مطلقاً صوته باستمرار وحنق ، وكان على حاله دائماً يقفز في عدوه

قفزاً عالياً اخرق . وجرياً وراء الثعلب انطلق طائراً الى الوهدة واندس في الحـــرش وشرع يصرخ ويعوي هناك ، وسكت قليلاً وهو يخرج بنفسه من مكان صعب ثم اخذ يعوي من جديد بصوت منخفض رتيب ، كأنه يقرع ناقوساً من فضة .

وكما في مسرح عجيب مر من امامي بسرعة البرق العدوان الازليان ، الكلب والوحش ، وغابا عن انظـــاري ، فبقيت من جديد لوحدي مع السكون وعواء الكلب البعيد .

٧

سرعان ما ذاعت شهرة كلب الصيد الفريد في المدينة ، وجميع ضواحيها . فقد كان الناس يرونه على شاطئ نهر لوسفا البعيد ، وفي السهول القائمة خلف الهضاب المكسوة بالاحراش ، وفي ابعد طرق الغابات . وكان الناس يتحدثون عنه فى القرى وعلى المراسي وفي معابر النهر ، وبشأنه

يتجادل عمال التعويم وعمال مصنع الخشب حول كؤوس البيرة .

واخذ الصيادون يجيئون الينـا في البيت . وكانوا ، على العموم ، لا يصدقون الشائعات ، فهم يعرفون من خبرتهم انفسهم قيمة حكايات الصيادين . فكانوا يتأملون اركتور ، ويتباحثون عن اذنيه وقوائمه ، وعن تتبعه ومطاردته وغير ذلك من بنود الصيد . وكانوا يحاولون ان يجدوا فيه ما يعيبه ويحضون الدكتور على ان يبيعهم الكلب . وكانت تتملكهم رغبة عاصفة في جس عضلات اركتور وتأمل قوائمه وصدره ، ولكن اركتور كان يجلس قرب قدمي الدكتور عابساً متحذرا بحيث ما كان يتجاسر احد على مد يده اليه . واما الدكتور فقد اكد عشرات المرات ، محمر الوجه غاضباً ، ان الكلب غير قابل للبيع وانه قد حان للجميع ان يعرفوا هذا . فكان الصيـادون ينصرفـون مكتئبين ، ويعقبهم من بعدهم آخرون .

وذات مرة ظهر شيخ في الحديقة ، وكان اركتور مستلقياً تحت الشرفة ، بعد اصابته

بجرح شديـد في الامس . وكانت عين الشيخ اليسرى مقلوعة منغلقة ، ولحيته الصغيرة التترية شفافة ، وعلى رأسه قبعة مدعوكة تغطي الاذنين والقذال ، وفي رجليه جزمة صياد . وحين رآني الشيخ رمش بعينيه ونزع قبعته وحك رأسه ونظر الى السماء . واخذ يقول قولاً غير محدد :

— يا للطقس الآن ، يا للطقس ...

ثم صمت بعد ان تنهد . وحزرت مبتغاه ، فسألته :

— الست قادماً من اجل الكلب ؟

— وكيف لا ؟ — قال منتعشاً ولبس قبعته .

— وماذا مثلاً ستكون نتيجة ذلك ؟ وما للدكتور والكلب ؟ انه في غير حاجة اليه ابداً ، اما انا فكم احتاج الى كلب ! عما قريب يجيء موسم الصيد وما الى ذلك ... يوجد عندي كلب صيد ولكنه رديء : مغفّل ، لا يتابع الاثر وليس له اي صوت . اما هذا فيا سلام ! اعمى ، آ ؟ الواقع ان المرء لا يمكن ان يتصور في عقله كيف يطارد هذا ! كلب قيصري ،وحق الصليب المقدس !

اشرت اليه ان يكلم صاحبه . فتنهد وتمخط
مضى الى البيت ، الا انه عاد بعد خمس دقائق
شديد الاحمرار والارتباك . وتوقف قربى وراح
بتحسر ويشعل سيجارته منفقا في ذلك وقتاً
طويلا . ثم قطب وجهه . فسألته وانا عارف
بالجواب مسبقاً :

– ماذا ، هل رفض طلبك ؟

فقال منفعلاً محزونا :

– طبعا ! يا لخيبة الامل ! انا صياد منذ
نعومة اظفاري . . . هاك ، انظر ، عيني فقدتها .
واولادي صيادون ايضا وما الى ذلك . اسمع ،
نحن بحاجة الى الكلب من اجل الشغل ، من اجل
الشد . . . غل ! كلا ، انه لا يبيعه . عرضت عليه
مبلغاً كبيرا من المال ، فما وافق ، انه لا يعطيه !
كاد ان يزأر زئيراً ، آ ؟ ينبغي لي ان ازأر !
موسم الصيد اقبل ، ولا كلب عندي !

كان يتطلع بارتباك الى الحديقة والسياج ،
وفجأة لاح على وجهه تعبير من خبث وذكاء .
فبات في الحال اهدأ بالاً .

– اين منامته عندكم ؟

هكذا سأل الشيخ مستفسراً كأنما السؤال صادر عن غير قصد ، ورمش بعينه .

فسألته قائلاً :

— اما تراك تريد سرقة الكلب ؟

فارتبك ورفع قبعته ومسح وجهه ببطانتها ونظر الي نظرة متفحصة . ثم قال وقد اخذ بالضحك :

— استغفر الله ! يمكن ان تضطروا الناس لارتكاب المعصية ! ولكن ما حاجته الى الكلب ؟ قل بالله عليك !

وكان قد مضى نحو المخرج ، الا انه توقف في طريقه ونظر الي نظرة مبتهجة .

— يـا له من صوت ، صـوت ! صوت ، اتفهم ؟ يرن كالينبوع حقا !

ثم ارتد راجعا واقبل علي واخذ يتكلم هامساً غامزاً ناظراً بطرف عينه الى نوافذ البيـت .

— اصطبر ، هذا الكلب سيكون لي . ما حاجته الى الكلب ؟ هو رجل مفكر ، لا صيـاد ... سيبيعني ايـاه ، وحـق الصليب المقدس ،

سيبيعني ! ان او ائل الشتاء لا تزال بعيدة . سندبر أمراً ما . وانت تقول ... ايه !

وما كاد الشيخ ينصرف حتى خرج الدكتور الى الحديقة فقال متهيجاً :

— ماذا كان يقول لك هنا ؟اف له من عجوز مقرف ! واية عين له ، اما لاحظت ؟ انها عين قاطع طريق لا غير !

كان الدكتور يفرك يديه بعصبيـــة ، وقد احمرت رقبته وترامت على جبينه خصلة شائبة من شعره . وسمع اركتور صوت صاحبه فانسل من تحت الشرفة واقبل علينــا وهو يعرج . فقال الدكتور :

— اركتور ! الن تخونني ابدا ؟

فاغمض اركتور عينيه ودس انفه بين ركبتي الدكتور . وكان عاجزاً عن الوقوف من جراء الوهن والضعف ، فجلس . كان مسدلاً رأسه ، يكاد يكون نائماً . فنظر الدكتور اليّ مبتهجاً واخذ يضحك مداعباً الكلب بملامسة ما وراء اذنيه . ومـــا كان يعلم ان الكلب السلوقي قد خانه ، خانه منذ اللحظة التي ذهب فيها معي الى الغابة .

٨

ما احسن ان تكون لجميع الحكايات الرائعة نهايات سعيدة ! وهل ترى لا يستحق البطل ، وان يكن مجرد كلب سلوقي ، ان يعيش حياة بهيجة مديدة ؟ ما من احد في الارض يولد عبثاً بدون فائدة ولا طائل ، والكلب السلوقي يولد من اجل ان يطارد الوحش العدو ، يطارده لكونه لم يقبل على الانسان ويصبح صديقاً له مثلما اقبل الكلب ذات يوم ، وظل طول الزمن وحشياً . والكلب الاعمى غير الانسان الاعمى ، فما من احد يساعده ، وانه لوحيد في الظلام ، انه عاجز محكوم عليه من قبل الطبيعة ذاتها ، الطبيعة القاسية ابداً حيال الضعـاف ، واذا كان مع ذلك يؤدي وظيفته الرئيسية بحماسة واندفاع ، اذا كان يعيش ، فاي شيء يمكن ان يكون احسن وارفع من هذا ! ولكن اركتور كان قليل النصيب من مثل هذه الحياة ...

كان شهر آب قد اوشك ان ينتهي ، وساء الطقس ، وكنت انا معتزماً السفر ، حين ضاع

اركتور . ذهب صباحاً الى الغابة ولم يعد لا في المساء ولا في اليوم التالي ، ولا بعد يومين .

وحين يحدث للصديق الذي كان يعيش معك ، والذي كنت تراه كل يوم وكنت في الغالب تتخذ منه حتى موقف اللامبالاة ، –حين يحدث لهذا الصديق ان يذهب فلا يعود قط ، لا يبقى لك منه غير الذكريات .

ولقد تذكرت جميع الايام التي قضيتها مع اركتور ، تذكرت عدم ثقته بنفسه ، وارتباكه ، وجريه الاخرق ، المنحرف بعض الشيء ، وصوته وعاداته ، والتوافه اللطيفة ، وغرامه بصاحبه ، بل تذكرت رائحته ، رائحة الكلب النظيف المعافى ... كنت اتذكر كل هذا وآسف على انه لم يكن كلبي ، وعلى اني لم اكن انا الذي اطلقت عليه اسمه ، وعلى ان حبه لم يكن لي انا ، وعلى انه لم يكن الى بيتي انا يعود في الظلام وقد صحا من المطاردة على بعد فراسخ عديدة.

نحل وجه الدكتور خلال تلك الايام . وقد اشتبه على الفور بالشيخ الذي مر عليه منذ

وقت قريب ، فرحنا نبحث عنه طويلاً الى ان وجدناه اخيراً . ولكن الشيخ اخذ يقسم الايمان ويحلف بالله على ان عينه لم تقع على اركتور ، بل انه امتلأ غيظاً علينا لكوننا لم نحافظ على مثل هذا الكلب ، وانبرى للبحث عنه معنا .

وبسرعة البرق انتشر نبأ ضياع اركتور في المدينة كلها . وتبين ان كثيرين يعرفونه ويحبونه وان الجميع مستعدون لمساعدة الدكتور في تحرياته . وشغل الجميع باكثر الشائعات والاقاويل تباينا واختلافاً . هذا رأى كلباً شبيهاً باركتور ، وذاك سمع عواءه في الغابة . . .

وكان الصبية ، اولئك الذين عالجهم الدكتور ، واولئك الذين لم يكن يعرفهم اطلاقاً ، يجوبون الغابة ، يصيحون ، ويتحرون جميع منازل حراس الغابات ، ويطلقون الرصاص ، ويجيئون الى الدكتور عشر مرات في اليوم مستطلعين متسائلين اما عاد ، اما وجد الكلب السلوقي الرائع العجيب .

لم اكن انا ابحث عن اركتور . فقد كنت الى

حد ما لا اصدق بانه يمكن ان يكون قد تاه ، اذ كانت له حاسة شم جيدة جدا تجعله في نجوة من الضياع . وكان من فرط الحب لصاحبه بحيث لا يمكن ان يستقر لدى اي صياد . فمن المؤكد انه قد لقي مصرعه ... ولكن كيف واين ؟ هذا ما لم اكن اعرفه . فما اكثر اسباب الموت !

وبعد بضعة ايام ادرك الدكتور ايضاً هذا . فاعتراه في الحال شيء من الاغتمام ، وانقطع عن الغناء وفي الامسيات كان يظل وقتاً طويلاً يستعصي عليه الرقاد . وبات البيت بدون اركتور خاوياً ساكناً ، وما عادت القطط تخشى احداً ، فهي ترود الحديقة بحرية ، وما عاد احد يتشمم الصخرة القائمة قرب النهـــر . فكانت تنتصب ناتئة فوق الارض في اكتئاب ومن غير جدوى ، واسودت من المطر ، ولم يعد لاحد من حاجة الى روائحها .

ويوم سفري ظللنا وقتاً طويلاً انا والدكتور نتحدث عن شتى الاشياء . وكنا نحاول عدم تذكر اركتور . مرة واحدة فقط اعرب الدكتور عن اسفه لكونه لم يصبح صياداً منذ شبابه .

٩

وبعد عامين جئت من جديد الى ذلك المكان ومن جديد نزلت في بيت الدكتور مستأجراً . وكان على سابق عهده يعيش لوحده . وما كان ثمة من احد يدق ارض البيت باظافيره ، ولا كان من احد ينفخ بانفه او يلطم الاثاث المضفور بذيله . كان البيت صامتاً ، والغرف على حالها تعبق بروائح الغبار والادوية وكسوة الجدران الورقية العتيقة .

ولكن الوقت كان ربيعاً ، فما كان البيت المقفر يحدث في النفس انطباعاً ثقيلاً . وفي الحديقة كانت البراعم تتفتح ، والعصافير تزقزق ، وفي حرش حديقة المدينة كانت الغربان تحط في صخب ، والدكتور يترنم بالحانه بصوت رفيع حاد . وفي الاصباح كان ينتصب فوق المدينة دخان ازرق ، والنهر يفيض على مد البصر ، وفوق المياه الفائضة تستريح طيور التم وتحلق في الصباح مطلقة صيحاتها الازلية «كلينك ـ كلانك» ، والمراكب الرشيقة السريعة

السير ترسل صفيرها الاخنّ ، والسفن القاطرة العنيدة تبوّق باصوات مديدة . فكان الجو مرحاً !

وفي اليوم التالي لقدومي ذهبت الى الصيد . كان يغمر الغابة ضباب ذهبي اللون ، ومن حولي تتساقط قطرات مياه الربيع الذائبة ، ويسمع طنين ونشيش . وكانت الارض تخلع عنها دثارها الثلجي وتعبق برائحة شديدة حادة ، وكم كانت من روائح اخرى ، هي روائح قشور الحور ، والشجر المهتري ، والاوراق الرطبة ، كانت تتغلب عليها جميعا رائحة الارض الشديدة الحادة .

كان مساء رائع ، وشمس الغروب تنشر بحراً من النيران ، ودجاجات الاحراش تطير باسراب كثيفة . رميت اربعة منها ، وبشق النفس عثرت عليها في طبقة معتمة من اوراق الشجر . وحين اخضوضرت السماء واظلمت وبزغت اولى النجوم ، مضيت بخطوات بطيئة الى البيت على الدرب غير المطروق المعروف لديّ ، منعطفاً حول الرامات العريضة التي

تنعكس فيها السماء واشجار البتولا العارية والنجوم .

وفيما كنت انعطف حول احدى هذه الرامات عن طريق مرتفع صغير ، لاحظت امامي فجاة شيئاً منيراً ، فحسبت اول الامر ان هذه كومة اخيرة من الثلج ، ولكني حين دنوت منها رأيت عظام كلب قليلة مبعثرة . فخفق قلبي خفقات شديدة ، ورحت امعن النظر فابصرت طوقاً فيه ابزيم نحاسي مخضرّ ... اجل ، تلك كانت البقية الباقية من اركتور .

وبعد ان تفحصت كل شيء حزرت وانا في الظلمة المطبقة كيف حدث الامر . كان على شجرة شوح غير معمرة ، الا انها يابسة ، غصن منفرد منخفض . وهو ، كالشجرة كلها ، قد تعرى من الورق ، بعد يباسه ، واخذ يتكسر الى ان اصبح في النهاية قضيباً اجرد حاداً . وبهذا القضيب ارتطم اركتور حين كان يعود متتبعاً الاثر العبق الحديث غير مدرك ولا عارف شيئاً الا هذا الاثر الحافز الى امام ، الى امام

ابداً . لقي مصرعه وهو يصطاد ، وما ابصر النور ابداً . وقد عاش حياة عظيمة .

وتابعت مسيري في العتمة المطبقة فخرجت الى طرف الغابة ، ومن هناك مضيت مطقطقا بقدمي على الارض الندية على الدرب ، ولكن كل تفكيري كان يرجع بي الى هناك ، الى المرتفع الصغير وشجرة الشوح اليابسة المحطمة .

للصيادين ولع غريب بالاسماء الطنانة . واية اسماء يلقاها المرء بين كلاب الصيد ! فثمة ديانا ، وآنتي ، وفيسب ، ونيرون ، والزهرة ، وروموول ... ولكن اغلب الظن ان ليس ثمة من كلب كان جديراً الى هذا الحد بالاسم المدوّي ، اسم النجم الازرق الذي لا يخبو له نور .

قسطنطين باؤستوفسكي



قسطنطين باؤستوفسكي ـ مولود سنة ١٨٩٢ من اقدم الكتاب السوفييتيين ، ووجه بارز في ميدان القصة العاطفية . وضع اكثر من ثلاثين كتاباً ، تكاد تكون يوميات عاطفية عن حياة المجتمع السوفييتي بين العقدين الثالث والسابع من هذا القرن .

وقد كتبت قصة «الصبي ليونكا» ، المنشورة هنا ، في سنة ١٩٣٨ .

الصبي ليونكا

كنا نسير وفق خارطة رسمت في العقد الثامن من القرن الماضي . وكانت قد وضعت ملحوظة في زاوية من الخارطة تقول انها رسمت «على اساس اسئلة وجهت الى السكان

المحليين» . فما كان في هذه الملحوظة ، برغم صراحتها ، ما يدخل المسرة الى نفوسنا . اذ كنا نحن ايضا نهتم بسؤال السكان المحليين ، ولكن اجوبتهم كانت على الدوام تقريبا غير دقيقة .

كان «السكان المحليون» يصيحون طويلاً وبحرارة ويتشاتمون وينوهون بكثير من الاشارات . وكانت ايضاحاتهم تبدو هكذا على وجه التقريب : «منذ ان تبلغوا الساقية ميلوا صوب الغابة ، وهناك سيروا نحو طرف الطريق بمحاذاة طرف الغابة المحروق حتى وجر الغرير ، وخلف الوجر يجب ان تواجهكم رابية ، فهي تكاد تكون غير مرئية من هناك ، وبعد الرابية طريق ، يمكن القول ، جد بسيط يؤدي عن طريق التلاع الى البحيرة . وهناك تصلون» .

وقد تتبعنا هذه الاشارات بدقة الا اننا لم نصل قط .

ونحن الآن نسير وفقاً للخارطة ، ومع ذلك فقد ضللنا السبيل في مستنقعات جافة مكسوة بغابة صغيرة .

كان النهـار الخريفـي يخشخـش بالاوراق ليابسة وبعد ذلك اخذ يتسـاقط رذاذ من لمطر ، اشبه بغبار بارد .

وحوالى الساعة الثالثة نهارا خرجنا الى بقعة رملية من الارض وسط المستنقعات ، نبت فيها خنشار يابس . وسرعان ما قتم النهار وولدت العتمة تحت سماء مكفهرة ، واقترب الليـل ، الليل الضاري في المستنقعات ، الزاخر بطقطقة الاغصـان اليابسة ووسوسة قطرات المطر والشعور المرهق بالوحدة .

كنا نصيح ونرهف آذاننا متسمعين . وكانت الريح تجيبنا بالصخب وتحمل الينا نعيق اسراب الغربان الابح .

ثم سمع من مـكان مـا وراء طرف الارض والمستنقعات صياح جوابي مديد ضعيف .

واقترب الصوت . واخذت غابة الحور الرجراج تخشخش ، وسمع الصوت على مقربة مباشرة ، وخرج من قلب الدغل صبي انمـش ، لـه من العمر قرابة اثني عشر عاما . كان يخطو بحذر على ارض الغابة المغطاة بالاوراق اليابسـة ،

عاري القدمين ، حاملاً بيديه جزمة عتيقة . واقبل علينا فحيانا بخجل .

— سمعت من يصرخ طويلاً ، — قال لنا الصبي وضحك باقتضاب . — حتى اني خفت : فليس ينبغي ان يكون هنا احد في مثل هذا الوقت . في الصيف تجيء النساء بحثاً عن الثمار ، اما الآن فلا وجود للثمار ، لقد ذهب كل شيء ! هل انتم تائهون ؟

فاجبناه :

— لقد تهنا .

فقال الصبي :

— ليس من الصعب ان يضيع الانسان هنا . في الصيف الماضي ضاعت امرأة . فما وجدوها الا في الربيع ، وما بقيت منها غير العظام .

— ولماذا جئت انت الى هنا ؟

— انا من هنا ، من بحيرة مالويه . ابحث عن العجلة .

وسار بنا الصبي الى بحيرة مالويه . وما خرجنا من المستنقعات الا قبيل المساء ، فوصلنا الى الارض الصلبة ومضينا في الطريق المغطاة

بالاعشاب . كانت الريح تسوق السحب صوب الجنوب . وفوق رؤوس اشجار الصنوبر كانت النجوم تسطع بنور حاد ، ولكن البروج المعروفة كانت تبدو غريبة من خلال خليط الاغصان . فقد كان من الصعب ان يجد المرء بينها حتى الدب الاكبر .

وبعد صمت طويل قال الصبي :

ـ كذبت عليكم بشأن العجلة . فما كنت ابحث عن عجلة .

ـ وعمّ كنت تبحث في المستنقعات ؟

ـ فاجاب الصبي :

ـ عن النجمة الساقطة . ليلة اول امس سقطت هنا نجمة ، خلف الرابية . استيقظت فاذا بي اسمع البقرة مانكا تضطرب وتخور وتهز قرنيها . لعله ذئب كان قد اقترب من البيت . فخرجت الى فسحة الدار اتطلع . واقف واتسمع ، فاذا بي ارى فجأة شيئاً يمر مشتعلاً عبر السماء كلها . وانظر فاذا هو شهاب . طار منخفضاً فوق الغابة وسقط في مكان ما هنا ، خلف الرابية . كان يهدر بشدة كالطائرة .

– وما حاجتك الى الشهاب ؟

فاجاب الصبي :

– سآخذه الى المدرسة . ينبغي البحث . وهلاّ تعلمون انتم من اي شيء تتكون النجوم ؟

وبدأ حديث ليلي عن النجوم والتحليل الطيفي . وحوالى منتصف الليل وصلنا الى شاطئ بحيرة الغابة السوداء . وكانت السماء الخريفية المزركشة بالنجوم تنعكس في الماء . وعلى الشاطئ تقوم بضعة بيوت قروية . وفي الطرف فقط يشتعل مصباح على الكاز . وقرع الصبي الباب . فسمع من وراء الباب صوت نسائي غاضب يقول :

– اين كنت ، ايها الشيطان الصغير ؟ لا فعل لك غير تمزيق جزمتك عبثاً .

فاجاب الصبي :

– ولكني خلعت جزمتي ، يا ماما .

وقرقع المغلاق ، ودخلنا على العمياء دهليزاً تفوح فيه رائحة حشيش وحليب طازج .

بتنا ليلتنا في المنزل لدى الصبي – وكان اسمه ليونكا زوييف – ودخن كل منا لفافة تبغ

مع والد ليونكا ، وهو رجل كهل صموت على عينيه نظارات ذات اطر حديدية ، واستلقينا على التبن قرب موقد دافئ . وكان ثمة جدجد يطلق صريره ، وفي الدهليز تقرقر دجاجات ناعسة .

افقت من نومي في منتصف الليل ، فاذا بي اسمع صوتاً نسائياً مفعماً بالدمع يغني لحن «سيدة البستوني» المعروف . وكانت الاوركسترا ترن بمئات من الاوتار المحكمة الشد . والنجوم ترتعش في النوافذ الغبشاء . وسمع الجدجد الغناء فكف عن الصرير .

وقالت ام ليونكا من رف المنامة :

– مزعج لكم هذا الراديو . صنعه ليونكا ، وهو لا يدعكم تنامون ، اما كيف اوقفه – فلست من اهل العلم ! يجب ايقاظ الصغير .

– لا لزوم لذلك . دعيه نائماً .

– اما نحن فنحب ، – قالت المرأة من العتمة ، وبات صوتها مترنماً هادئاً ، – نحب بحرارة ان نسمع كيف تغني موسكو . تغني غناء غير مفهوم ، ومؤثراً ومرحاً ، واحيانا اظل

حتى صياح الديك لا يغمض لي جفن ، وان اكن قد تعبت كثيرا في اليوم الماضي باعمالي المنزلية .

وسكتت قليلاً . ثم قالت وهي تبتسم ، على ما يبدو ، في العتمة :

– ولكن ذلك كله شغل ليونكا ... يا له مخلوق لا يقر له قرار ، متعطش لمعرفة كل شيء ، لا شك انه يقتفي اثر ابيه .

فسألت المرأة :

– ومن هو ابوه ؟

– من هو سيميون ؟ – كررت المرأة سؤالي . – سيميون عندنا حزبي منذ عام ١٩١٨ . كل شيء للناس ... يعطي الآخرين الكسرة الاخيرة ، واما هو فيظل شبعان بالكتب وحدها .

وفي الصباح عرفنا قصة سيميون زوييف . كان في شبابه معاون رئيس ورشة خياطة في مدينة ريازان . وكانت مؤسسة ليسوف ، التي كان يعمل فيها ، معتبرة احسن مؤسسة في المدينة . كانت تشتغل للمحافظ ، وللعسكريين والمحامين . وكان المحامون يوصون على بذلات

الفراك ، وقد اتلف سيميون عينيه وهو يخيط الشرائط الحريرية على بنطالات الفراك ، اذ كان هذا عملاً يدوياً وعلى جانب كبير من الدقة .

وكان ليسوف ، وهو شيخ تقي معروق ذو وجه اخضر كزيت مصابيح الايقونات ، يظل طول النهار يقرأ الكتب الدينيــة او « تاريــخ الدولة الروسية » للكاتب كارامزين . وقد انفق الف روبل على تجميل المدينة ، اذ كان يلصق على الجدران في الشوارع الغبراء الواحــاً من الحديد الصب عليهــا مقتطفــات من « تاريخ » كارامزين . وكان مكتوباً تحت كل نص : « انظر تاريخ السيد كارامزين » ، الجزء كذا ، الصفحة كذا .

وقد قال سيميون :

— بدأت بكارامزين وانتهيت بمقالات لينين .

كان صوته يصل بصورة قوية حتى الاصقــاع النائية ، ويمكن القول ، حتى اكثرها اقفاراً . تقرأ ليلاً ، واما في الصباح فتخرج الى الشارع ، فاذا هواغبر ، والاوز يمشي الى الرامات ، وترى احد جدران الحانة محمراً بالشمع الاحمر الذي

نختم القوارير به ، وفي الكاتدرائية تدق لنواقيس ، وفقراء الناس يضرب بعضهم بعضاً من اجل كوبيك ، وبكلمة موجزة ـ روسيا ما قبل الطوفان ، واما في رأسك فتحمل كلمات غضة ، وكأنها النور ، عن مستقبلنا .

وبعد الثورة ذهب سيميون الى الريف ، على البحيرة ، فبنى منزلاً على الشاطىء وشرع في استصلاح الارض الخصبة في الاماكن النائية من الغابات . والآن تعيش خمس عائلات على البحيرة .

وفي الصباح اوصلنا ليونكا الى الطريق العامة . وكانت الشمس البيضاء تشع في الغابات المتساقطة الاوراق ، وعلى ضوئها البارد كانت العين ترى جيداً كل ورقة تسقط من شجرة حور رجراج او شجرة بتولا في مياه البحيرة . ومن حين لآخر ، كانت الريح تهب بشدة فتتطاير الاوراق اذ ذاك مطراً صاخباً ، وتدغدغ الوجه .

وبعد بضعة ايام جاء ليونكا الينا في القرية راكضاً يحمل قطعة من «النجمة الساقطة» ، هي عبارة عن شظية حادة مخثرة ، مغلفة

بالسخام والصدأ . وقد عثر عليها خلف الرابية في قرمة محطمة .

ومنذ ذلك الحين ارتبطت بعرى الصداقـة مع ليونكا . فكنت احب ان اجوب معه الغابات : اذ كان عارفاً بجميع الممرات وجميع الزوايـا النائية من الغابة ، وجميع الاعشاب والشجيرات البرية والطحالب والفطور والازهار ، وكان عارفاً بجميع اصوات الطيور والوحوش .

وقد كان ليونكا اول من حكى لي ، من بين الناس الكثيرين الذين التقيت بهم في حياتي ، اين وكيف ينام السمك ، وكيف تظل المستنقعات الجافة تتفسخ تحت الارض طول سنين ، وكيف تزهر الصنوبرة القديمة ، وكيف تهاجر العناكب الصغيرة في الخريف مع الطيور . تطير ملتصقة بشباكها حين تهب الرياح جنوباً ، تطير عشرات الكيلومترات .

وكان لدى ليونـكا كتابـان لكايغـورودوف قرأهما حتى اهترئا . وعبثاً كان يبحث فيهمـا عن كشف لغز هجرة العناكب في الخريف . وكان ليونكا يقول لي :

— ثمة امر واحد لا افهمه ... العنكبوتة صغيرة ، ولكنها تنفث من الخيوط مقداراً اذا انت لففته في كومة لساوت هذه الكومة اربعين عنكبوتة . وكان ليونكا يهرع كل يوم الى المدرسة ، وهي على بعد عشرة كيلومترات . وفي الشتاء كله لم يغب عن المدرسة غير يومين ، ولكنه ماكان يحب تذكر هذا ، فقد كان مرتبكا . كانت في ذينك اليومين عاصفة ثلجية شديدة ، وغمر الثلج منزلهم حتى السقف .

وفي الشتاء ، كان ليونكا يخرج من البيت في العتمة ، والنجوم المسننة ترتعد من شدة الزمهرير ، واشجار الصنوبر تطقطق ، والثلج يزقزق تحت الاقدام ، وينقبض صدر ليونكا مخافة ان تسمعه الذئاب . ففي الشتاء كانت الذئاب تقترب حتى البحيرة وتعيش بين اكوام التبن .

ولكن اسوأ شيء انما كان في نهاية الخريف ؛ في شهر تشرين الثاني ، حين يكون الثلج الذائب بفعل المطر مفروشا على الطرقات ، ومن السماء

السوداء تلسع الريح العاصفة الوجـه وتجمّد الجسد كله..

وفي الصيف كان ليونكا يقوم مع امه بحراثة الحاكورة وتقليب ارضها ، ورش البذار ، وحش العشب . وقد كان سيميون عاجزا عن العمل . ففي كل عام كان قلبه يزداد نبضا ، ووجهه يمتلئ بورم رمادي اللون ، ويعاني سعالا مديدا جافا .

وكان سيميون يقول وهو يفرك صدره الجاف براحة يده :

— اما ان اعيش واما ان اموت .. لقد اكلتني الحياة السوداء . والثورة ، لو تعلم ، قد جاءت بعد فوات الاوان . طيب ، لا بأس ، سيعمل ليونكا عني ما ينبغي انجازه .

ارتبطت بالصداقة مع ليونكا وكنت ابعث له من موسكو الكثير من الكتب . وكل خريف كنت اسافر الى القرية الغابية واذهب منها الى البحيرة . وبات هذا تقليدا .

كنت دائما اجيء على غير انتظار . امشي في الغابات الخريفية الهادئة حيث لم يكن يقابلني

غير الطيور ، فاتعرف على القرم القديمة ، والفسحات المنيرة ، والدروب المتعرجة المهجورة . كنت اعرف كل شجرة صنوبر في طرف الغابة – اذ كان ليونكا قد علمني ان احبها .

وكان من عادتي ان اجيء في ساعة متأخرة من غبش المساء حين تنبئ النجوم الشاحبة بليلة باردة وتبدو رائحة الدخان اطيب رائحة في الدنيا . فهي تنبئ باقتراب البحيرة ، والمنزل الدافئ ، والاحاديث المرحة ، والشكاوى المنغمة الصادرة عن ام ليونكا ، وفراش القش اليابس ، وصرير الجدجد والليالي التي لا تعرف نهاية اذ يفارق النوم جفوني من جراء هدير الاوتار وميلوديات بتهوفن وفيردي ، التي تغلب على عواء الذئاب الجائعة الراعش .

وفي كل مرة ، كان ليونكا ينط من البيت ويهرع لملاقاتي . وكان يستحي من ابداء فرحته ويكتفي بمصافحتي بشدة . ثم نروح نتكلم طويلا عن الكتب التي قرأناها ، وعن الموسم ،والاشتاء في القطب ، وكسوف الشمس وصيد السمك . وقد كان لدينا مواضيع كثيرة للحديث تثير

حماستنا ، ومن جديد كان سيميون يحكي عن شبابه وعن الطلاب الذين كانوا ينقلون المناشير الى ريازان .

وهكذا توطدت الصداقة . ومهما كان المكان الذي انـــا فيه ، كنت اعلم اني عائد في اواخر الخريف الى هذا الطرف من الغابات . واعود فارى ليونكا وسيميون ويجعلني الاتصال بهؤلاء الناس ازداد شعورا بان الحياة تغدو كل عام افضل . واكثر فاكثر كانت تجيء ايام تسمع فيها فجأة كيف تضج الغابة تحت وطأة الرياح ضجيجا مدوّيا ، وكيف توسوس الينابيع الباردة على الطحالب ، فتدرك عظم قيمة الكتب والتفكير والصداقة مع صبي قروي يحلم منذ ثلاث سنوات بالسفر الى موسكو ورؤية الميترو والكرملين والفيل الحي في حديقة الحيوانات .

وكل عـــام يشيعني ليونـــكا حين اسافـــر . وكذلك كان الامر في تلك السنة . كان القطار ، وهو ضيق السكة ، صغير مضحك ، يسميه السكان المحليون بـ«الحصان العجوز» ، يجرجـــر نفسه وسط الغابات . وكانت الدروب في الغابة تكشف

عن ادغال مختلفة الالوان ، ارجوانية وذهبية ، وفي احد هذه الدروب ، قرب الخط الحديدي ، كان يقف ليونكا ملوحا بقبعة ابيه العتيقة . واما القاطرة ، وهي اشبه بابريق الشاي ، فتصفر عليه بغضب ، ولكن ليونكا كان ينطلق ضاحكا ويصيح بي عبر النافذة :

– سننتظر ! ساكتب لك رسالة عن كل شيء ، فلا تنس ان تبعث لي بكتاب بريم .

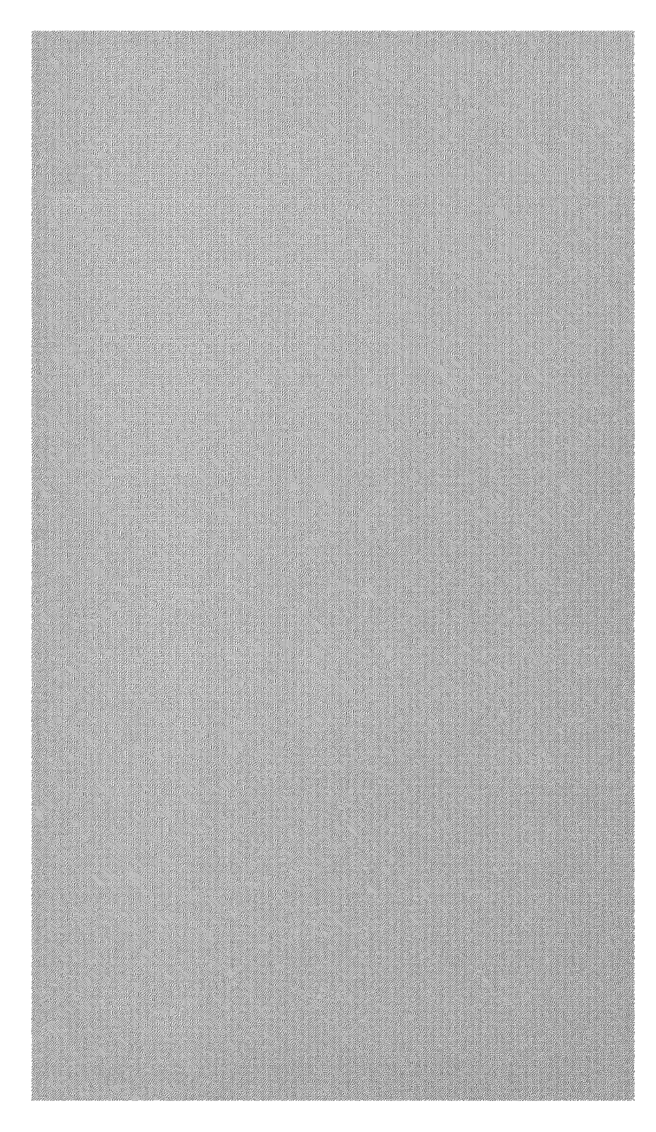
وظللت وقتا طويلا اراه محمر الوجه ، راكضا خلف القطار خلال ادغال الخريف الرطبة اللاذعة الرائحة . كان يركض ويلوح بحقيبة الكتب ويبتسم لي وللغابات وللشمس وللدنيا كلها ابتسامته الخجلى الساذجة .

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنـــوان : زوبوفسكي بولفـــار ، ٢١
موسكو ـ الاتحاد السوفييتي



الشـاب فيكتور كونيتسكي ، وهو مشهور اليوم .

ولكن مهمـا يكن من عدم تماثل في الذاتيـة الابداعيـة لدى مؤلفي القصص التي تشتمل عليهـا هذه المجموعة ، فما من شك في ان القارئ سيشعر بالوحـدة العضوية الكاملـة للكتاب المعـروض عليه . فـان هذا الكتـاب يتحدث عن المصائر البشرية الكبرى وعن الحب المتفاني ، وعـن الشبيبـة الزاخرة بالآمال ، وعن سعـادة العمل الحر . وابطالـه انـاس سوفييتيون بسطـاء ، ذوو قلـوب مفتوحة ، بواسل ، محبون للعمل ، بناؤون واثقون للحيـاة الجديدة .

